محمد سعيد العريان

حياته وآثاره وآراؤه

وفن المقالة والسيرة عنده

تأليف

د. زينب محمّد صبري بيره جكلي

كلية الآداب - جامعة الشارقة





محمد سعيد العريان

١٣٢٣ - ١٣٨٤ هـ

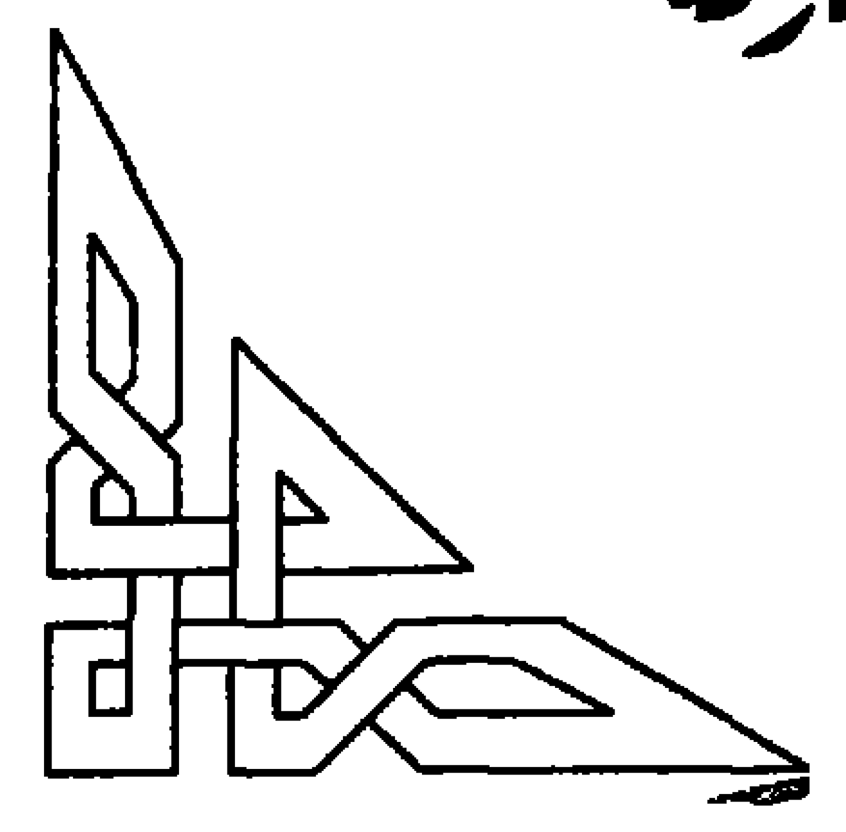
١٩٠٥ - ١٩٦٤ م

حياته ، فن المقالة والسيرة عنده

تأليف

زينب بيره جكلي

مدرسة الأدب في جامعة الشارقة



318

[حقوق الطبع محفوظة]

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

مكتبة دار العلوم

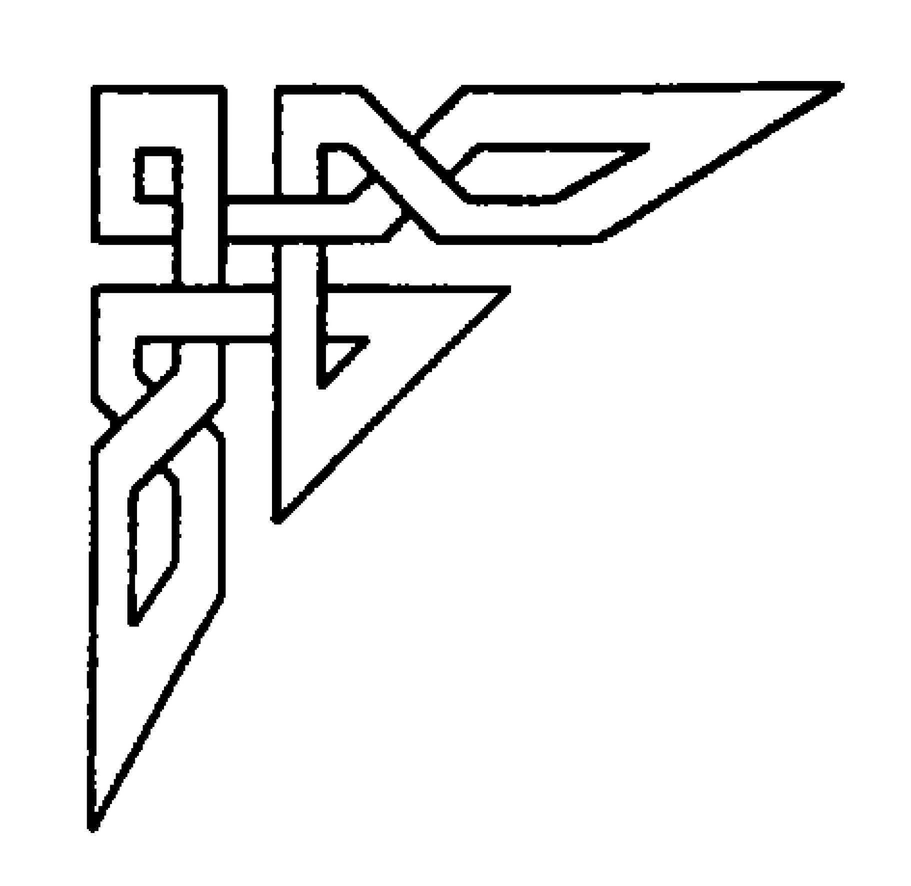
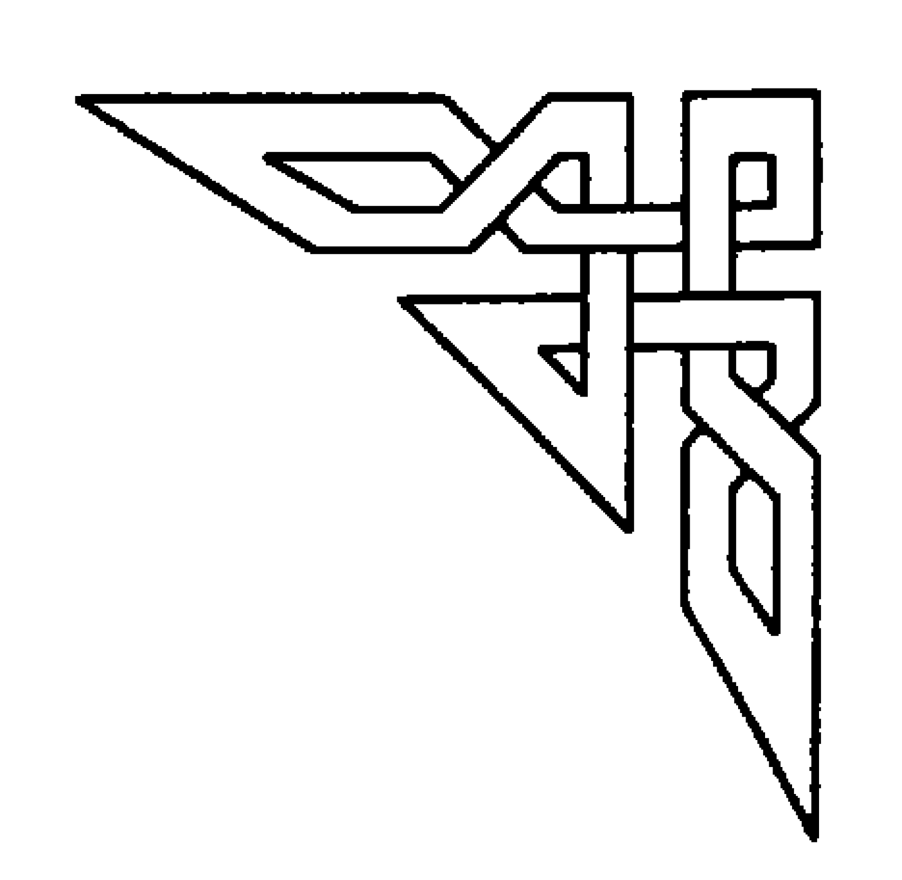
الشارقة

هاتف: ٥٣٦٢٣٣٣

مكتبة البلد الأمين

الأزهر - القاهرة

هاتف: ٥١٢٤٨٨٢

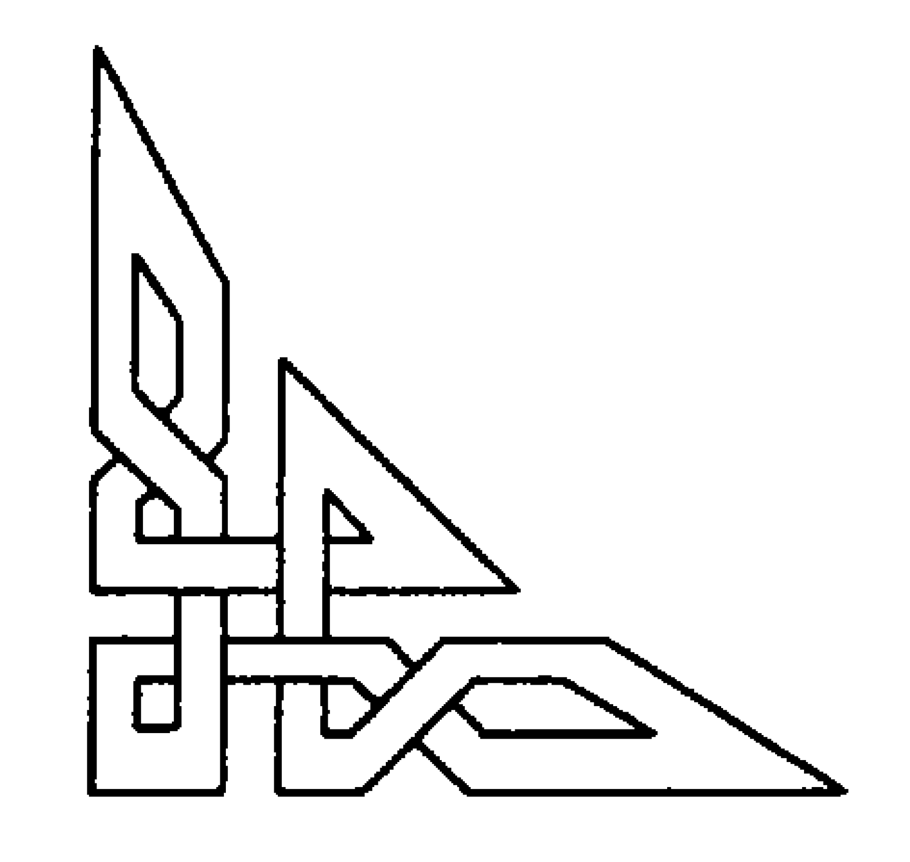
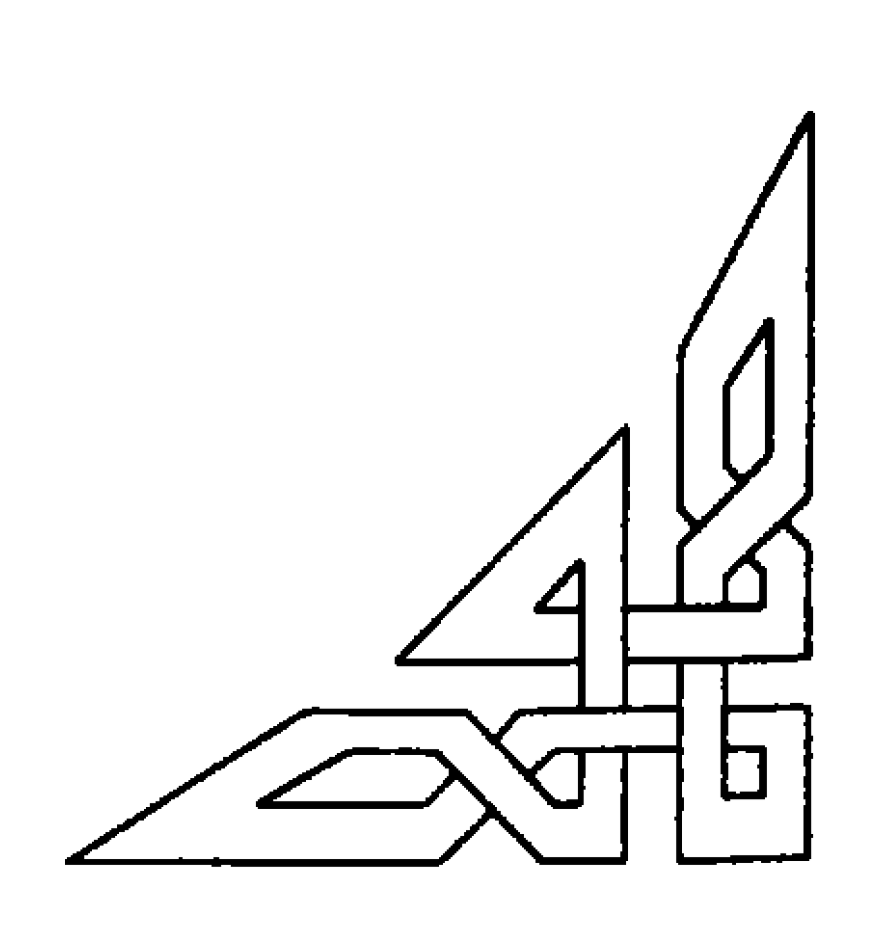



إهداء

إلى أبي عبد السلام الدكتور حسني ناعسة

أهدي هذه الرسالة اعترافًا وشكرانًا .

المؤلفة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

أما بعد .

فإن إيماني بأهمية القصة على الفرد والمجتمع ، لما فيها من عوامل جذب ، ووسائل تشويق وتأثير ، دعاني إلى اختيار الأديب «محمد سعيد العريان» موضوع رسالة الماجستير ، قرأت له منذ أمد بعيد «قطر الندى وشجرة الدر» فأعجبت بأسلوبه وبفنه ، ثم ازداد اطلاعي على آدابه ، وعرفته محرر مجلة سندباد ، وكاتب القصص المدرسية للأطفال والناشئة ، فازداد إعجابي بآدابه ، وتأثيره على قرائه صغارًا وكبارًا . ومن هنا فقد آثرت أن أدرس أدبه كله ، وجعلت عنوان الرسالة :

«محمد سعيد العريان حياته وأدبه»

وطالت الدراسة حتى جاوزت خمسمئة صفحة ونلت شهادة الماجستير في سنة ١٩٧٧ م ... فلما أردت طباعتها في عام ٢٠٠٠ م جعلتها في ثلاثة كتب مستقلة هي :

١- محمد سعيد العريان : حياته وفن المقالة والسيرة عنده .

٢- فن القصة عند محمد سعيد العريان .

٣- أدب الأطفال عند محمد سعيد العريان .

وهذا الكتاب هو القسم الأول من الرسالة ، وهو كتاب يؤرخ حياة الأديب محمد سعيد العزيان ، ويوضح آراءه ، وأفكاره ويدرس فني المقالة والسيرة

عنده ، وقد قسّمته إلى : مقدمة وبابين وخاتمة ، وكان الباب الأول في ثلاثة فصول ، بحث الأول منها حياته وأعماله ، والثاني آثاره جميعًا ، والثالث آراءه التربوية والاجتماعية والسياسية .

وقد تبين من دراسة هذا الباب أن حياته حفلت بجهاد طويل ، فمذ كان يافعًا أخذ يقاوم المستعمر الإنكليزي ، واستمر في جهاده هذا حتى قبيل وفاته بفترة وجيزة حين اصطدم مع بعض المسئولين من أجل تطوير الأزهر ، كما تبين مدى التأثر والتأثير المتبادلين بينه وبين الأديب مصطفى صادق الرافعي في الأسلوب والأفكار ؛ وكان لزوجه أثرها الكبير في أدبه أيضًا ولا سيما بعد وفاتها .

وقد أجريت وزوجي مقابلات عِدّة مع ذويه وصحبه لإلقاء مزيد من الضوء على سيرته ، إضافة إلى ما استفدته من المجلات والكتب .

أما الباب الثاني فكان في فصلين ، تحدث الأول منهما عن فن المقالة عند العريان ، وأدمجت فيها ما يتعلق بها من قريب أو بعيد من أدب الخواطر ، والتعريف بالكتب ، والنقد الأدبي عنده ، ومضيت في الأولى «المقالة» أبيّن أنواعها الذاتية منها والموضوعية ، وأحلل بعضها تحليلاً يكشف عن خصائصها ، وقد اتضح لي أن النوع الأول كان في جملته تعبيرًا عن أحاسيس الأديب ومشاعره نحو زوجه وأولاده ، وكان الحزن يملأ جوانبها والأسى يعتصر قلوب قرائها لما حوته من ذكريات شجيّة .

أما المقالات الموضوعية فقد عالجت أدواء المجتمع الاجتماعية والتربوية والسياسية ، وكان للأخيرة نصيب ضئيل ، وذلك لأن عنايته بهذا الجانب برزت في الكتب التي ألفّها ، وفي خواطره .

وكانت هذه كلمح البرق ، متناثرة الأفكار ، متعددة الموضوعات ، وامتازت بأسلوبها الثائر العاطفي ، وكان في بعضها هدوء العالم المتّزن .

وقد عُني العريان بفن التعريف بالكتب التي كانت تنشر في الأسواق ،

وتعددت موضوعاتها ومجالاتها ، واتبع في عرض معظمها المذهب الواقعي .

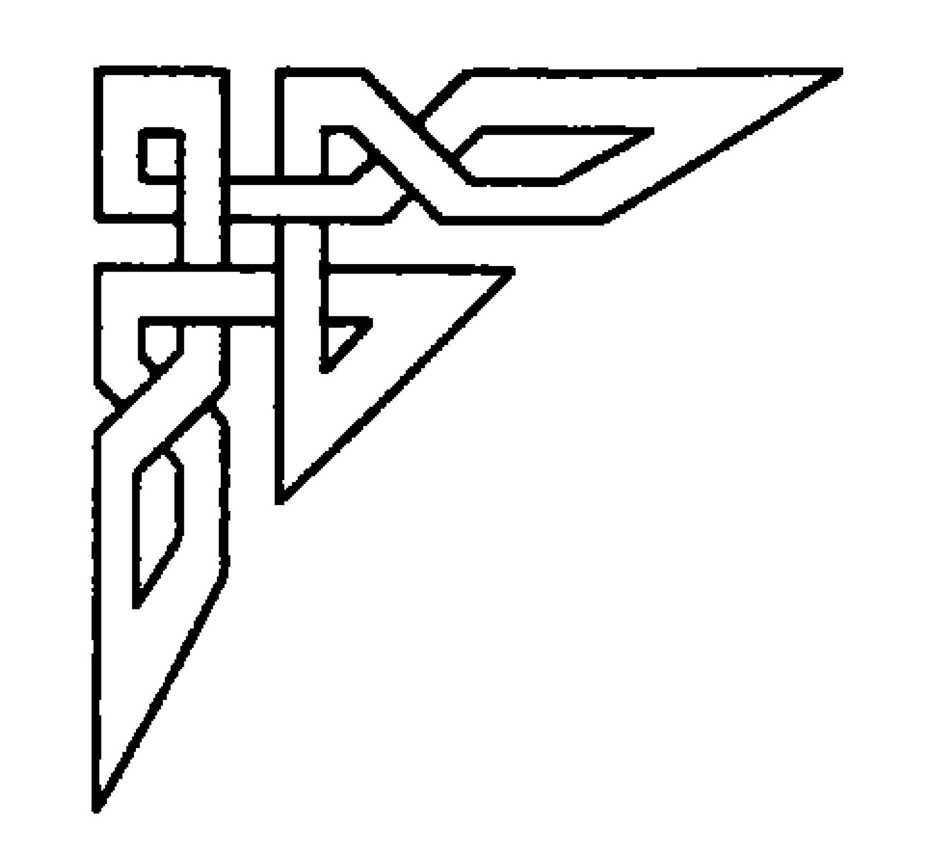
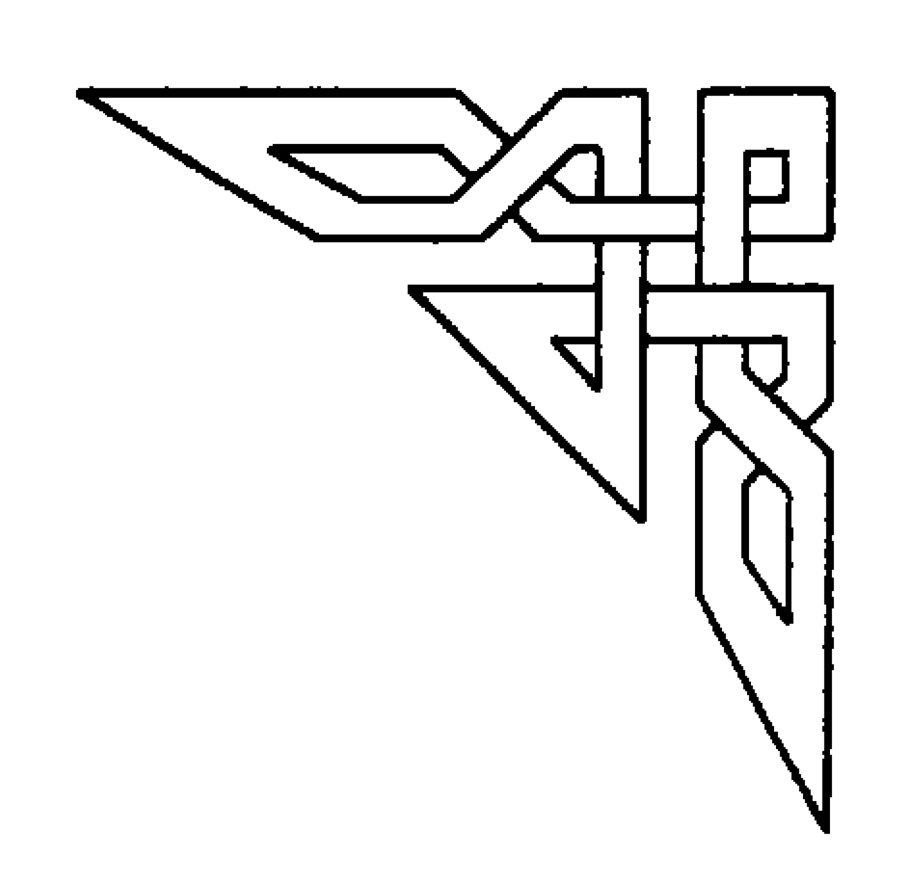
وفي تضاعيف آدابه تلقانا نقدات تأثر فيها بالإسلام والتراث ، وبالنقد الحديث عربيّة وأجنبيّة ، وهي على أهمية مضمونها لا تجعله في النقاد ، وكان يلتزم في أدبه ما يدعو إليه .

ويتمثل أدب السيرة عند محمد سعيد في كتابه «حياة الرافعي» ، وقد درسها الفصل الثاني فصوّر حياة الرافعي ومجتمعه ، كما تناول خصائصها الفنية ، ويمكن القول : إنها سيرة أدبية إخبارية ، وتعدّ فنية إلى حدّ كبير ، وهي من أوائل الكتب في هذا المضمار .

أما الخاتمة فكانت تلخيصًا لما سبق .

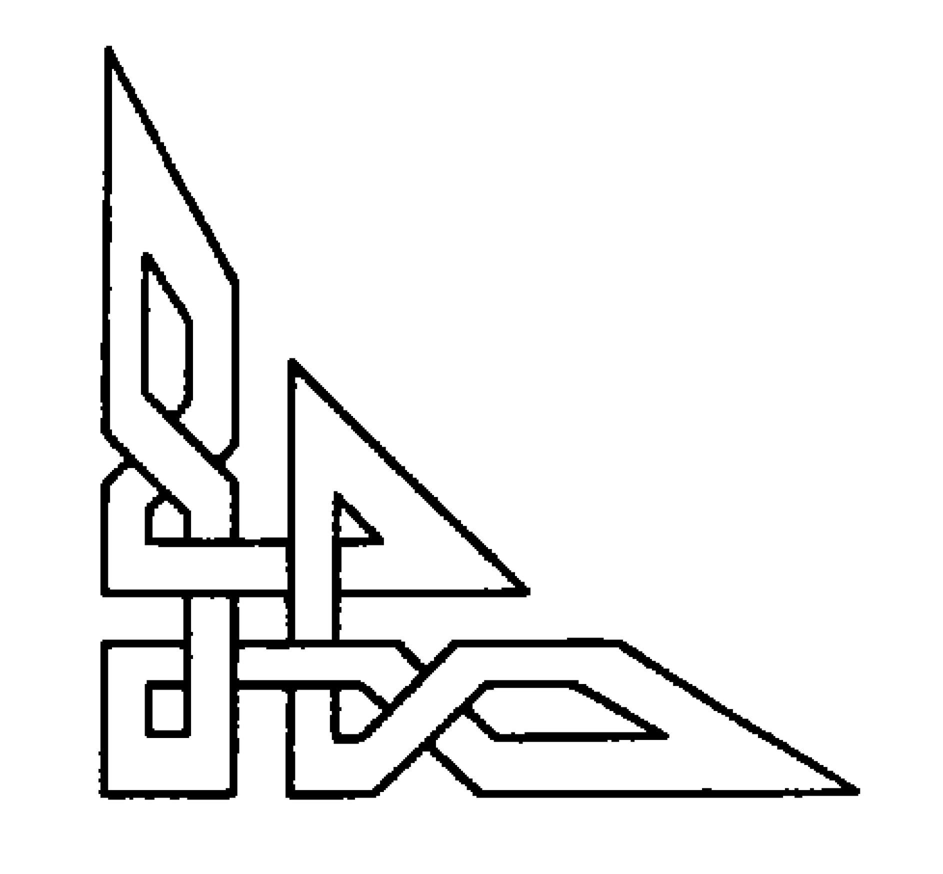
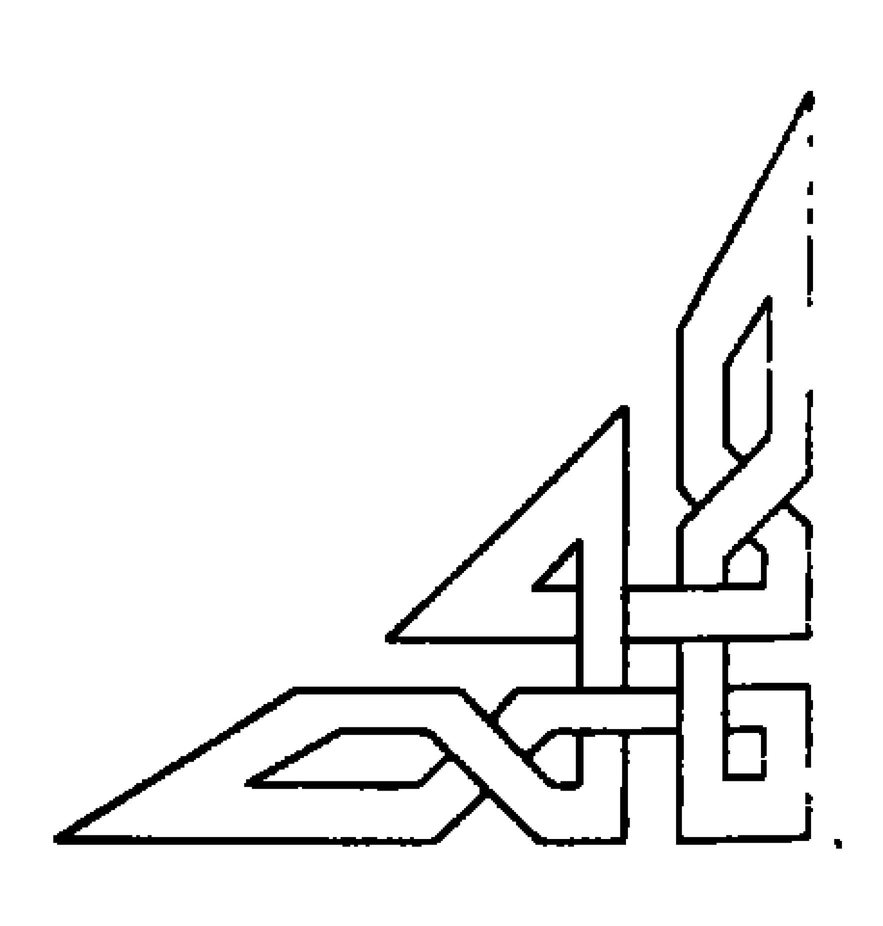
وقد عانيت في جمع المادة كثيرًا ، فهي ليست مطبوعة في كتاب ، وإنما تناثرت في بطون الصحف والمجلات ، وما أكثرها في القاهرة ، وكان لي من إرشادات مشرفيّ الأستاذ / الطاهر أحمد مكي ، والدكتور / محمد أبو الأنوار محمد علي خير معين لي ، فجزاهما الله عني كل خير ، وكنت أقضي الساعات الطوال أنظر في بطون الصحف والمجلات لأقتبس من هذه أو تلك مقالة أو خاطرة ، أو رأيًا ارتآه في قضية سياسية أو اجتماعية ؛ واتبعت في دراسة حياته المنهج التاريخي ، وفي دراسة مقالاته وخواطره المذهب الفني . وأخيرًا .. أرجو الله أن يجعل في حياته وأدبه خيرًا كثيرا وأن يسدد خطانا لما يحب ويرضى .

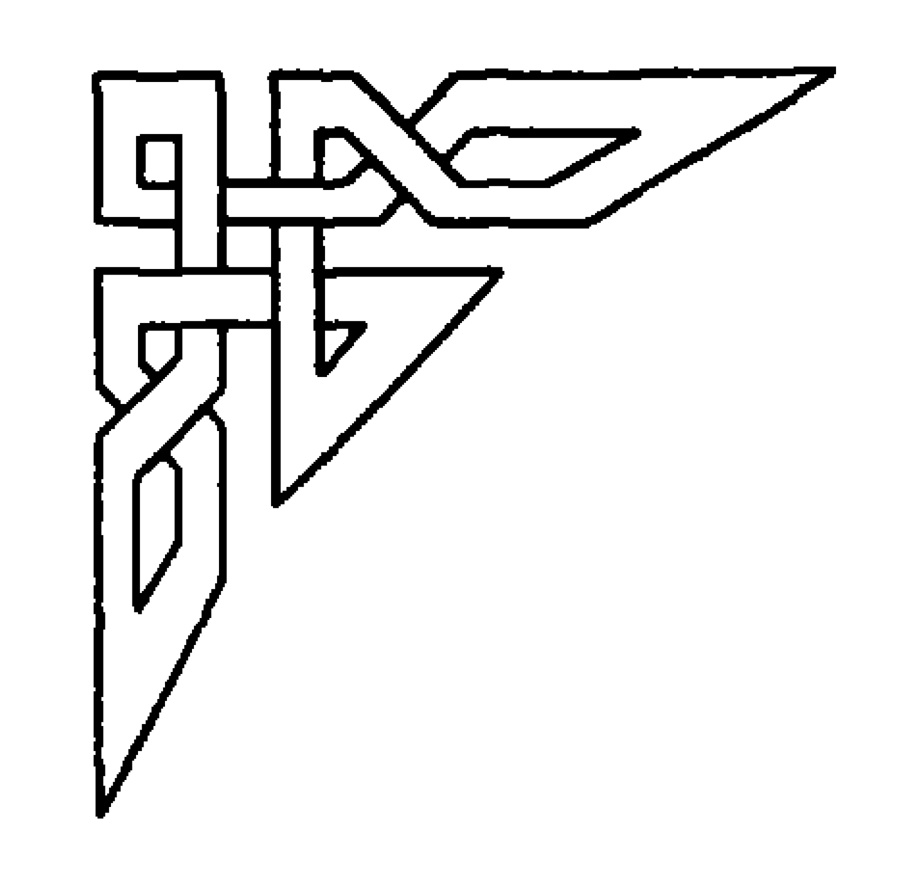
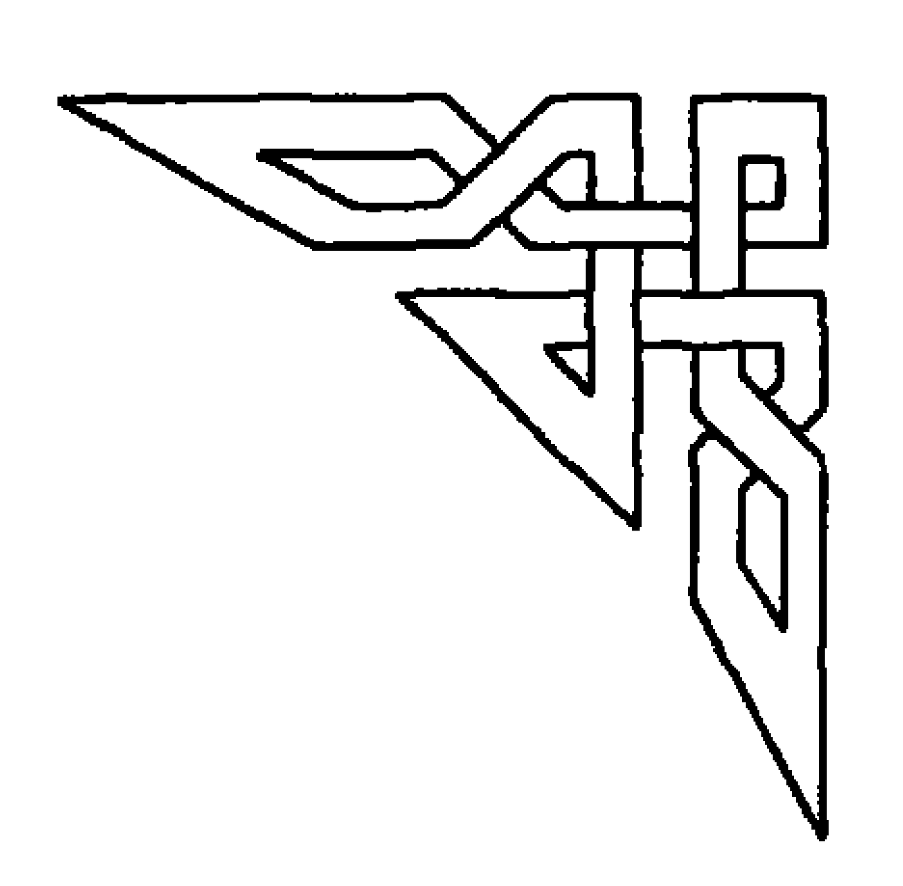
المؤلفة

الباب الأول

الأديب : حياته ، وآثاره ، وآراؤه

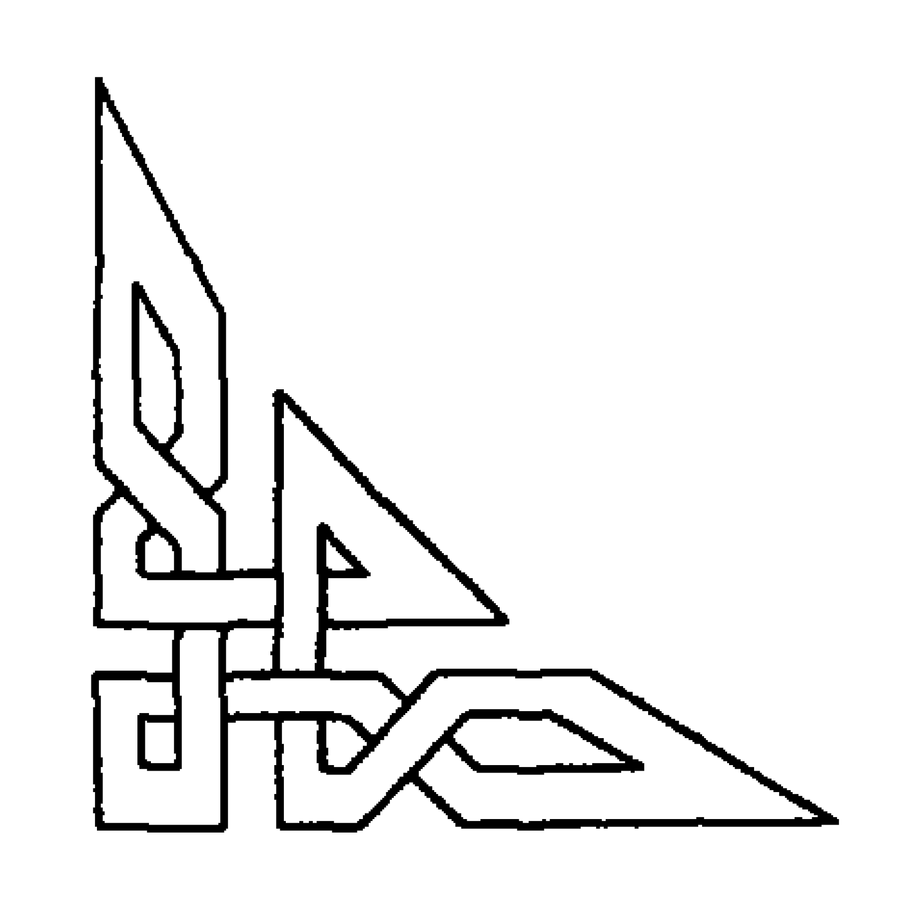
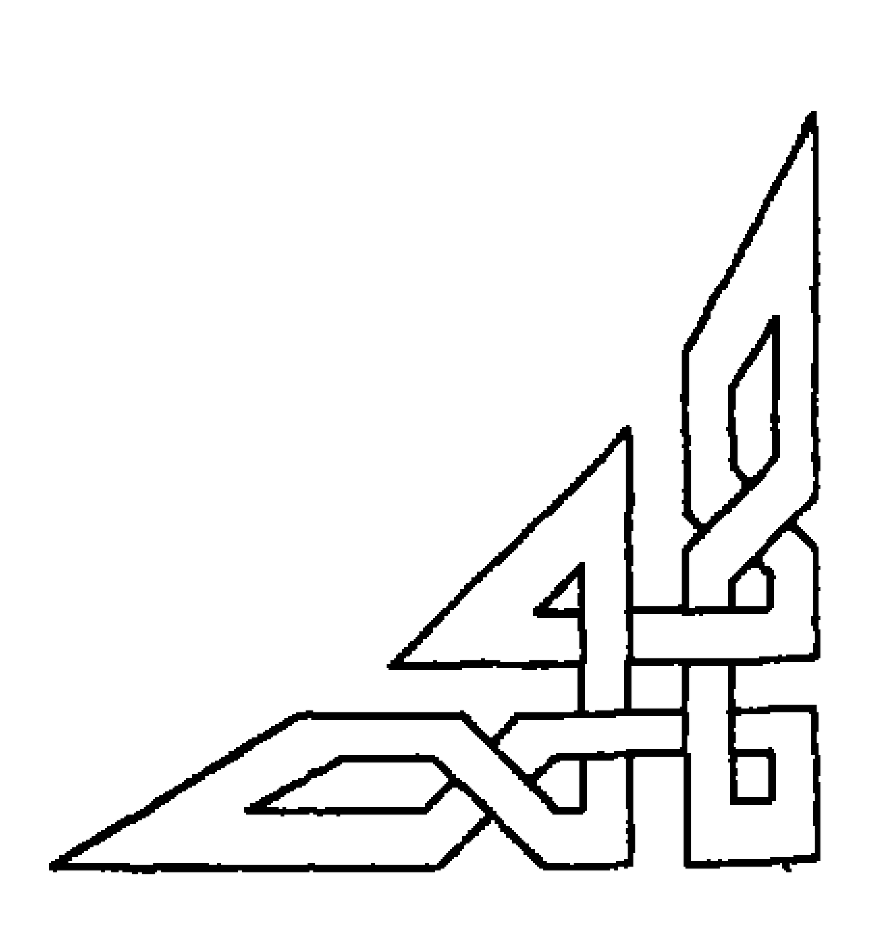



الفصل الأول

حياة الأديب

«١٩٠٥م - ١٩٦٤م»

حياة الأديب

أولاً : نشأته

١- مولده وتسميته :

ولد «محمد سعيد العزيان» في الثاني من كانون الأول «ديسمبر» عام ١٩٠٥ م - ١٣٢٤ هـ ، صباح أول يوم من عيد الفطر السعيد ، وكان أبوه قد قارب المئة من عمره ولمّا يرزق غلامًا يخلُفه ، ففرح به فرحًا شديدًا ، واستقبله وهو يقول : «لقد أبطأت طويلاً يا بني حتى أدركني الهرم - ولكني بك اليوم سعيد» وسماه «محمد سعيد» [1] .

٢- أسرته :

وكانت أسرته تقيم في «محلة حسن» [2] ، وكان والده الشيخ أحمد من أهل الصلاح والتقوى ، ويتصل نسبه بالشيخ العريان الكبير «حامي الحجيج» كما تصفه بعض المنظومات الصوفية [3] ، وقد قدم والده القاهرة ليحاضر في الأزهر ، ولما نشبت الثورة العرابية ، وكان من خطبائها وشعرائها تعقبه الإنكليز ففرّ إلى طنطا على قدميه وهو شيخ في الستين ، وأوى إلى دار القصبي ، وكان يقينه أن الله منجيه لا محالة ، فلم يستسلم ، ولم يزدلف إلى الحاكمين ، وشمله العفو ، واستأنف في طنطا حياة جديدة يحاضر فيها في الجامع الأحمدي [4] ، وعلى يديه تلقى ابنه «محمد سعيد» علومه الأولى ونشأ على التقوى ، وقرأ كتب أبيه ، فكان لها ولهذه التربية عامة آثار في نفسه

---

(١) نسبة إلى عيد الفطر السعيد .

(٢) محلة حسن مركز المحلة الكبرى من محافظة الغربية في مصر .

(٣) محمد كامل حته : شخصية لا تنسى : محمد سعيد العريان ، مجلة العربي س ١٩٦٩ ع ١٢٦ ص ٤٢-٤٣

(٤) وهو فرع من الأزهر مقره في طنطا .

تبدت واضحة في دعواته الإصلاحية .

ولما جاوز والده المئة هدأت جذوة النضال في نفسه ، وبات يخشى على وحيده ويحرمه من مغادرة الدار إبان المظاهرات الدامية ، إلا أن الفتى كان يشترك فيها خفية ، ليلقي فيها شعرًا من نظمه ، يعبر فيها عن سخطه على الإنكليز وأعوانهم .

أما أمه فلا نعرف عنها إلا أنها منعته من السفر إلى لندن لنيل شهادة «الدكتوراه» بعد أن رشح مع أعضاء البعثة الفهمية ، فأطاعها برًا بها ، وهناك قول يذهب إلى أن البعثة ألغيت لأسباب سياسية [١] .

٣- *في مرحلة التثقيف* :

استقرت أسرته كما ذكرت في طنطا ، وترعرع فيها الفتى في بيت علم ودين ، وتلقى عن أبيه الشيخ دروسه الأولى ، ثم دخل الكُتّاب ، وحفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، ثم التحق بالمعهد الأحمدي، وشارك خلال هذه الفترة في الثورات التي نشبت ضد الإنكليز ، كما اشترك في ثورة ١٩١٩ ونظم أناشيد وطنية ، وكتب منشورات سياسية كان زملاؤه يبثونها بين صفوف الشعب حتى صارت له شهرة واسعة بلغت أنباؤها آذان الكبار فركنوا إليه [٢] .

ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره لقي من طغيان الإنكليز وتعسفهم ما أثر في دراسته ، من ذلك ما ناله حينما تقدم إلى الامتحان الشفوي للشهادة الابتدائية فقد سخر رئيس لجنة الامتحان وأعضاؤها من نشاطه الوطني ، وأحس بأنه سيكون في الراسبين على الرغم من أنه كان أعلى الطلاب درجات في الامتحان التحريري ، وأدينت اللجنة بالتزوير إلا أن أنظمة الامتحان لا تجيز تعديل النتيجة ، وصبر نفسه ، ونال الشهادة في السنة التالية ولكنه ما

---

(١) انظر محمد كامل حته : مجلة الرائد صوت المعلمين س ١٩٦٥ ع يونيه - حزيران ص ٧ .

(٢) محمد سعيد العريان : أدب النهضة : مجلة الثقافة ع ٢٥٧ ص ١٧ .

إن وقف على باب المرحلة الثانوية ينظر إلى رفاقه الذين سبقوه حتى أحس بالمرارة فولى المدرسة ظهره ، وعاد إلى البيت وفي رأسه نية ... وأكب على الكتب ينهل من علومها حتى فرغ من مقررات السنوات الأربع بعد ثمانية أشهر ، وكان نجاحه فيها إضافة إلى نشاطه الوطني الذي أدى به إلى السجن قبل الامتحان بخمسة أسابيع دليلا ساطعًا على حدَّة ذكائه [١] .

التحق محمد سعيد بعد نيله الشهادة الثانوية بكلية دار العلوم ، وكان عمره عشرين عامًا ، وتفتحت مواهبه فيها ، وكان من المبرزين علمًا وجهادًا ، إذ استمر يناضل المحتلين ، من ذلك ما اتصل بمحاربته «التبشير» الذي نبه الشباب إلى لون من ألوان مكايد الاستعمار للعقيدة والوطن خلف جدران بعض المؤسسات التعليمية والعلاجية [٢] ولقد تزود في دار العلوم بكثير من علوم اللغة والأدب والدين ، تلك العلوم التي أولع بها صغيرًا عندما كان يقرأ كتب أبيه ، ويستمع إلى محاضراته ، وقد تفوق على أقرانه . وانتدبه مدرسوه لإلقاء محاضرة في موضوع يختاره ، فانتقى موضوعًا من واقع حياته وكتب فصلاً ممتعًا هو في واقع الأمر نبضات قلبه ، وخلجات نفسه في أسلوب الأديب المعبّر عن شخصيته ... أما هذا الموضوع فهو « كيف أختار زوجتي»، وقد اختلف المستمعون حول آرائه ، ففريق عدّه خارجًا على التقاليد ... وفريق آخر رأى ما ذهب إليه فتحًا جديدا في عالم الفكر .. وكان زعيم هذا الاتجاه الأستاذ أحمد الزياتي الذي استقبل الفتى صبيحة اليوم التالي للمحاضرة على باب دار العلوم وهو يهتف به : أقسم لقد أمتعتني يا بنيّ ليلة الأمس بزادٍ فكري لم أستمتع به طوال حياتي [٣] .

---

(١) انظر محمد سعيد العريان : هكذا علمتني الحياة «كل هزيمة يمكن أن تتحول إلى نصر» : مجلة بناء الوطن س ١٩٦٢ ، ع ٤١ ، ص ٢٠ .

(٢) انظر محمد كامل حته : ذكرى سعيد العريان : الرائد س ١٩٦٥ ع يونيه حزيران ص ٧ .

(٣) محمد كامل حته : مجلة العربي ع ١٢٦ ص ٤٤ .

ويحدثنا العريان عن حياته في تلك الفترة فيذكر أنه لم يكن يعرف القاهرة من قبل ، فلما أتاها ليلتحق بدار العلوم بهرته أنوارها في الليلة الأولى، ولكنه أحس بعد أسابيع بمرارة الاغتراب ، وأهمه تدبير شئون المنزل ، واضطر إلى الموازنة بين دخله ومصروفه على حساب أعصابه ودراسته ، وكان لهذه الفترة أثرها النفسي في دعوته إلى إنشاء بيوت للطلبة تتكفل الدولة فيها بالإشراف على شئونهم .

نال محمد سعيد الإجازة عام ١٩٣٠ بتفوق ، فرشح للبعثة الفهمية لدراسة «الدكتوراه» في لندن ، ولكنه لم يسافر كما رأينا .

وفي هذه الفترة اتصل العريان بعبدالله الدماطي ، وهو تاجر من طنطا تربطه به قرابة بعيدة ، وحزب وطني واحد هو حزب الوفد ، وأخذ يتردد على منزله ، فأحب ابنته وكانت زوجه فيما بعد ، بعد انتظار دام بضع عشرة سنة حالت بينها التقاليد خلالها ، وظهر أثر هذا في أدبه على نحو ما سيمر بإذن الله .

٤- *في مرحلة التعليم* (١٩٣٠ - ١٩٣٤) :

كان العريان محبًا للعلم شغوفًا به ، وكان يعد تحصيله أول فرائض الإسلام ، يقول : «لأمرٍ ما كان أول ما نزل في كتاب الله : (بسم الله الرحمن الرحيم . اقرأ ...) فكانت القراءة عندي أول فروض الإسلام ، ولما سأل عن الأمنية التي يريد تحقيقها قال : «أن تكون في كل مدينة ، وكل قرية ، وكل حي ، وكل بيت : مكتبة» [١] .

وكان حبه للعلم يدفعه إلى المطالعة المستمرة ، وتعدّ فترة تدريسه في شربين ، وكانت عامين ، فترة تثقيف ودراسة ، بل كان يراها مدرسته الحقيقية ، ففيها أكب على قراءة أمهات الكتب حتى بلغ مجموعها خمسمئة كتاب .

---

(١) محمد كامل حته : مجلة العربي ع ١٢٦ ص ٤٩ .

وانتقـل العريـان بعدهـا إلى طنطـا وهنـاك التقى بالأستـاذين أمـين دويـدار، ومحـمود زهـران ، وألف معهمـا كتبًـا للأطفـال كبدايـة لدعوتـه الإصلاحيـة التربوية والاجتماعية ، كما تعـرف على الرافعي فكـان ينسخ لـه ويصحح بعض مؤلفاته ، وقد تأثر به أدبيًا ودينيًا ، وأنشأ معه «جمعية الثقافة الإسلامية» للعمل على إحياء الشعور الديني وصرف الشباب الإسلامي عن الـلهو الـذي انغمسوا فيـه ، فتـحللوا به من فضائـل دينهـم وأخلاقهم بعدمـا انتشرت في صفوفهـم المادية والإلحـاد ، وأثرت في جوانـب حيـاتهم ، وعمـل وزملاؤه فيها على توضيـح مبادئ الإسلام وشرائعه وتعاليمه التي تتفق وأرقى مبادئ المدنيات التي تقرّها العقول السليمة ، وتصلح لكل زمان ومكـان في إحاطتها بجوانب الحياة المادية والمعنوية ، وتعالج المجتمع من أدوائه التي تهدم الأسرة والجماعة معًا [1] .

ثانيًا : زواجه

١- فترة الخطبة :

عُرِف العريان بين صحبه بتقواه وعفـة نفسـه ، وبعـده عما يزينـه لـه الشيطان من موبقات ، ولكنه كان يحب خِطْبه حبًا جمًا ، فـلا تخلو ساعة إلا ويتخيلها فيها زوجة تحادثه ويحادثها ، فهي بسمة عمره ، وأغـرودة دنياه ، ومن هنا كان ضيقه بالحياة حينما حجزت عنه بعدما عقد له عليها باسم التقاليد .

عرف العريان «توحيدة» حينما كان يتردد على أبيها عبد الله الدماطي، وكـانت تتمتع بهدوء ورزانة إلى ثقافـة وخلق نبيـل ، فأحبهـا وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وأحبته ، ولكنه لم يصرح لها بحبه ، ولـم تصرّح له ، ولما قارب التخرج من الجامعة خطبها إلى أبيهـا لتتاح له فرص أكثر للقائها ، وتمّت الموافقة ، لكنهم حجبوها عنه ، فعاش أمدًا طويلاً يذكرها في ليله ونهاره ، وفي

(١) انظر كتاب جماعة الثقافة الإسلامية بطنطا ١٩٣٣ ص ١-٦ ، ٢٩-٣٦ .

روحاته وغدواته ، وها هو ذا يتخيلها معه في فُلك واحدة تمخر بهما في عباب البحر ، وتغمرها سعادة اللقاء : «أنا وأنت هما كل الناس ، ويومنا هو الزمان، ومجلسنا هو العين في العين ، والجنب إلى الجنب ، هو الدنيا كلها ، ما تتسع لغيره ، ولا تمتد لسواه» (١) ، ويتخيلها وقد أظلهما سقف واحد ، وجمعتهما دار واحدة وهي تشرف على شئونهما وتملأ نفسه إعجابًا بها ثم يرزقان طفلاً يهرول بين يديهما ، ويجمع بين قلبيهما برباط وثيق ، ولكنه يفيق من حلمه هذا ، ويصحو على الحقيقة فيناديها «أي زوجتي التي لم أعرفها لأني لم أرها بعد (٢) ، أي زوجتي التي تنتظر وراء الستر حالمة ترقب الميعاد ، أي ولدي الذي يتوارى خلف الغيب ينادي أباه وأمه ، يا أحبائي الذين يبحثون عني كما أبحث عنهم منذ سنين وسنين وسنين ... أما آن لنا أن نلتقي حتى ألقى النِعَم الثلاث في زوجتي وولدي وفتاتي ؟ أين أنتم يا أحبائي» (٣) .

ويشتد الوَجْد به حتى يضحي هَرِمًا وهو في بواكير شبابه ، ويلاقي من أجلها الأهوال والمصاعب ، فيؤلف القصص ويكتب المقالات وينظم الأشعار والزجل ، ولم يكن هدفه من ذلك إلا التنفيس عما به ، يقول في إحدى مقطوعاته الزجلية :

يا ورد شوقي وشوكك   عاملين مؤامرة عليّ
الشوق يجرح في قلبي   والشوك يجرح يديّ (٤)

ويستوحي فكرة أدبه هذا من وحي حبه ، كقصة «تقاليد» التي عرض

---

(١) محمد سعيد العريان : أين أنتم يا أحبائي : الرسالة س ١٩٣٤ ع ٧٦ ص ٢٠٤٨ ، ويتبين من تاريخ المقال أن عمره كان تسعًا وعشرين سنة ، وقد أحبها في الثالثة والعشرين ، فالمقال موجه إليها .

(٢) انظر السابق .

(٣) انظر السابق .

(٤) غرام الأدباء ص ١١٢ ، وللعريان أشعار قليلة في كتابه رحلات سندباد ، وله في زوجه هذه قصائد كثيرة : ذكرت ذلك زوجته الثانية أختها ، وشهد بذلك أيضًا الأستاذ أمين دويدار في مقابلة معه ، ولكني لم أستطع الحصول على ما يثبت ذلك على كثرة ما تحرّيت ، ولذا نعدّ شعره في جملة ما ضاع من أدبه كما سيمر في آثاره .

فيها وجده ، وقصة «رجل وامرأة» ، وفيهما نعي على التقاليد ؛ ولولا الأدب يسلّي همّه إبان هذه الآونة لبرّح به الشوق ، ولكنه أوى إليه ليفرّج كربه ، وليحقق رغبتها التي تمنتها حين قالت له ، «يا عزيزي ليس في البشرية كلها من يقدر على خلق المعجزة التي تهز النفس من أعماقها غير الأديب البليغ [١] ، وأخذ يخرج للناس كل يوم جديدًا من فنون الأدب وألوانه .

٢- *فترة الزواج* .

وتحققت الأمنية التي عاش من أجلها بضع عشرة سنة كانت من أحلك أيام حياته ، وأشدها قسوة على صحته وأعصابه ، ولكنها كانت من أغنى الفترات بالإنتاج الأدبي ، واستمر يواصل نشاطه هذا بهمّة ليرضي طموحها نحو الشهرة والمجد والصيت ... وقضى الليالي الطويلة ساهرًا يؤلف مقالات وقصصًا يدخل بها السرور إلى قلبها حينما يذكر في الأدباء ، ولكنها على ما يبدو وقد تعودت منه أن يكون لها لا يشغله عنها شاغل ، ضاقت ذرعًا ببعاده عنها وسهره مكبًا على أوراقه وكتبه ، فعاتبته في ذلك ، فكتب وهو الحريص على مرضاتها ودوام حبها يذكّرها بالماضي السعيد ، وبأمنيتها العزيزة ، يقول لها معاتبًا مسترضيًا : « ... فنذرت نفسي للفن حتى أبلغ إعجابك فلا تسألبني بعد عن نفسي ، هذا العبوس في وجهك يا عزيزتي ألم علي آلام إلى كاهلي ... حدثيني صريحة لماذا أنت غاضبة .. أنت تريدينني كما كنت منذ بضع عشرة سنة فتًى لفتاة لا يشعر شعور الحي إلا معها ، أنت تدعينني لرحلة من مثل ما كان في سالف الأيام ذراعًا إلى ذراع على الطريق ... وأنت إلى كل أولئك تريدين لي المجد والشهرة والصيت البعيد [٢] .

وتمر سنة على زواجه ، ويرزقهما الله طفلة ، فتهتز نفسه طربًا لمقدمها ، ويكتب في وصف نومها ورضاعها ، وحركاتها وبسماتها ، وتسبح روحه في مقاله

---

(١) محمد سعيد العريان : دعيني أنام : الرسالة ع ٢٩٢ ص ٢٦٠ .

(٢) محمد سعيد العريان : دعيني أنام : الرسالة ع ٢٩٢ ص ٢٦٠ .

في آمال عريضة يراها خلالها صبية تدرج ، وفتاة تخطر ، ويرى نفسه والدًا مقصّرًا نحوها لانصرافه إلى أدبه ، فيتعلّم من ذلك درسًا في واجباته ، ويعاهدها على ألا يصرفه عنها أمر من أمور الحياة إلا ما يكون لإصلاح شأنها (١) .

وينعم العريان بجوار زوجه أربع سنوات كانت كالحلم السعيد أنجبا خلالها ابنتين ، ثم أسلمته الثالث ساعة مولده ، وماتت ، فكانت حياته بعدها قاسية ، فيها عذاب المحب الذي قطع الأمل من عودة محبوبته ، وفيها آلام الوالد الذي أصبح لزامًا عليه أن يقوم برعاية أولاده ، والإشراف على شئونهم ليعوض لهم ما فقدوه من حنان الأم ، وفيها أتعاب الأديب الذي يسهر الليالي الطوال ، ويطفىء شمعة حياته ليضيء للناس سبيلهم ، ويبصّرهم بحقيقة الأمور ، وكانت هذه التبعة الملقاة على عاتقه كفيلة بأن تنهك قواه وتتركه يحيا طوال حياته حزينًا بائسًا يطوي همومه في صدره ، وينفس عنها من خلال ما يسطره قلمه على صفحات المجلات ، وبين ثنايا الكتب والقصص .

٣- بعد وفاة زوجه :

يقول الأستاذ محمد مصطفى عطا في حفل تكريم العريان : «أحداث ثلاثة بارزة في حياة سعيد دفعت به إلى الصف الأول من الكتاب المعاصرين: أولها : موت الرافعي ، وثانيها : فراق زوجه ، وثالثها : صلته الوثيقة بالدكتور طه حسين» (٢) .

لقد فارق صاحبنا زوجه أو فارقته ، فاعتصر الأسى فؤاده ، وغامت الدنيا في عينيه ، وانقطع عن دنيا الناس فترة طويلة ، فلم يعد يغشى دارًا غير داره ، ولم يَسْمُر مع أحد غير أطفاله ، ولم يتبادل حديثًا من حديث الناس إلا مع زملائه في الديوان ، وأصدقائه في المكتبة ... ثم عاد ليكتب فصوله

(١) محمد سعيد العريان : ابنتي : الرسالة ع ٢٩٩ ص ٦٢٥ .
(٢) كتيب : محمد سعيد العريان : فصل أدب سعيد العريان ص ٢٤ .

الدامعة فيهزّ مشاعر القرّاء حتى ضجّ منه بعض الأدباء إشفاقًا عليه ، ولكنه كان يؤمن بأن الفن ترجمان النفس ، وأن من القراء أزواجًا وزوجات ، وبنين وبنات ، تتحرك عواطف بعضهم نحو بعض ، فيستشعر كل منهم قدره عند الآخرين» [١] ؛ وكانت أكثر مقالاته بكاء وإبكاء تلك التي كتبها حينما هلّ عليه أول رمضان بعد وفاتها ، إذ أخذ يبكيها ، ويناجي السماء التي ضمتها، وبات ليلته حزينًا أسوان ، يغشاه الصمت الموحش ، وهو يذكر أيامه الخالية معها [٢] ، وأيضًا مقاله حينما أتاه العيد ليجدد أشجانه ، ولكنه تجرّع غصص الآلام ، وأخفى وراء ابتسامه أقصى ما تتحمله النفس البشرية من معاني الألم، وألبس أطفاله جديدهم ومضى إلى حيث تنتظره في مثواها الأخير ليذرف عليه الدموع الغزار .. ؛ واستمر على هذا أمدًا طويلاً ؛ كانت كل مناسبة تمرّ خلاله تذكره بها ، فعندما ذهب إلى الاسكندرية في رفقة للاحتفال بمهرجان العلم استيقظت الذكريات الراقدة في نفسه وانبعث الحنين والشوق إليها [٣] ، وكانت صحة أبنائه ومرضهم ، وأفراحهم وأحزانهم ، تعيد إلى خاطره تلك الأيام السالفة التي قضاها معها فيتّقد الشوق والحزن في نفسه ، وها هو ذا يحدّثنا عن حالة صغاره ، وقد مرضت ابنته الكبرى ، فسهر ليله من أجلها ، وذكر أمهم في هذه المناسبة : « ... وأسندت رأسها إلى راحتي ، ونامت ، وترددت أنفاسها هادئة كنسمات الفجر ، فأغفيت إلى جانبها وصحوت ، فإذا راحتها الصغيرة تسند رأسي ، وعيناها تنظران إليّ في مثل حنان الأم ومحبة الزوج ، وابتسمت لها فابتسمت ثم قالت : يا أبتِ لم تسأل عن أخويّ ، إنّ أحمد لم يرضع اليوم ، وأذكرتني الطفلة ما نسيتُ من واجب

---

(١) انظر الثقافة ع ١٩٧ ص ١٨ .

(٢) انظر حديث رمضان : الثقافة ع ١٩٥ ص ١٥ .

(٣) انظر محمد سعيد العريان : في مهرجان العلم : الثقافة ع ٢١٦ ص ١٢٠ ، وانظر كذلك ذكراه لها بمناسبة اطلاعه على كتاب عاطفة الحب الذي لم يصبر على إتمام قراءته : الكاتب المصري مجلد ٣ ع ١٢ ص ٧٢٠ .

الأب فنهضت إلى الغرفة الثانية لأشهد عراك الرضيع ، ثم عدت وأنا أحمل على ذراعي وأقود في يدي ، لله أنت أيتها الطفلة الراقدة في فراش الضنى إنك الأمومة الصغيرة لهذين الطفلين ، وقد فقدا الأم ، وإن فيك العزاء لهذا الشاب المكتهل قبل الكهولة ، فعيشي لنا ، عيشي لأخويك وأبيك» (١) .

لقد أصبح العريان بعد هذه الكارثة قليل التحمل لما يواجهه من مصاعب ، وصار وهو الحريص على تأجيج الخصومات بين الأدباء لينشط الأدب والنقد يبتعد عن النقد الأدبي حذرًا من أن يحلّ به غضب أو تصيبه عداوة . يقول : «وإني لأعلم ... أين يقع النقد الصادق من نفوس الكتاب والمؤلفين في مصر ، وإنه لينشئ عداوات ويورث بغضًا ، وما أنا في حياتي الراهنة بالرجل الجلد على احتمال شيء من ذلك ولا لي طاقة عليه» (٢) .

تلك حال محمد سعيد العريان مع من أحب ، تيمته خِطبًا ، ثم لم يكد ينعم بلقائها حتى اختطفها منه القدر بعد أن خلفت لذعة في القلب وأشواقًا، وثلاثة أطفال صار لزامًا عليه أن يقوم برعايتهم ؛ وقد جمع مقالاته الدامعة في كتاب أسماه «تحت الرماد» أخفاه عن بنيه ، إلا أن الموت دهمه قبل أن يكبروا أو ينشر ، ولو ظهر لكان أول عمل أدبي من نوعه في الأدب العربي قديمه وحديثه كما يقول الأستاذ عباس خضر لأنه جمع فيه كل ما كتبه عن حياته فترة زواجه .

***

ظل محمد سعيد على هذا الحال أربع سنوات ضاق خلالها ذرعًا فعزم على الزواج من أختها المطلقة بعد أن تعاهدا على أن يكون الزواج لتربية الصغار ، ولم يرزق من الثانية أولادًا (٣) .

---

(١) الثقافة ع ٢١٥ ص ٢٠-٢١ ، وانظر كذلك ذكراه لها : مقالة ولدي : الثقافة ع ٢١٢ ص ٢١ .

(٢) ضمير القاضي الثقافة ع ٢١٣ ص ٢٠ .

(٣) في مقابلة معها عام ١٩٧٧ .

ثالثًا : مع الرافعي

للصداقة بين العريان والرافعي أثرها في تاريخ الأدب العربي الحديث ، ذلك أن محمد سعيد اتصل به اتصالاً وثيقًا في طنطا ثم سجّل سيرته ؛ كما تأثّر به ، وأثّر . لقد عرفه مذ كان فتى ، وقرأ له شابًا رسائل الأحزان ، فأعجب بأسلوبه الأدبي الشعري ، وبيانه الرائع ، وراح يتتبّع آثاره في الصحف والمجلات ، ثم ذهب إليه بعد عشر سنوات ، عام ١٩٣٢ ، مع ثلاثة من صحبه ، وكرر زيارته ، وتجاذبا أطراف الحديث في شئون الأدب ، وخبر الرافعي ذوقه الأدبي حين طلب إليه أن يشير إلى الأبيات التي تعجبه ، وأنس به ، ثم أسرّ إليه بما في ذات نفسه ، ووثق به على مرّ الأيام وصار الشاب يقضي معه كل يوم بضع ساعات يقرأ له ليشير إلى المواطن الهامة ضنًا بوقته أن يذهب سدىً فيما لا طائل من الاطلاع عليه ، وتوطدت صداقتهما مع الأيام ، وامتزجت روحهما ونفساهما امتزاجًا عبّر عنه العريان في حديثه عن حب الرافعي حين قال :«إني لأعرفه عرفاني بنفسي ، فما بي شك فيما أكتب عن حبه ، ولقد خلطني بنفسه زمنًا فإني لأسمع نجواه ، وأقرأ سرّه ، وأعرف ذات صدره ، فما أصف من حبّه إلا مستيقنًا كأنما أنقل من لوح مسطور في فؤادي ، أو أثبت من حادثة في تاريخ أيامي ماثلة في نفسي بصورها ، وألوانها ، وحوادثها ، فما يغيب عني منها شيء» (١) . وكان لهذا يعد نفسه راوية الرافعي بعد وفاته .

ولما كان مصطفى صادق قد نصب نفسه حاميًا للإسلام ، وذائدًا عنه في وجه المعتدين ، والملحدين في عصره ، ومدافعًا عن اللغة العربية لغة القرآن والدين ، فقد جعل أدبه يسعى إلى هذه الغاية ويرمي إلى هذا المقصود، وقد تأثر به العريان ، الشاب المؤمن ، الحفيظ على إسلامه وعروبته ،

---

(١) محمد سعيد العريان : حياة الرافعي ص ٩٢ .

الأصيل في فنه وأدبه ، والذي رُبّي منذ الصغر في مدرسة أبيه على حفظ القرآن الكريم وحبه التراث الأدبي والديني ، ثم تخرج من كلية دار العلوم التي تمتّ إلى الأزهر بسبب وصار لذلك يوجه أدبه وعلمه للكفاح في سبيل خير الأمة ، والدفاع عن حرماتها ، ساعيًا وراء هذه الغاية بخطة مرسومة بعد أن أدرك أن الأدب بمفهومه القديم : أن يأخذ من كل علم بطرف ؛ وبمفهومه الحديث : أن يعيش للمجتمع ويحقق وجود الإنسان ، فكان يوجه جهوده الأدبية لنهضة بلاده ، ويدافع عنها ، ويحرك همم أبنائها ، ويدق أسماعهم ليفيقوا من غفوتهم ، كما تأثر بأسلوب الرافعي الأدبي ، ومذهبه في التعبير ، وصرّح بذلك حينما تحدّث عن كتاب «حديث القمر» فقال : «ومن هذا الكتاب كان أول زادي وزاد فريق كبير من القراء الذين نشؤوا على غرار من الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم» [1] .

وكان الرافعي لا يولي القصة أهمية ، وينصح بالعدول عنها ، إلا أن صاحبه كان يعدّها من أخطر الفنون الأدبية ، وأشدّها تأثيرًا في نفوس القراء، وما زال بالرافعي حتى أقنعه بفائدتها ، فإذا به يعالجها ويكون له فيها قدم السبق ،وإذا بها تغدو عنده أحبّ منشآته الأدبية وأقربها إلى نفوس قرائه، ذلك لأن الرافعي بسبب ما ابتلاه الله من الصمم انقطع عن دنيا الناس ورضي بمكتبته عالمًا يطّلع من خلاله على أفكار القدامى وأساليبهم وآرائهم ، فعاش معهم لا مع أهل زمانه ، وتمثّل مبادئهم ، ودافع عنها ، ووقف في وجه كل جديد يتعارض مع مبادئ الدين وقواعد العربية ، في الوقت الذي بدأت فيه الحضارة الغربية تغزو مصر بكل معطياتها ، فتؤثر في أبنائها ، ولا سيما الشبان خلقًا وفكرًا وآدابًا ، تأثيرًا جعلهم يصدفون عن القديم وما يتصل به من قريب أو بعيد ، وأدى هذا إلى بعدهم عن لغتهم ودينهم ، وإلى كراهيتهم آدابه القديمة ، وكان الرافعي يتزعم فكرة الدفاع عن الإسلام ولغته فاصطدم

---

(١) حياة الرافعي ص ٧٥ .

بالداعـين إلى الجديد ، ونفر هؤلاء من أدبه ونفّروا القـراء ، وكـان لوعورة أسلوبه أثر في هذه النفرة ، فأخذ العريان يطلعه على آراء الآخرين فيه ويقنعه بالعـدول عن هـذا الأسلوب إلى آخـر متين واضح يـلائم الأذواق ، فأحسّ الرافعي بما لم يكن يحس به ، وطالب تلميذه أن يشرح له ما يمليه عليه ، فإن لم يكـن الشرح مطابقًا لما أراده أعاده عليه بأسلوب أقرب إلى الفهم ، حتى قرب أدبه من عامة المثقفين ، ومن هنا كان العريان صلة الوصـل بينهما ، أو العقل المتوسط من القراء كما يسميه الرافعي [١] .

وعرف الأدباء هـذين التـأثر والتأثير المتبادلـين : «فقـال بعضهم (لقـد أصبح العريان رافعيًا) ، وقال طه حسين (لم يعد العريـان رافعيًا وإنما أصبـح مدره الرافعي) ، وقال آخرون : (إن الرافعي هو الذي أصبح عريانيًا) ، ومهما يكـن من أمر هـذا الاختلاف في الرأي فإن هـذه الفترة التي جمعـت بين الرافعي والعريان كان لها أثر عميق في حياة كل منهما وفي إنتاجهما الأدبي» [٢] .

ولما قضى الـرافعي نحبه قام تلميـذه يحقّق كتبـه ، وينشرها ، وفاءً وبرًا ليطلع القراء على بيانه ، ويتأثروا خطاه في الأسلوب والأفكـار ، كمـا ألف سيرته «حياة الرافعي» وندّد بعقوق قومه له ، وكان إخلاصه لصاحبه يدعوه إلى ذكراه في كل مناسبة ، وها هو ذا يشيد به بعـد ست وعشرين سنة ، أيام الوحـدة بين سوريا ومصر ويسلكـه في أوائـل الـرواد الـذين ناضلوا من أجلها يقـول : «... كـان يعيش غير جيله ، وقبـل أوانه في رأي دعـاة التجديد ، ورأي المحافظين على السـواء . أمـا دعاة التجديد ... فكـانوا يصفونه بـالجمود والرجعيـة حين يتحدث عن أمة عربيـة ذات أمجاد تعيش في هـذه المنطقة ... لأنهـم بأفكـار أخرى مقتبسـة من عالم غريب ، يعيشون في مجتمـع فرض عليه

---

(١) انظر حياة الرافعي ص ١٧٣ ، وذكر أنه لزم الرافعي ثلاث سنين فكان هـذا لا يهم بكتابة مقال إلا دعاه ، ولهذا أثره في أسلوب العريان أيضًا ، انظر ص ٢٠٢ .

(٢) معجم الأدباء المعاصرين ص ١٤ .

الاستعمار ألوانًا من التبعية في كل أسلوب من أساليب الحياة ، وكل صورة من صور الحضارة ... فكل دعوة إلى البعث العربي في رأي هؤلاء النفر هي محاولة للرجوع إلى ماض مندثر لا يلائم أسلوب حياتهم ، ولا صور الحضارة التي اقتنعوا بها ... وأما المحافظون فكانوا مستجيبين لدعوته إلى العمل لبعث ذلك الماضي ، ولكنهم لا يكادون يصدّقون بعقولهم أن ذلك الماضي يمكن أن يعود» [١] .

* * *

(١) في ذكرى الرافعي : الرائد س ١٩٦٣ ع ٩ ص ٢٧ .

رابعًا : أعماله

يتمتع العريان بمقدرة فائقة على العمل ، إذ كان يشترك في عديد من الجمعيات الأدبية والاجتماعية علاوة على عمله الرسمي ، وسأبحث في أعماله الرسمية ، ثم أبين أوجه النشاط الأخرى التي كان يقوم بها تحت عنوان أعماله غير الرسمية .

١- أعماله الرسمية :

تخرّج محمد سعيد من دار العلوم عام ١٩٣٠ متفوقًا على أقرانه ، فعيّن فور تخرّجه مدرّسًا في شربين ، ومكث فيها سنتين ، ثم انتقل إلى طنطا واستمر في التعليم الابتدائي حتى عام ١٩٤٢ ، إذ انتقل إلى ديوان الوزارة بمراقبة الثقافة العامة ، وكان العريان يكره مهنة التعليم ويرى فيها غضًا لكرامته كأديب له صيت وشهرة ، لأن الرأي العام يقيس الناس على حسب مناصبهم أو أموالهم ، ولهذا احتج على نظام المسابقات لنقل معلم الابتدائية إلى المدارس الثانوية مبينًا أنه نظام لا يدل على كفاءة الناجحين في الامتحان دون غيرهم ، فمن الآخرين معلمون يمتحن بكتبهم التي ألفوها أو حققوها ، ومن الضروري أن ينقل هؤلاء وأمثالهم دون أن يختبروا ، ولا سيما أنه لا فرق بين معلم الابتدائية والثانوية في الكفاءة ولا في الدرجة والمال ، والفرق كل الفرق في المكان والتلميذ وعلو الذكر .

ترأس محمد سعيد بعد ذلك مكتب الصحافة بوزارة المعارف ، ثم اختلف بين وظائف عديدة في الفترة الواقعة بين أكتوبر - تشرين الأول ١٩٤٤ - وأكتوبر ١٩٤٥ ، وفي العام الدراسي (١٩٤٥ - ١٩٤٦) انتقد في الصحف تحت عنوان «بيدا جوجيا» [١] . بعض القرارات التربوية التي

(١) البيداجوجيا : هداية الأطفال . انظر هذا التفسير في كتاب : حسن توفيق : البيدا جوجيا أي هداية الأطفال .

أصدرها الوزير الدكتور عبد الرزاق السنهوري ، واعترض على طرد أولاده من المدارس لغير ما سبب ، فعوقب بنقله إلى جرجا ، ولما امتنع عن التنفيذ فصل ، وقدّم إلى المحاكمة التأديبية ، لكن هذه أنصفته وردّت إليه مكانته حين وجدت أن الأمر انتقام شخصي سياسي ، وذلك بعد أن دافع عن نفسه بمذكرة قانونية أملاها على كاتبه في بضع ساعات وفي مجلس التأديب نفسه .

عاد العريان إلى العمل عام ١٩٤٦ حينما دعاه وزير المعارف محمد حسن العشماوي ليكون مديرًا لمكتبه الفني وظلّ على رأس وظيفته هذه إلى ديسمبر «كانون الأول» ١٩٤٧ ، ثم تنقل بين وظائف تربوية عدّة إلى أن نقل مدرّسًا بالمدارس الثانوية ، فاعترض على هذا في كتاب وجّهه إلى الوزير السنهوري ندّد فيه بالواشين الذي حاولوا الإيقاع بينهما ، ثم عرض قضية اتهامه بالتطاول عليه ، وعلى سياسته ، وعلى رئيس أجنبي لم يحدّد اسمه ، وذكر أنه لم يكن يقصد من الحديث عنه سوى أن يرسم صورة لحادثة وقعت على أعين الآلاف ، وكانت آثارها بارزة للناس جميعًا ، ثم بينّ أنه لا يأبى التدريس ، ولكنه لا يستطيعه لأنه انقطع عنه منذ سنين إلى أعمال ليس بينه وبينها صلة ، إذ كان في مركز مَنْ يوجه ، لا مَنْ يتلقى التوجيه ، وكان مديرًا فنيًا ثم مفتشًا يحمد ذكره في الإدارة وعلاج المشكلات الدقيقة (١) .

ظل محمد سعيد العريان مدرّسًا شهرين ، ثم آثر أن يدع خدمة الحكومة بعد أن يئس من شفاعة الوزير ، وليتفرّغ للأدب والصحافة ، ولكن وزير المعارف «علي أيوب» حمله على العدول عن طلبه ، وأصدر أمرًا بنقله إلى مكتبه الفني مراقبًا مساعدًا للأعمال الفنية ، وكان ذلك في مارس «آذار» ١٩٤٩ ، وفي أغسطس «آب» من السنة نفسها حدث بينه وبين وزير المعارف «أحمد مرسي بدر» شيء من الخلاف مما دعا علي أيوب وزير الشئون الاجتماعية أن ينتدبه للعمل معه حسمًا للشر أن يستفحل ... ، ولما ولي طه

---

(١) انظر مقالة : كتاب إلى وزير المعارف في جريدة البلاغ س ١٩٤٨ ، ع ٨٢٥٠ ص ٣ .

حسـين وزارة المعارف أبقاه معـه مراقبًا مساعدًا للأعمال الفنيـة ، وفي عام ١٩٥٠ أقيـم له حفل تكريم في مهرجان الأديب ونوّه كثير من الأدباء بجهوده في ميدان الأدب والتعليم ، وتوجه بعض أصدقائه بالنصح إلى وزير المعارف أن يقصيه من عمله لتتاح له فرصة يؤلف فيها ، ولكنه رفض ، بل رجا ألا ينقل هذا الكلام إلى الوزير لئلا يقطع رزقه كما قطع حينما أبعد سابقًا .

امتدت هـذه الفترة العصيبة على أديبنا ما يقارب عشر سنين كان خلالها لا يستقر على عمل إلا ليبعد عنه ، وقد أثرت عليه هـذه الفوضى وظهرت تباشيرها في إنتاجه ، لكن الفرج أتاه بعد استحداث إدارة العلاقات العامة بوزارة التربيـة والتعليم [(١)] عام (١٩٥٦) حين عيّن مديرًا لهـا ، فبرز نشاطه فيها ،وأخذ يصدر كتبًا سياسية وتعليمية ، من ذلك توجيهه كتابي « أحاديث في التوجيه القومي» و «التربية والتعليم في ٥ سنوات» .

وفي عام ١٩٦١ انتدب ليكون وكيلاً لوزارة شئون الأزهر منتدبًا عن وزارة التربيـة بعد أن عملت الدولة على تطويره ، وكان من أوائل الداعين إلى هذه الفكرة [(٢)] لما رأى من جموده بعد الحملة الفرنسية على مصر التي عملت على أن تبعده عن المشاركة في المجالات الدنيوية ، وأرادت لأبنائه ألا يفقهوا من دينهم إلا ما له علاقة بالعبادة ، وأن يتصوروه دينًا يبعدهم عن الدنيا ، يدعوهم إلى الفناء الروحي ، وكان العريان من قبلُ ، وبالتحديد منذ سنة (١٩٤٣) يرى ما حلّ بالأزهر وخريجيه ، ويدعو إلى أن يكـون كسالف عهده

(١) وتهدف إلى توثيق أسباب التعاون بين الوزارة والشعب عن طريق الكتب والمجلات ، وتتفرع إلى قسم العلاقات الداخلية ، وقسم العلاقات الخارجية الذي يقع عليه عبء الدعاية للثقافة المصرية في الخارج ، واقتراح عقد المؤتمرات وتنظيم المواسم الثقافية في العواصم العربية وغيرها ، ورعاية شأن الكتاب المصري والمعلم المصري ، انظر لذلك الرائد س ١٩٥٦ ع ١ ص ١٢ بعنوان «هذه الإدارة تعمل في» .

(٢) يـذكر الأستاذ «السيد أحمد العجان» في مجلة الرائـد س ١٩٦٥ ص ٩ بعنـوان «ذكرى الفقيد الخالد» أن العريان كان من الداعين المهتمين بتطوير الأزهر ، وقد سبقه إلى ذلك الإمام محمد عبده ، إذ بيّن مؤامرات الاستعمار في تجميده ، وإبعاده عن الخوض في جميع مجالات الحياة .

يوم كان يشترك ، ويشترك أبناؤه في جميع مجالات الحياة ، يقول يومذاك :

«الجامع الأزهر لم ينشأ يوم أنشئ ليكون معهدًا دينيًا يتفرّد بلونه عن معاهد التعليم ، إذ كان العلم كله يوم أنشئ الأزهر هو الدين ، ولم ينشأ ليكون مدرسة «مدنية» تعدّ طلابها لوظائف الدولة كما يريد بعض القائمين عليه اليوم ،وإنما أنشئ على منهج علمي خاص يوائم حاجات الناس في شئون الدين ، وفي شئون الحياة ، طبقًا لمقتضيات عصره ... ما الأزهر اليوم ، وما المعاهد الدينية ؟ هل هي معاهد لتخرّج رجال الدين ؟ إن الإسلام لينكر ذلك ، فما يعترف الإسلام في حقيقته بشيء مما يسمى عند غيرنا (رجال الدين) ، وإنما يفرض الإسلام على كل مسلم أن يعرف دينه كما يعرف دنياه ، وأن يتزود لآخرته ولعيشه معًا ... أم هي معاهد مدنية تعدّ خرّيجيها لاكتساب العيش ... إنها حينئذ تخضع لقانون «الإحصاء والحاجة» حتى لا تنشئ نوعًا من البطالة يفرض على الدولة والشعب والحياة الاجتماعية فروضًا لا قبل للوفاء بها ...» [1] .

لاقى العريان في سبيل تطوير الأزهر مصاعب جمّة إلى أن تمكن من إرساء دعائم المشروع [2] ، فلما نقل منه في أواخر عام (١٩٦٢) استقال بعد

---

(١) محمد سعيد العريان : المعاهد الدينية : الثقافة ع ٢٣١ ص ٢٢ .

(٢) انظر جريدة الاعتصام س ١٩٧٦ ع ٧ ص (١٠-١٤) بعنوان : ماذا جنينا من قانون تطوير الأزهر ؟ فتحي رضوان يصف أحداث الليلة المشهورة لقانون التطوير المشئوم ، وقد صدر في ١٩٦١/٦/٢٢ ، وكانت غاية العريان والسيد كمال الدين حسين ، كما يذكر فتحي رضوان ، أن يعمل الأزهر على تخريج متخصصين يفقهون أمور دينهم إلى جانب خبرتهم في فرع من فروع الحياة الدنيوية مما يتعلق بالعلوم الحديثة سواء أكان ذلك من أبناء مصر أم من غيرها ، ذلك لأن الدول الإسلامية الناشئة كانت حينا تلتمس خبراء مختصين في أمور الحياة لا ترى إلا أجانب عن بيئتها ودينها من مواطنين انسلخوا من معتقداتهم الدينية ، وملأت حضارة الغرب قلوبهم ، أوغير مواطنين من أوربا وأمريكا ، وهؤلاء لا يطمئن أحد إلى نواياهم ، وحينا تود إيفاد أبنائها من ذوي العقيدة السليمة لا تجد جامعة تتخصص في مجالات الحياة إلى جانب حفاظها على الدين والعقيدة السليمة ، وهي بحاجة إلى الخبرات المتعددة بسبب ما تمر به من مرحلة تطوير اقتصادي واجتماعي وسياسي يحوجها إلى المهندس والطبيب والمحاسب ... إزاء هذا الوضع كان لا بد لمصر- =

خلاف جرى بينه وبين علي صبري وزير شئون رياسة الجمهورية ، وكان هذا يعمل على أن يقتصر تدريس المادة الدينية على السنوات الأولى من فروع الأزهر على حين كان العريان يرى ضرورة تدريسها في جميع السنوات مع ارتباطها بمادة الاختصاص للطالب ، ولا يخفى أنه كان بصيرًا بأهمية المادة وبالغاية التي كان من أجلها التطوير .

وظل العريان بعد استقالته من الأزهر يمارس مهنته في وزارة التربية إلى أن تخلى عنها أيضًا لأسباب سياسية ، وكان ذلك في عام ١٩٦٤ قبيل وفاته بفترة وجيزة .

٢- *أعماله غير الرسمية* :

عرف العريان بحيوية نادرة وقدرة على العمل ، وحب للإصلاح شديد ،فمنذ تخرج من دار العلوم ورأى ما آل إليه وضع المسلمين من تحلل خلقي ، وبعدُ عن الدين والتراث عمل وصحبة على إنشاء جماعة الثقافة الإسلامية بطنطا عام (١٩٣٣) وكان عضوًا في صندوقها وقد حُلّت منذ أيامها الأولى [1]، ولكنه ظل يغتنم الفرصة ليشترك في نشاطات اجتماعية أخرى ، ولا سيما الإسلامية منها ، ولذا نراه ينتسب إلى مجمع البحوث الإسلامية ، ويصير عضوًا مساعدًا للمؤتمر الإسلامي الذي كان يرمي إلى الحفاظ على كيان

= موطن الأزهر ، وقبلة المسلمين للعالم الديني - أن تعمل على حضن هؤلاء الموفدين وتعليمهم ما يصلح شئون دينهم ودنياهم . انظر لذلك مجلة الاعتصام السالفة ، وجريدة الأخبار ع ١٩٦١/٦/٢٣ ، بعنوان تطوير الأزهر وتنظيمه : اتساع النطاق و ع ١٩٦١/٦/٢٧ ص ٤ . وأرى بعد اطلاعي على تدينه ومن خلال ما عرفته من حياته أن رأي العريان كان سويًا إلا أن الظروف التي أحاطت به من دراسة هذا القانون في ليلة واحدة فقط وبتدبير وتخطيط ممن لهم أفكار مخالفة ، وتدخلهم في ذلك جعل هذا القانون وتنفيذه ينحرفان عن الغاية التي ارتضاها منه .

(١) يقول محمد كامل حته : إن رغبة أعضائها بدعمها بكبار الموظفين كان سبب إخفائها ، فقد دبت فيما بينهم نار الحسد والبغضاء ، وعزّ عليهم أن يأتمروا بأمر الرافعي ، وقد فاز برئاستها ، وهو من موظفي الدرجة الثالثة وهم أعلى منه رتبة ومنصبًا .

المسلمين ووحدة كلمتهم ، وتقريب وجهة النظر فيما بينهما ، والتخلي عن عصبية الجنس والدم ، وقد حضر مؤتمراته التي أقيمت في المغرب ونيجيريا بين عامي (١٩٦١ - ١٩٦٢) [١] ، ونشرت له كلمة بعنوان «أول الوهن في الإمبراطورية الإسلامية» ألقاها في المؤتمر في موسم الحج [٢] .

انتدب العريان بعد ذلك ليكون مديرًا في مكتب التوجيه القومي بالاتحاد القومي ، كما شارك في إعداد مشروع اتحاد الناشرين ، وكان عضوًا في إتحاد الأدباء ، وجمعية الأدباء منذ عام ١٩٥٦ ، وحضر مؤتمره الذي أقيم في روسيا عام (١٩٥٦) وعمل على تأسيس نادي القصة ، وصار عضوًا فيه ، كما كان عضوًا في لجنة التربية الدينية بوزارة التربية والتعليم ، وبلجنة تيسير الكتابة العربية بمجمع اللغة العربية ، وبالمكتب الدائم لمؤتمر التعليم بالرباط ، وعضوًا للجنة النثر والقصة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، الذي أنشئ في عام (١٩٥٦) ، وعضوًا للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية ، وأخيرًا شارك في الاتحاد الاشتراكي لفترة وجيزة اعتزل بعدها الأعمال السياسية في أواخر عام (١٩٦٢) وظل يعمل في نقابة المعلمين، التي تأسست منذ عام ١٩٥٦ ، حتى أواخر حياته .

أما عمله في الصحافة فقد أبرزه إنسانًا يتفاعل مع أحداث الحياة ، ويسير نحو الغاية التي تحقق وجوده ، كان قوي الإيمان بضرورة الإصلاح الاجتماعي والسياسي لمصر ، وللعرب بل للعالم أجمع ، ولهذا كان يكتب في مجلة الرسالة منذ عام ١٩٣٣ ، وفي الثقافة منذ ١٩٤٠ ، وغالبًا تحت عنوان «الصحافة والأدب في أسبوع» ، مشيرًا بعده إلى نفسه برمز قاف يُتْبعه قوله :

---

(١) انظر مجلة الرائد س ١٩٦٥ ع ٩ ص ٩ : السيد أحمد العجان : الفقيد الخالد .

(٢) من بطاقة الإعارة في دار الكتب الوطنية بالقاهرة ذات الرقم (ج ١٣٧١٠) وهي المحاضرة التي ألقاها في النادي المصري بالخرطوم علم ١٩٥١ بعنوان «أول الوهن في الإمبراطورية الإسلامية حركات انفصالية» .

«هذا رأيي وعليّ تبعته وحدي فمَنْ سرّه فهو لي صديق ، ومن ساءه فليس أحبّ إليّ من أن يجلو لي رأيه ، ويعرض برهانه ، لتصحيح رأي ، وتعديل فكرة ، أو تحقيق خبر ، وإن من الفضيلة ألا تثبت على الرأي إلا بمقدار ما تؤمن به» (١) .

وقد سئل عن سبب رمزه هذا «لم لا تكتب اسمك صريحًا ، وقد فرضت على نفسك رقيبًا على الكتاب والأدباء ، ونزلت منزل الخصم لكل ذي رأي وفكرة ؟ أهجومًا وتتقنع ؟ (٢) . فكان جوابه «لا والله يا صديقي ما تقنعت مخافة الناس ، ولكن مخافة نفسي ، فإن لكل فكرة في رأس صاحبها رأيين : رأي العقل المدرك والوجدان النابض ... ورأي البيئة والزمان والخلان ، وإني لضنين برأيي أن يظهر في الناس بلونين ، وإني لحريص على فكرتي أن أجلوها «مجرّدة» لا تتحيفها جواذب البيئة والزمان والخلان ؛ أفلا يكون الرأي رأيًا إلا أن يكون له غلاف ، وعنوان ؟ ... ألا إن الرأي الحر لا يقع موقعه إلا أن تقرأه بلا غلاف ولا عنوان (٣) .

فهو يخفي اسمه ليعرضه صريحًا لا يخاف تأثير المجتمع عليه ولا عذل اللائمين .

وهناك رأي ينسب إليه يذكر أن سبب توقيعه بقاف يدل على تتبعه الأخبار والأنباء ، فهو إذًا اسم فاعل للفعل «قفا ، يقفو الأثر أي يتتبعه» (٤) .

---

(١) محمد سعيد العريان : الصحافة والأدب في أسبوع . الثقافة ع ١٧٦ والأعداد التي تليها حتى العدد ٢٧٢ .

(٢) الثقافة ع ١٧٩ ص ٢٢ .

(٣) انظر السابق .

(٤) انظر عبد الفتاح الديدي : الأسس المعنوية للأدب ص ١١٣ ، وعباس خضر : غرام الأدباء ص ١٢١ ، فهما يذكران أنه اختار هذا التوقيع لتقصيه القضايا العامة ، وتتبعه الأحداث الجارية في الأدب والسياسة والمجتمع ، ولكن الأول منهما يرى رأيًا آخر وهو أن هذا الرمز دليل على شخصيته لدى من يعرف أنه كان يتميز بنطق القاف مخففة حتى تصير شيئًا بين القاف والكاف ولعلها =

تعددت الصحف والمجلات التي كان ينشر منها مقالاته الإصلاحية السياسية والاجتماعية ، من ذلك مجلة الكاتب المصري ، والكتاب ، والنداء، والإذاعة المصرية ، وبناء الوطن ، ومجلة صحيفة دار العلوم ، والرائد صوت المعلمين ، وسندباد للأطفال وكان رئيس تحرير المجلتين الأخيرتين وجريدة الأخبار والأهرام ، والنور والبلاغ ، وكان مندوبًا عنها إلى المؤتمرات الثقافية ، وقد حضر المؤتمر الذي عقد في لبنان عام ١٩٤٦ ، وكتب فيها نقدًا مبسطًا لمقرراته (١) .

على أن أبرز نشاط قام به العريان كان في نقابة المهن التعليمية ، فقد كان من أوائل الداعين إلى تأسيسها ، بعدما آمن بضرورة تجميع المعلمين وتوحيد كلمتهم ليقوموا بأداء رسالتهم الاجتماعية والسياسية ، وكان يكتب في مجلتها الرائد ويعقد المؤتمرات في مصر وخارجها ، ويلقي محاضرات ثقافية ، ودينية ، ولا سيا في رمضان ، ويقوم برحلات هادفة باسم النقابة ، وكان أمينها العام ليمثلها في المؤتمرات ، وقد حضر مؤتمرها في العراق عام ١٩٦١ ، ولم يثنه عن حضوره رفضُ رئيسها عبد الكريم قاسم وشيعتِه مجيئَه ، وتحدث فيها حديثًا أحبط خططه ، فما كان منه إلا أن هدّده تهديدًا عنيفًا بقوله :

إن الطامعين يُرْسَلون إلينا متسللين في الظلام ليشقّوا صفوفنا ، نستطيع أن نقتلهم ، وأن نسحلهم ، بأن نواريهم التراب ... ثم أنشد أبياتًا من الشعر بدأها بقوله :

ودسّوا من فوارسهم علينا ... فلم نغدر بفارسهم لدينا

وكان العريان جالسًا في الشرفة يستمع ويبتسم فقد أدى مهمته ، وبلغ

= كانت تشبه الكاف المفخمة . انظر لذلك ص ١١٤ من كتابه المذكور ، أما ابنه أحمد العريان فقد ذكر أن أباه سئل : لم توقع بقاف ، فأجاب : اقتداء بالقرآن الكريم .

(١) انظر جريدة البلاغ ع ٧٩٢٨ ص ٣ بعنوان : المؤتمر الثقافي العربي .

غايته ، وأرضى ضميره فليس يعنيه بعدُ مثلُ هذا التهديد والوعيد [١] .

وقد أدت جهوده في هذه النقابة إلى قيام اتحاد المعلمين العرب في عام ١٩٦١ ، وانتخب أمينًا عامًا له ، وظل يدير شئون النقابة والاتحاد معًا حتى وفاته ، وقد حضر مؤتمرات المعلين في سوريا والعراق ، ولبنان ، والأردن ، وليبيا ، والمغرب ، مستهدفًا من وراء ذلك تعارف أبناء الأمة العربية ، لتتحد كلمتهم ومشاعرهم على خطة وهدف ، وكان يبين فيها ضرورة الوحدة العربية، والعمل على الأخذ بأسبابها ، ودور المعلم في ذلك [٢] ، ومكانة أمتنا الوسطى بين الكتلتين الشرقية والغربية ، واللتين تعملان منذ القديم على احتلال أراضينا واستنزاف خيراتنا [٣] .

كما حضر مؤتمرات المعلمين خارج الوطن العربي ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية ألقى محاضرة عن مجالات التعليم في الوطن العربي وكان سافر إليها في أواخر عام ١٩٦٤ بدعوة من الاتحاد العالمي للنقابات التعليمية ، قبيل وفاته بفترة وجيزة .

* * *

(١) انظر : محمد كامل حته : ذكرى سعيد العريان : الرائد ، يونيه ١٩٦٥ ص ٤٥ ، ومجلة العربي : محمد كامل حته : شخصية لا تنسى ع ١٢٦ ص ٤٨ .

(٢) انظر لذلك كتاب : مؤتمر المعلمين العرب : الدورة الأولى يوليو/ تموز ١٩٥٦ .

(٣) انظر الرائد عدد خاص ١٩٥٩ ص ١٦ ، وكتاب أحاديث في التوجيه القومي ص ١٩ بعنوان : الحياد الإيجابي .

خامسًا : رحلاته

كان محمد سعيد يدعو وزارة المعارف إلى أن تجعل الرحلة ضمن برامجها التعليمية ، ليتلقى التلاميذ من الطبيعة دروسًا لم يتعلّموها من الكتاب والمعلم، وكان يؤمن بأن «الرحلة نصف العلم» فهي لا تقتصر على اللذة الجسمية والنفسية ، وإنما تعّرف أبناءها على آثار البلاد ، وطبائع أهلها وأفكارهم ، كما تقوي الشخصية الإنسانية .

ومذ كان العريان يافعًا حضر القاهرة ليتعلم في دار العلوم ، وكان ذلك أول رحلة قام بها خارج طنطا ، أما رحلاته الخارجية فقد بدأت في سنة ١٩٣٨ حين سافر إلى فلسطين ليلقي فيها حديثًا عن الرافعي الراحل بمناسبة مرور عام على وفاته ، ثم عاد ليحكي بطولات الشعب الفلسطيني ضد مؤامرات الصهاينة ، ونشاطاته الأدبية التي تفوق نشاط مصر .

وفي عام ١٩٤٧ زار لبنان ليحضر المؤتمر الثقافي العربي مندوبًا عن جريدة البلاغ كما مرّ ، وفيه نَدّد بالدعوات المفرقة من فينيقية وطائفية ، وفَرْنسة ، وبمن رمى اللغة العربية بالضعف والتخلف والجمود [١] .

وفي عام ١٩٥١ زار السودان ، وألقى في النادي الثقافي بالخرطوم محاضرته «أول الوهن في الإمبراطورية الإسلامية حركات انفصالية» وقد بيّن فيها أسباب ضعف هذه الإمبراطورية العظيمة وما آلت إليه بعد تفرقها إلى دويلات صغيرة ، ودعا إلى ضرورة الوحدة بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، وحذّر من مؤتمرات الصهيونية في العالم كله [٢] .

أما في عام ١٩٥٦ فقد زار الاتحاد السوفيتي بدعوة من اتحاد الأدباء

---

(١) انظر جريدة البلاغ : المؤتمر الثقافي العربي س ١٩٤٧ ع ٧٩٣٦ ص ٣و ٥ .

(٢) انظر هذه المحاضرة في الكتيب المطبوع عنها ذي العنوان نفسه .

هناك ، وقبيل عودته إلى وطنه نشبت حرب بور سعيد ، وأقفلت الطرق ، فاغتنم الفرصة وزار النرويج وألمانيا وإيطاليا ، فالأندلس ، ثم ليبيا ، وأخيرًا عاد إلى مصر برًّا ، وكان قد زار سوريا قبل عام ١٩٥٦ ، ثم زارها ثانية عام ١٩٥٨ ليحضر مؤتمر الأدباء ، وثالثة أيام الوحدة بين القطرين ليشهد الاحتفال الذي أقيم في ذكرى شهداء ٦ أيار ، ثم في عام ١٩٥٩ بمناسبة الاحتفال بمهرجان الكواكبي ، وألقى فيه محاضرتين إحداهما عن القومية العربية عند الكواكبي ، والأخرى عن دعوة الكواكبي ؛ كما زار العراق عام ١٩٦١ ليحضر مؤتمر المعلمين كما مرّ .

ولما عزمت مصر على بناء مركز ثقافي في بنغازي زار ليبيا في ١٥ مايو / أيار ١٩٦١ لشراء أرض له ، ووافق يوم وصوله ذكرى تسليم فلسطين لليهود ، فألقى خطابًا بالجامعة الليبية صوّر فيه مكائد اليهود ، كما أوضح القضية الفلسطينية ومكانة الإسلام ، وقضية القومية والنضال العربي ، ومسئوليات الشباب العربي والفلسطيني في محاضرات أخرى ألقاها في طرابلس ليبيا [(١)] .

وزار في العام نفسه المغرب للاحتفال بإنشاء جامعة القرويين في الرباط وألقى محاضرات عن الإسلام ومستقبله ، والنظامين الشيوعي والرأسمالي وكانت هذه الفترة توافق الدعوة إلى تطوير الأزهر ، واللغة العربية [(٢)] .

وكانت غايته من هذه الرحلات سياسية وثقافية ، أما الأولى فللعمل على توحيد العرب ، وتذكيرهم بسالف أمجادهم ، وكان يقول :

«إننا حين نتحد هذه الوحدة نستطيع أن نصنع تاريخًا جديدًا ، ... لقد رأيت ذات يوم منذ أمد قريب وأنا أقطع الساحل من شمال سوريا في سيارة منطلقة إلى الجنوب من الحدود الشمالية السورية إلى اللاذقية إلى طرابلس إلى طرسوس إلى بيروت ، ثم تخيلتني ماضيًا إلى يافا ، إلى بور سعيد ، إلى

---

(١) انظر محمد كامل حته : في ذكرى سعيد العريان : الرائد يونيه / حزيران ١٩٦٥ ص ٧ .

(٢) انظر محمد سعيد العريان : القصة والتاريخ : جريدة الأهرام ع ٢٧١٨٠ ص ١٣ .

الإسكندرية ، ثم إلى طرابلس إلى تونس إلى الجزائر ، إلى المحيط الأطلسي إلى حيث وقف عقبة بن نافع منذ ألف وثلاثمئة سنة على ذلك الساحل يقول : «اللهم لولا أني لا أعلم وراء هذه الماء يابسة لأقحمت فرسي هذا الهول المائج لأنشر اسمك العظيم في أقصى بقاع الأرض» (١) .

وأما الأخرى الثقافية فكان يبغي من ورائها توحيد مناهج الدراسة وتحريرها من الآثار الأجنبية ، وكانت الدول العربية تذكر فضله في ذلك ، وتشيد بذكره .

أما زيارته لإسبانيا فكانت لدراسة آثار العرب في الأندلس ، كما زار الدانمرك ، والنرويج ، ورومانيا ، وزار نيجيريا في عام ١٩٦٢ ، وحضر المؤتمر الإسلامي فيها ، وكان آخر رحلاته إلى الولايات المتحدة الأمريكية بدعوة من الاتحاد العالمي للمعلمين ، وفيها ألقى محاضرات عن التعليم في البلاد العربية بوصفه أمينًا عامًا لاتحاد المعلمين العرب ، كما ناقش أحد المسئولين هناك حول قضية العرب والصهاينة ، وبيّن ضرورة عودة اليهود إلى مواطنهم التي هجروها .

* * *

(١) محمد سعيد العريان : تحية الأستاذ محمد سعيد العريان لوفد المعلمين العرب : الرائد ع ٥ س ١٩٥٦ ص ٣١ ، وكان يسمي الطريق البحري الذي يصل بين البلاد العربية : الصراط العربي المستقيم .

سادسًا : أخلاقه

كان محمد سعيد العريان كريم الطبع عفيف النفس ، لا جرأة له على الموبقات ، إذ يخشى الله ، ويستحي من ضميره ، وكان ودودًا حار المودة ، شديد التعلّق بأسرته وأصدقائه ومعارفه ، كما كان يمتاز بوفاء نادر لزوجه ، وأصدقائه ، وليس أدل على هذا من انتظاره إياها خِطبًا بضع عشرة سنة عرض عليه خلالها فتاة أخرى فرفضها (١) ، على حين كان أهلها يمنعونه من رؤيتها ، ثم ما خطه من مقالات إثر وفاتها ، تلك التي أدمت العيون وقرّحت النفوس (٢) ، أما وفاؤه لأصدقائه فيتجلى في موقفه من الرافعي بعد وفاته ، فقد كتب سيرة هذا الأديب الراحل ، وبيّن فيها فضله على العربية ، ودعا إلى تخليد ذكراه ، وندّد بتقصير الدولة والأدباء تجاهه ، يقول في ذلك : «كان رجلاً للدين والعربية هيهات أن تجد بديلاً منه ، أو ينقضي زمان من عمر التاريخ ... إن للفقيد لحقًّا على اللغة ،وحقًّا على المسلمين لا يجزئ فيهما أن نقول يرحمه الله ...

وَيْحكم يا بني يعرب !! ... لقد شغلتكم دنياكم عن الوفاء ، وفتنتكم الحياة عن ذكر الموت ... لقد كان هذا إنسان منكم ، وإنه لأرفعكم صرحًا ، وأبلغكم بيانًا ، وأبعدكم غاية ومدى ... فهلا ذكره إنسان ...

يرحمه الله ... هذا كل وفاء العربية للراحلين من أدبائها ، يتهاوون من الذروة إلى بطن الوادي فردًا فردًا ، وإخوانهم على الطريق ينظرون إليهم في بلادة وصمت لا تشيّعهم منهم قدم ، ولا تتبعهم عين باكية ، ولا يذكرهم منهم إنسان ... يرحمه الله ... هذا كل تراث الأديب في العربية لبيته وأهله ،

---

(١) انظر تفصيل الحادث في : عباس خضر : غرام الأدباء ص ١٢٥ ، ومجلة العرب ع ١٢٦ ص ٤٦

(٢) سيمر ذلك في أدب المقالة والخواطر .

صوت ما له صدى ، وتراث ليس فيه غناء ... لقد كان الرافعي صاحب دعوى في العربية والإسلام يدعو إليها ... فحقه على العربية ، وحق العربية على أدبائها ، وحق الإسلام على أهله أن تجدّد دعوته ، وأن يبقى ذكره ، وأن ننشر رسالته ، وأن نعنى بآثاره ... فإذا نحن وفقنا إلى كل أولئك فقد وفينا له بعض الوفاء [١] .

وكان محمد سعيد إلى وفاته سخي اليد ، كثير الإحسان ، وقد ذكرت زوجه أنه أعان أسرًا كثيرة ، وحضن فقراء ويتامى وعلّمهم ، كما تنازل لوزارة التربية عن ألف جنيه استحقها لقاء تأليف كتب التربية الدينية .

وكان منصفًا في أحكامه ، وقد وقف إلى جانب العقاد في معركته الأدبية مع الرافعي ، ومنزلة هذا لا تخفى عنده ، وكان أمينًا في رواية الأخبار، وكثيرًا ما تلقانا عبارته : «حدثني» [٢] أو «فأنشأ مقالة أو قصيدة، لا أذكر» [٣] أو «وإنما أرويه من الذاكرة على طول العهد به ، فلعلني» [٤] أو «أحسبه قال لي مرة» [٥] .

كما كان جريئًا في قول الحق الذي يؤمن به ، ثابتًا عليه ، وقد رافقته هذه الخلة منذ صغره حتى أواخر حياته ، وتجلّت واضحة في مؤتمر المعلمين العرب في العراق ، كما مرّ ، وكثيرًا ما كان يستشهد بقول الرافعي حينما يسأل عن شعاره في مغالبة الناس والحياة :

وكن رجلا كالضرس يرسو مكانه ليطحن ، لا يعنيه حلو ولا مُرّ

ولهذه الخلة أثر في تقلبه في الوظائف ، وفي دعواته الإصلاحية .

ومن خلقه ترفعه عن توافه الحياة ، وسعيه من أجل منفعة عياله

---

(١) حياة الرافعي ٣٤٢ - ٣٥٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢ ، ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٢ ، ٤٥ .

(٤) مجلة الثقافة ع ٢٢٢ ص ١٩ ، ١٦ .

(٥) مجلة الثقافة ع ٢٢٢ ص ١٩ ، ١٦ .

وأمته ، فهو يسهر الليالي الطوال يقرأ ويفكر ليسدي إلى المجتمع خيرًا مترفعًا عما يشغل الناس من لهو الحياة الدنيا ، صابرًا على العلم ، صبره على العمل .

وهو يعلي الحقيقة العلمية على الأشخاص ، وكثيرًا ما نراه يتحدث عن محاسن الرافعي ومساويه ويقول : «حق العلم والتاريخ أقوى منه وألزم ، وليس على التاريخ سره» (١) .

وعلى الرغم من مظهره الهادئ ، الذي يوحي بشخصية شيخ حكيم فقد كان عنيفًا ثوروي المزاج ، وقد اعترف بهذا في قوله : «لا يمنعني على كل حال أن أصرح عن إعجابي بالكاتب وكتابه ، فإن في طبيعتي العنف والثورة ... وفي هذا الكتاب عنف وثورة .

ولهذا الخلق أثره في إثارته معارك أدبية بين أدباء عصره ، وإن برّر فعلته هذه برغبته في الاستمتاع بما تجوب به قرائحهم» (٢) .

وقد لاحظت إبان إطلاعي على أسلوبه الأدبي عامة ، وعلى ما كتبه في أدب الخواطر ، والكتب السياسية ولا سيما التي تتحدث عن حرب بور سعيد أنه كان ثائر النفس عنيفًا في ثورته ، صلدًا في دعوته إلى ما يؤمن به ، أما في مقالاته عن زوجه بعد وفاتها ، وأولاده ، فإن مزاجه هذا ظهر مكبوتًا بمشاعر الحزن والألم ، فكان كالبركان الخامد ينفعل في باطنه بأحاسيس ومشاعر شتى ، ويبدو ذلك عليه فيما يخطه قلمه .

ومن مظاهر ثورته سخريته اللاذعة المبطنة تارة والمكشوفة أخرى ، وقد تبدت في نقده المجتمع ، ولا سيما في مجلة الثقافة ، وفي نقده أعضاء المؤتمر الثقافي في لبنان ، الذين جانب أكثرهم الحق فيما يتعلق بالقضايا العربية ، يقول موجهًا خطابه إليهم : «فإذا كان بعض أهل السياسية في المؤتمر قد ضاق صدره لبعض ما وجهت من النقد ، ونظر إلى الموضوع من زاوية شخصية ، ولم

---

(١) حياة الرافعي ص ٧ .

(٢) مجلة الكاتب المصري س ١٩٣٢ ع ٩ ص ٣٥٨ بعنوان الرؤوس لمارون عبود .

يتّسع أفقه لإدراك المعنى العام الذي قصدت إليه فإني أعتذر إلى شخصه الكريم، وأؤكد أن اسمه ومسمّاه لم يكن على بالي ، ولا شخصه في خيالي ، وحسبه ذلك معذر إليه».

* * *

سابعًا : تديّنه

مرّ معنا أن محمد سعيد رُبّي في بيت صلاح وتقوى ، وانتسب إلى المعهد الأحمدي ، وقرأ كتب أبيه الدينية والعربية ، ثم كان من مؤسسي جميعة الثقافة الإسلامية ، وأنه كان صديق الرافعي المعروف بمنافحته عن الدين وقد ظهر أثر ذلك في حياته ، وكان الرافعي يقول عنه إنه «رجل كشيخ المسجد ... يخشى الله ، ويتوقى على نفسه ، ويستحي من ضميره» ، كما ظهر تدينه في دعواته الإصلاحية ، فهو لا يسكت عما ينال الدين من تعريض صريح أو غير صريح «فالدين لا حياء فيه ولا دبلوماسية» [١] . ولهذا نراه يسخر من زكي الأبراشي سخرية لاذعة ، وكان هذا قد سأل الأهرام : «هل في سنابل القمح سنبلة تنبت مئة حبة» معرّضًا في ذلك بالقرآن الكريم ، وقال : إنه بحث في سنابل القمح فترة طويلة فلم يجد السنبلة المنشودة ، وأنه أعد جائزة لمن يأتيه بمثلها ، فسخر منه أديبنا سخرية غاضب لدينه ، وقال له : ألا ليت الذين يعرضون لمثل هذه المباحث في أسلوب القرآن يعرفون من سر العربية ما يعينهم على الفهم والإفهام ، وإن القرآن بعدُ لأرفع مكانًا من أن يلتمس برهان إعجازه في منجل الحصاد أو مبضع الطبيب ، أو مخبار العالم لأن حقائقه أخلد على الزمان من كل ما يهتدي إليه العلماء من نظريات العلم بالتجربة والاختبار» [٢] .

كما نبه علماء الحديث إلى ضرورة الردّ على عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي الذي ألف كتاب «أبو هريرة الصحابي الجليل» وطعن فيه ، ووصفه بالكذب والسخف والتزلف» [٣] .

---

(١) محمد سعيد العريان : المؤتمر الثقافي العربي (٣) : جريدة البلاغ س ١٩٤٧ ع ٧٩٣٦ ص ٣ .

(٢) الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٨٧ ص ١٨ - ١٩ بعنوان سبع سنابل .

(٣) انظر الكاتب المصري س ١٩٤٧ ع ٢١ ص ١٧٤-١٧٥ .

ويندد أديبنا المسلم بالشاعر على محمود طه الذي تغنى بعيد الميلاد ، ونعى عليه وهو المسلم أن يهتز لهذا ولسقوط باريس بينما لا يلقي بالاً إلى غارات البرابرة الإنكليز على الإسكندرية ، والإسماعيلية ، كما ينكر عليه رأيه في الفداء الذي يخالف رأي الإسلام (١) . ويرد على من يسمّي الزكاة ضريبة ، ويبين أنها فريضة ، لأن الضريبة تشمل المسلمين وغيرهم (٢) .

أما حرية الفن فإنها يجب أن تحدّ بقيود حتى لا تكون سببًا إلى فساد عقيدة ، أو مسخ تاريخ ، ولهذا فهو يقف أمام عصر النبوة موقف الإجلال ، ويدعو إلى احترام هذه الفترة لئلا تستخدم كما استخدم الأوروبيون أساطير الإغريق ، وخرافات اليونان بسبب العدوى التي أصابتنا من آدابهم وفنونهم (٣) .

وللعريان كتيب عن رمضان ، تحدث فيه عن فريضة الصوم في الأديان السماوية كلها ، والحكمة من ذلك ، والمعنى الإنساني الذي يشعر به المسلمون جميعًا حين يجتمعون في وقت واحد حول مائدة ، فكأنهم أسرة واحدة من نسل آدم ،ومن شأن هذه الأخوة الإسلامية التي يشعر بها المسلم أن تقوّي الروابط بين الناس فتزول أسباب العداوة ؛ كما تحدث عن فوائده الصحية ، وعن قضايا اجتماعية دينية أخرى تدل على اطلاع فقهي ، ومعرفة بأحكام الشرع واسعة .

وفي محاضرته «الدين عند الله» التي ألقاها في ندوة المعلمين في رمضان يظهر تدينه وإيمانه ، وأفكاره الإسلامية النيّرة النابعة من قلب مؤمن بصير بدينه ، فهو يرى أن الأديان كلها من لدن آدم إلى نوح إلى سيدنا محمد ﷺ تدعو إلى الإسلام بمعناه الذي أراده الله : ﴿إن الدين عند الله

---

(١) انظر: عواطف مترجمة : الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢١ ص ١٩-٢٠ .

(٢) فريضة الزكاة : انظر الثقافة س ١٩٤٢ ع ٢٠٢ ص ٢٣-٢٤ .

(٣) حرية الفن : انظر الثقافة س ٩٤٤ ع ٢٦٤ ص ٢٤ .

الإسلام﴾ هذه الآية يرددها الله جلّ شأنه عقب الحديث عن كل رسالة سماوية ، وهذه الأديان تتضمن عناصر ثلاثة أولها الإيمان بالله الواحد ، وثانيها الإيمان باليوم الآخر ، وثالثها الشريعة أو السلوك الذي يجب أن يسلكه كل ذي دين ، وقد شرح هذه العناصر بقوله :

«أما الإيمان بالله فواضح كل الوضوح منذ أول رسالة إلى اليوم ... وكل الأديان السماوية تشهد أن لا إله إلا الله ، ولكن لا إله إلا الله ليست كلمة تقال ،وليست عقيدة تعتقد فحسب ... ولكنها كلمة وعقيدة ومفهوم له أثر سلوكي ... الله وحده هو الذي يملك مصايرنا ... يأمرنا وينهانا ... يكلفنا أو يرفع عنا التكليف ،أن يكون المؤمن فوق كل الضرورات ، فوق كل المخافات ... فوق كل أسباب الرجاء ... ذلك لأن الله حين يفرض علينا أن نؤمن بأنه لا إله إلا الله هو يفرض علينا أن نتحرر فلا نذّل لمخلوق يريد أن يستعبدنا ، وأن نقوى فلا نضعف أمام مخلوق يريد أن يسيطر علينا .

أما العنصر الثاني فهو الإيمان باليوم الآخر [ليحاسب] كل إنسان نفسه قبل أن يأتي يوم حسابه ... هو الذي ينشىء الضمير في نفس المؤمن ... إن الضمير هو القوة الباطنة التي توجه السلوك الإنساني على أساس دستور يستمد قدسيته من الإيمان باليوم الآخر .

العنصر الثالث : هو السلوك الذي نعبّر عنه بالشريعة ، والسلوك ... هو مجموعة القوانين الإلهية التي فرضها الله لنسير على نهجها» [1] .

ويبين في هذه المحاضرة مادية الرسالة الموسوية ، وروحانية الدين المسيحي ، وتكامل الشريعة الإسلامية ، ثم أهمية العبادات في تطهير النفوس لتعلو على جواذب الحياة الدنيا ، وأشرارها ، وأثر هذا التطهير في حياة الفرد والمجتمع ، وأخيرًا تحدث فيها عن حياة المجتمع الشيوعي ، والقلق والهم والحسرة التي تسيطر على أبنائه ، ثم عن المجتمع الغربي الذي يعاني الانحلال

---

(١) الدين عند الله : الرائد سبتمبر س ١٩٦٤ ع ٢٦-٢٩ .

والضياع ، وأعاد أسباب هذا كله إلى بعدهم عن الدين ، واتباعهم أهواءهم ، ودعا إلى ضرورة العودة إلى الإسلام ، والدعوة إليه في العالم حتى يصير دين البشرية ؛ لأن شريعته جديرة أن تنتشر ولكنها تحتاج إلى القدوة الصالحة التي بدونها لا يمكن لها أن تتغلب على ما رسب في أذهان هذه المجتمعات عن الإسلام ، وضرب مثلاً لذلك مما لمسه في رحلاته عن إعراض الغربيين عنه ، ومقاومتهم له ، واستجابتهم لمبادئه إذا لم تأتهم تحت عنوانه .

والعريان يصرح بأنه حينما يتحدث عن أدواء المجتمع وعلله ، إنما يستمد آراءه الإصلاحية من نظم الإسلام وشرعه ، وأنه لا يفرّق بين الدين والسياسة ، والاقتصاد ، والخلق ، والأدب والمجتمع .

إذا أضفنا إلى هذا كله ما ذكر عن رغبته في تطوير الأزهر ليكون جامعة تدرس الدين إلى جانب التخصص في فرع من فروع الحياة ، وما مرّ وسيمرّ من [١] اشتراكه في المؤتمرات الإسلامية وإلقائه فيها محاضرات عن الإسلام والأنظمة الدولية الأخرى عرفنا مدى الوعي الديني الذي يتمتع به أديبنا ومدى إخلاصه للفكرة الإسلامية وسعيه من أجل نشرها .

* * *

---

(١) انظر لذلك أعماله ص ٢٣ وآراءه ص ٨٨-٩٨ .

ثامنًا : وفاته ورثاؤه

في ليلة الأحد الرابع عشر من شهر يونيه / حزيران عام ١٩٦٤ لفظ محمد سعيد العريان أنفاسه الأخيرة ، وأسلم روحه إلى بارئها بين عديد من أصحابه الذين التاعوا لفقده ، وكان ذلك إثر عملية جراحية أجريت له لاستخلاص حصوات استقرت في كليته ، ولم يكن يقصدها ، ولكنه الأجل المحتوم ، ساقه إليها حين ذهب مع صديق له إلى مستشفى المعلمين ليكشف الثاني عن مرض له ، وجرى أثناء ذلك حديث غير مقصود عن آلام بسيطة يشعر بها العريان فأشير عليه بعمل صورة بالأشعة ، وكشفت هذه عن وجود حصوات في كليته ، ونصحه الطبيب بأن يجري عملية لانتزاعها ، ورغب المريض العريان بأن تجرى له فورًا وعلى دفعة واحدة ، وأدخل غرفة العمليات ، وكانت النهاية ، إذ لم يكتب له بعدها أن يفيء إلى رشده إلا قليلاً حتى رقد رقدته الأخيرة وأشيع النبأ ، فجزع الرفاق جزعًا شديدًا وغدوا يعددون مناقبه وجهوده في مجالات شتى فمن ذاكر لنشاطه الأدبي ، إلى آخر في المؤتمرات المتعددة ، إلى ثالث يخلد ذكراه في إقامة المسابقات ، وإنشائه اتحادات الطلاب ، وإيجاده التأمين التعاوني للمعارين ، ومساكن تعاونية ، وكتب للمعلم ، ومستشفيات وأندية وشواطئ اصطياف للمعلمين ، وسعيه من أجل تحسين الكتاب المدرسي ، ودعم مكتبات المدارس ، وتكريم المعلمين المحالين إلى المعاش ، وإيجاد عيد الأم تكريمًا لفضلها ، ومما لا شك فيه أن له مقدرة فائقة كان يتمتع بها قد أعانته على تنفيذ هذه المشروعات إضافة إلى عمله الرسمي في وزارة التربية والأزهر ، وفي الجمعيات الأدبية ، والندوات الدينية ، وقد شهد له بهذا النشاط الجم كثير من أصدقائه ، وهذا الشاعر محمد هارون الحلو يرثيه بقصيدة عنوانها «علم وفضل وأخلاق مطهّرة» ، يقول

فيها :

يا أيها الفارس السبّاق أين ؟ وهل بغيـــر سعيك يقضى للعلى وطر ؟
اليــوم تلقي علينا العبء مفتقــدًا وطـالما قـــد زهـاك السعي والسهرُ
علمٌ وفضـــــل وأخلاق مطهّـــرة ومنـطق بالهـــدى والحق مــزدهـر
قضى وخلّف حـــزنًا في جـوانحنا حزنًا كنار الغضا في القلب تستعر[1]

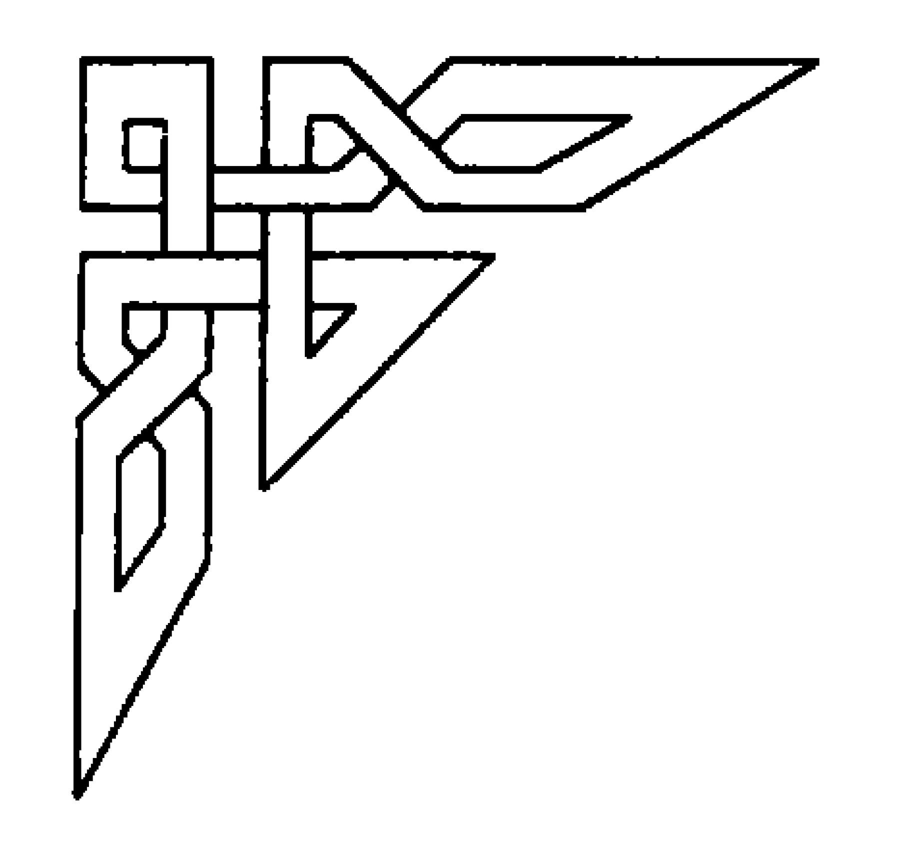
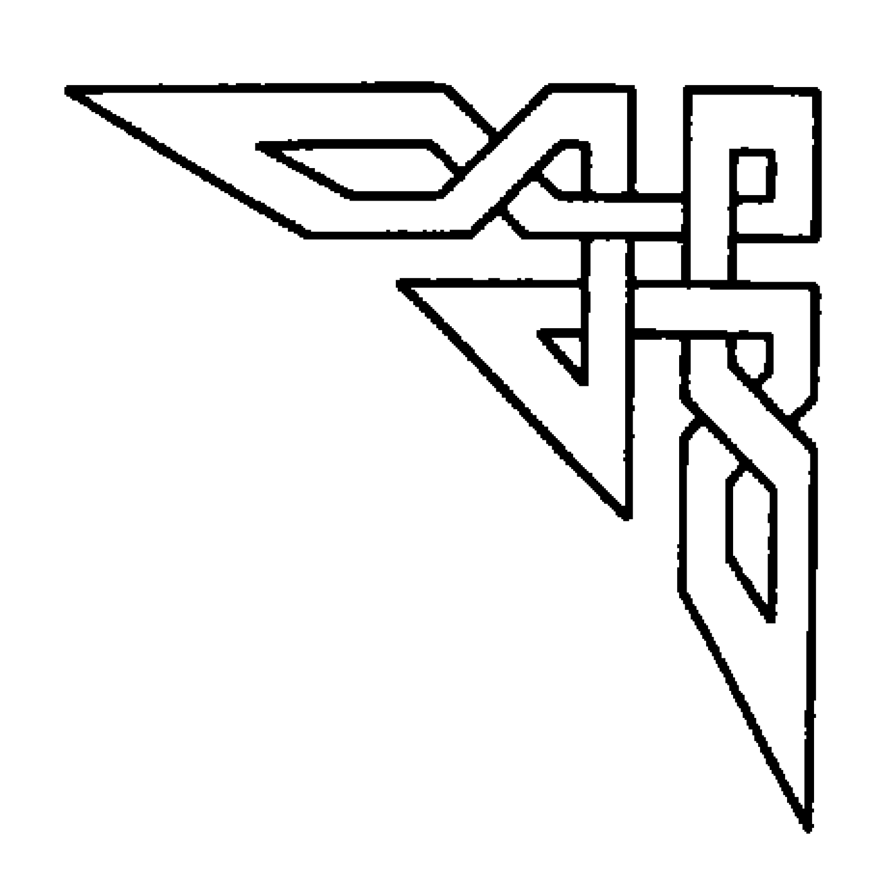
كما رثاه كاتبه وصديقه الأستاذ محمد كامل حته ، وكتب عنه مقالات ضافية تتبع فيها مراحل حياته ، وبيّن فضله كمعلم ، وكمكافح من أجل دينه وأمته [2] ، وقد عرف الأستـاذ «السيد أحمد العجان» فضله ودعا في مقـال رثاه فيه أيضًا إلى تخليد اسمه في طنطا مسقط رأسه . ومثواه الأخير ، وفي كليـة دار العلوم بالقـاهرة حيث تلقى علومه ، وفي نقابـة المهن التعليميـة التي كان له فضل إنشائها [3] .

* * *

(١) السيد أحمد العجان : الرائد س ١٩٦٤ ع ٩ ص ٧ .

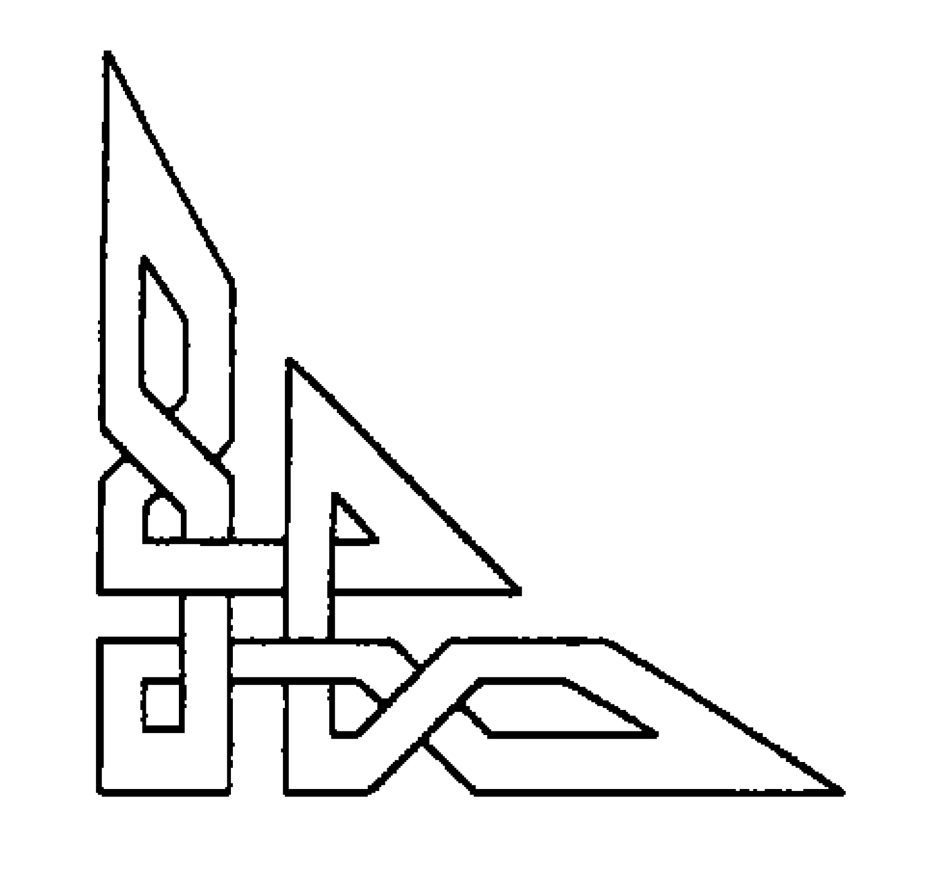
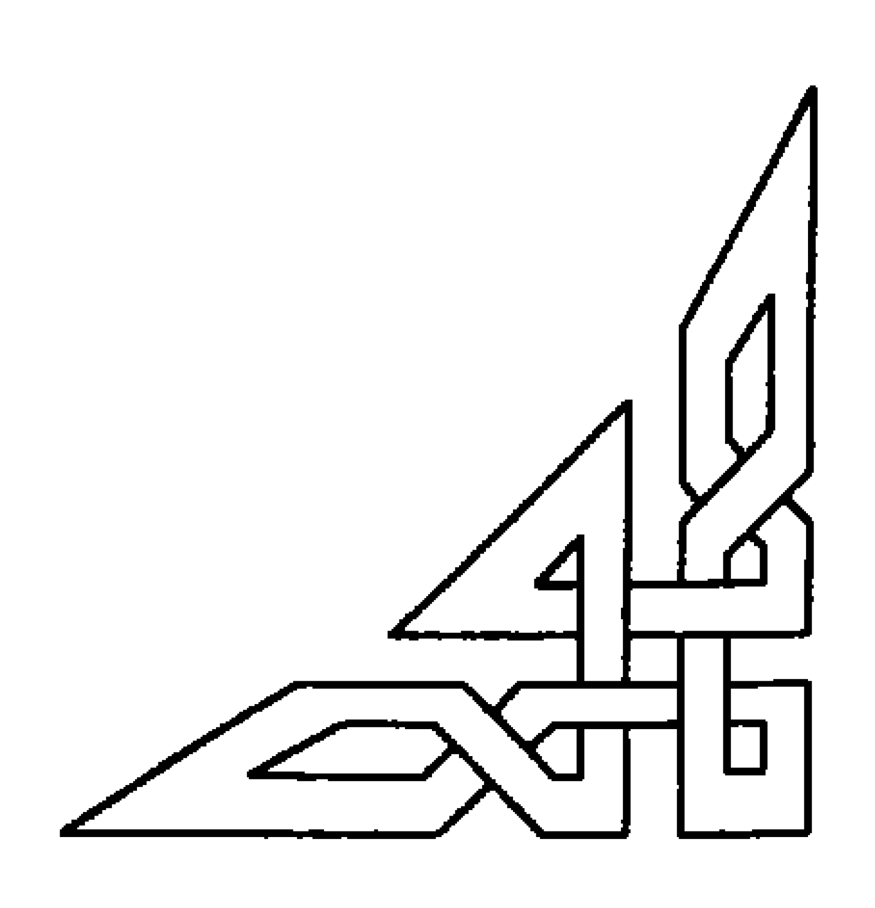
(٢) انظـر مجلة العربي س ١٩٦٩ ع ١٢٦ ص ٤٣ ، ومجلة الرائـد : ١٩٦٥ يونيـه / حزيران ، ص ٧ بعنوان ذكرى سعيد العريان .

(٣) الرائد س ١٩٦٤ ع ٩ ص ٦ ، وانظر لرثائه أيضًا : أحمد عنارة : الرائد س ١٩٦٤ ع ٩ ص ٤ و ومحمد زايد في المرجع نفسه تحت عنوان : القومية العربية في أدب العريان .

الفصل الثاني

آثار الأديب

آثار محمد سعيد العريان

المطّلع على مؤلفات الأديـب محمد سعيـد العريـان يـرى مقـدرة فائقـة ونشاطًا جمًّا لا يقدر عليهما إلا مؤلف قدير أحرق زهرة عمره ليوقد للأجيال شمعة تضيء لهم طريق الحرية والنهضة ، فهو منـذ عام ١٩٣٣ لا يفتـأ يصـدر في كـل سنة شيئًا جديدًا ، ولـم يقف إنتاجه حتى لفظ آخـر أنفاسـه في عـام ١٩٦٤ .

والمتتبع لأدبه يرى أنه بدأ بكتابة القصة الاجتماعية والدينية التاريخية، ثم القصص المدرسيـة يبتغي مـن وراء ذلـك إصـلاح الفـرد والمجتـمع ، صغـاره وكبـاره ، كمـا أنه بدأ بأدب المقالـة منـذ ١٩٣٤ ، وتبعه أدب الخواطـر على صفحـات مجلة الثقافة ، واستمر يكتب المقالات والخواطر . ويعرّف بالكتب حتى عـام ١٩٤٦ ، وكـان قبيـل ذلـك قد بدأ بتحقيق بعض الكتـب العربيـة القديمة ، وبتأليف القصص التاريخية الطويلة .

أما في الخمسينات فقد اتجه إلى تأليف الكتب السياسيـة بعدما تغيّر الخط السياسي للبلاد ، وتحررت مصر ، ونشبت حرب بور سعيـد وأممت قناة السـويس ، إضافة إلى تحريـره مجلـة سندباد ، واستمراره في كتابـة المقـالات التربويـة عـلى صفحات مجلـة الرائـد صوت المعلمين ، وقيامـه بعديـد مـن المؤتمرات التي يلقي فيها محاضراته التربوية والدينية والسياسية .

ومـن هنا نرى تعدد جوانـب آثاره حتى إنه ليصعـب على الـدارس أن يعده مبرّزًا في مجال واحد ، فهو كما رأينا كاتب قصصي وأديب مقالي ، وأديب أطفـال ومؤلف سيرة ، وناقد أدبي ، وسأعرض لهذه الآثـار مبينـة مضمونها مبتدئة بالأهم فالمهم .

١- القصص التاريخية الطويلة :

أبرز أديبنا في قصصه التاريخية الطويلة جوانب بارزة من حياة المجتمع الإسلامي ، وصفحات بارزة من تاريخه المجيد عرضها مزودة بما تحمله من عبر يراها القارىء من خلال ما يمر به من أخطاء اقترفها الأوائل فكانت سببًا لزوال حكمهم فترة من الزمن ، وهذه القصص هي حسب تسلسل تأليفها [١] .

أ- قطر الندى :

ألفها عام ١٩٤٥ ، وهي تصور حال مصر أيام حكم أحمد بن طولون وابنه خمارويه ، ومحاولتهما الانفصال عن الدولة العباسية التي كان يحكمها آنذاك المعتمد على الله ثم المعتضد ، كما تبين أثر العوامل السياسية والاقتصادية والإنسانية التي مهدت للاستقلال عن الدولة المركزية ، ثم كانت السبب في القضاء على خمارويه ، وقد طبعت ثلاث مرات لم يتغير مضمونها فيها إلا بعض شكل لمفردات وشرح ما غمض منها ، الأولى ضمن سلسلة اقرأ ، والثانية تلك التي قدّم لها الدكتور طه حسين ، وأما الثالثة فقد قدّم لها المؤلف نفسه ، وهي النسخة التي اعتمدتها .

ب- على باب زويلة :

وكان ألفّها فترة انقطاعه عن العمل بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ، وهي تصور حال مصر في أواخر عهد المماليك ، والمكائد التي دبّرها هؤلاء ليصلوا إلى أهدافهم ضاربين عرض الحائط مصلحة الشعب ، وقد أعدّ المؤلف تتمة لها لم تظهر إلى الآن ، وهي رواية «رجعة طومان باي» [٢] .

ج- شجرة الدر :

ظهرت للمرة الأولى في عام ١٩٤٧ ، وقد أبرزت دور شجرة الدر ،

---

(١) ستمر دراسه مفصلة عن القصص في الجزء الثاني بعنوان القصة عند العريان ولسوف أكتفي هنا بتقديم موجز عن كل منها .

(٢) انظر : مع سعيد العريان : فصل حياته من كتبه للأستاذ عبد الله حبيب ص ١٣ .

كامرأة في حكم البلاد في فترة عصيبة من الفترات التاريخية ، التي مرت على مصر فالصليبيون يهاجمون أراضيها في الوقت الذي كان فيه الأيوبيون يطمعون في إعادة سلطانهم عليها ، والمغول يبدؤون زحوفهم على البلاد الإسلامية ، والمماليك يتنافسون فيما بينهم على عرشها .

د- بنت قسطنطين :

وهي تصور محاولة المسلمين فتح القسطنطينية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه سليمان من بعده ، وتعرض صورة للأوضاع الدينية والاجتماعية والسياسية آنذاك ، كما تلقي الضوء على سياسة المسلمين الرحيمة في معاملة الأسرى ، وقد طبعت مع سلسلة اقرأ ، ثم طبعت ثانية بعد أن قدّم لها المؤلف مع شكله لأغلب مفرداتها ، وشرح ما غمض منها ، ومضمونها واحد ، وقد اعتمدت النسخة الأولى في معظم المواطن .

٢- *القصص القصيرة* :

ومعظمها طبع في مجموعته القصصية «من حولنا» التي تضم اثنتين وثلاثين قصة في ستين ومئتي صفحة ، وهي تعالج المشاكل الاجتماعية ، ولا سيما ما يتعلق منها بالمرأة ، وأغلبها قصص تدعو إلى مكارم الأخلاق والبعد عن الرذائل ، وقد نشرت في مجلتي الرسالة والثقافة ، ثم جمعت بعد أن أضيف إليها قصص أخرى في كتاب واحد سماه «من حولنا» وذلك في عام ١٩٤٥ ، وتناولها الأدباء بالتعليق منهم طه حسين ، وهناك قصص لم تضم إلى المجموعة منها «الأم الثانية» [١] . و «قصة الكفاح» [٢] .

وللعريان أيضًا أقاصيص تاريخية دينية تبعث الحمية في نفوس الشباب للدفاع عن دينهم ووطنهم ، وتعطيهم في ذلك الأسوة الحسنة لمن أراد أن

---

(١) انظر الرسالة س ١٩٣٤ ع ٦٨ ص ١٧٦٥ .

(٢) انظر مجلة الإذاعة المصرية س ١٩٥٠ ع ٨١٨ ص ١٤-١٥ .

يقتدي بأبطالها .

٣- الكتب السياسية :

وقد انفرد في تأليف بعضها فكان أسلوبه فيها أسلوب الأديب العالم ، وكانت في ذلك كتبًا أدبية ذات مضمون علمي سياسي يتحدث عن أهم الحوادث التي جرت على أرض الوطن ، على حين اشترك في تأليف كتب أخرى مع غيره .

أما النوع الأول : ما انفرد بتأليفه فهو :

أ- طريق الحرية

ويتألف من اثنتين وخمسين صفحة تحدث فيها عن دخول العثمانيين ثم احتلال الفرنسيين لمصر ، وكفاح شعبها ضدهم إلى أن استطاع محمد علي بذكائه ودهائه أن يتسلّم السلطة ويجعل الحكم وراثيًا ، لكن خلفاءه أهملوا مصلحة البلاد حتى وقعوا فريسة في أيدي الإنكليز ، فقامت الثورات ضد الحكام والمستعمرين ، وأهمها الثورة العرابية ، وثورة ١٩١٩ ثم ثورة ٢٣ يوليو - تموز التي قضي فيها على الملكية والاحتلال ، وعقدت معاهدة الجلاء ، فعادت مصر كما كانت حرة أبية ذات سيادة على أراضيها .

ب- أسباب المعركة

وهذا الكتاب يتمم ما سبقه في مادته ، وقد ألفه بعد تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ ليبين فيه الجشع الاستعماري منذ الحروب الصليبية التي تتكرر بأشكال شتى وفي أزمنة متعددة ، كما حدث عند احتلال الجزائر ومصر والشام والعراق ، وقد استمرت هذه الحروب على أراضينا حتى غدت جميعها في قبضة المحتلين ، لكن الشعب العربي لم يسكت على الطغيان وإنما عمل جهده حتى عادت أكثر أراضيه إلى حوزته ورفض الانضمام إلى الأحلاف العسكرية ، أو إلى إحدى الكتلتين الشرقية والغربية حتى لا يسير في ركاب

المعتدين ، ولقد حققت مصر أمانيها في ثورة ٢٣ يوليو - تموز ورسمت خطتها للارتفاع بمستوى الشعب داخليًا والعمل على توحيد البلاد العربية خارجيًا ، وأممت قناة السويس ، ولم يكن هذا العمل ليرضي المستعمر ، فغضب غضبة شعواء وهدّد وتوعّد ، وتأهّب الشعب المصري للمعركة الفاصلة ليلقنه درسًا لا ينسى .

ج- أهداف المعركة [1]

وهو الكتاب الثالث والأخير من هذه السلسلة ، ألفه بعد حرب بور سعيد عام ١٩٥٦ ليؤكد للعالم أننا أمة لا نرضي الهوان وإننا نحارب لا من أجل الحروب ، بل من أجل استعادة حريتنا ، وكرامتنا ، وأمجادنا السالفة ، وحتى نحرر العالم مما طغى عليه من مفاسد حين ننشر على ربوعه مثلنا العليا ... كما تحدث فيه عن مطامع العدو في أراضينا ، وعدوانه على مصر ، وإيجاده إسرائيل في قلب الأمة العربية ليحول دون وحدتها ، ثم عن انهيار الأحلاف العسكرية وظهور أهمية البترول في المعركة ، وأخيرًا بيّن أننا سنواصل الكفاح حتى نستأصل الشر من أرجاء المعمورة ، «وبعض الحرب سبيل إلى السلام» [2] .

وأما النوع الثاني : «ما اشترك مع غيره» فهو :

أ- مجموعة اخترنا لك :

وضع العريـان مشروع هذه المجموعة بـين عامي (١٩٥٢ - ١٩٥٥) ، وأشرف على إصدار الأعداد الأولى منها وشارك في تأليف بعضها [3] وهو :

---

(١) كتابا : أهداف المعركة . وأسباب المعركة جُمعا في بعض الطبعات في كتاب واحد ذي جزأين يحمل اسم معركة الحرية ، وعلى هذا تصبح السلسلة مؤلفة من كتابين هما : طريق الحرية ، ومعركة الحرية .

(٢) أهداف المعركة ص ١٧٠ .

(٣) جوائز الدولة ص ٦٦ .

*** أفريقيا حلم الاستعمار البريطاني [١] :**

وقد بيّن فيه مؤلفوه سياسة التفرقة العنصرية التي يتبعها المستعمرون في جنوبي وشمالي أفريقيا ، والمستوى المعيشي المنخفض الذي يعيشه سكان تلك البلاد ، والثورات التي تقوم ضد المستعمرين .

*** أضواء على الحبشة [٢] :**

تحدث فيه مؤلفوه عن انتشار المسيحية في الحبشة منذ القديم ، وعلاقتها مع الولايات المتحدة الأمريكية .

*** البترول والسياسة العربية [٣] :**

بيّن فيه كتابه أهمية البترول في منطقة الشرق الأوسط ومحاولات المستعمر مدّ نفوذه إلى مناطقه ، وبروز الوعي ضده .

*** شمال إفريقيا بين الماضي والحاضر والمستقبل [٤] .**

يتحدث عن احتلال الفرنسيين للمغرب العربي ، «تونس والجزائر ومراكش» والمطامع السياسية والاقتصادية ، والدينية من وراء هذا الاحتلال ثم عن كفاح الشعب هناك .

*** جنوب إفريقيا جَنّة البِيضِ وجحيم المُلوّنين [٥] .**

يحكي هذا الكتاب المشاكل العنصرية في تلك المناطق والأجناس التي تقطنها ، وتجارة الرقيق ، والمعاملة القاسية التي يعانيها سكان البلاد الأصليين من الأوروبيين .

---

(١) اشترك في تأليفه : محمد سعيد العريان ، كمال عبد الحميد ، عبد القادر حافظ ، وعبد الحميد بطريق ويقع في ٢٣٢ صفحة .

(٢) اشترك في تأليفه : العريان ، أمين شاكر ، ومصطفى أمين ، وهو في ١٦٨ صفحة .

(٣) أعدّه العريان ، وأمين شاكر ، توفيق مقار ، وهو في ٢١٠ صفحة .

(٤) كتبه العريان ، وأمين شاكر ، مصطفى أمين ، ويقع في ١٦٤ صفحة .

(٥) اشترك في تأليفه محمد سعيد العريان وأمين شاكر ومصطفى أمين ويضم ٢٠٦ صفحة .

*** تركيا والسياسة العربية من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء أتاتورك [١] .**

ويتحدث عن الفتوحات العثمانية في أوربا والشرق . وأثر الصليبيين في إضعاف الدولة العثمانية ، والصراع بين روسيا وتركيا على المضائق ، وانضمام تركيا إلى الأحلاف الغربية لتقف في وجه عدوتها هذه ، والثورة التركية العلمانية .

*** حقيقة الشيوعية [٢] .**

وقد بيّن فيه أسباب الثورة الشيوعية ، والدعايات التي يقوم بها أصحابها لنشر مذهبهم ، وعلاقتها مع الصهيونية .

ب- قصة الكفاح بين العرب والاستعمار [٣] .

ردّ فيه مؤلفاه التهمة التي صورت العرب غزاة معتدين ، فبيّنا أن حروبهم كانت حروبًا دفاعية منذ بدر إلى يومنا هذا ، وأنهم مصرّون على مواصلة الكفاح حتى يتحرر آخر جزء من أراضيهم .

* * *

ج- أحاديث في التوجيه القومي .

جمع فيه العريان الأحاديث التي ألقيت في مؤتمر التعبئة القومية الذي أقيم في الاسكندرية عام ١٩٥٩ ، ومؤتمر مبعوثي مصر في الخارج عام ١٩٥٩ . واستهلّه بمقدّمة بيّن فيها الهدف من هذا الكتاب وهو : «مقاومة الانحراف ، وتحصين الشعب من المبادئ الوافدة ، والمذاهب المستوردة» [٤] . وكان له

---

(١) ألفه العريان ، وأمين شاكر ، ومحمد مصطفى .

(٢) ألفه العريان ، وأمين شاكر ، وعلي أدهم ، وفي طبعة المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ذكر اسم علي أدهم فقط مؤلفًا .

(٣) تأليف الدكتور جمال الدين الشيال ، ومحمد سعيد العريان .

(٤) مقدمة الكتاب للعريان ص ١ .

فيه حديث عن الحياد الإيجابي .

٤- التحقيق .

بذل العريان جهودًا واسعة في تحقيق الكتب ، نراها من خلال استعراض منهجه فيه ، ومن أقواله التي منها «تصحيح كتاب قديم يقتضي من الجهد والمشقة والدأب أكثر مما يقتضيه الاشتغال بتأليف بضعة كتب جديدة [١]ولهذا نراه يعتذر عن الهفوات التي قد تصادف فيها [٢] على شهرته في هذا الفن [٣] ، وسأعمد إلى الحديث عن منهجه في التحقيق ، ثم أذكر الكتب التي حققها .

أ- منهجه في التحقيق :

من استقرائي طريقته في تحقيق الكتب القديمة والحديثة ، ومراجعتها وتصحيحها تبيّن لي مدى الجهد الذي قدّمه من أجل ذلك . ومنهجه فيه . وهذا يسير في معظم الأحيان على المنوال التالي :

١- ترجمة حياة المؤلف ، وتبيان أوجه نشاطه الأدبي والعلمي .

٢- بيان فترة تأليف الكتاب ، مع عرض الأدلة التي تؤيد ذلك .

٣- ذكر سبب تأليفه .

٤- وصف الكتاب ، وبيان أهمية المادة ، وترتيبها حسب الأبواب أو الفصول.

٥- مقارنة النسخ بعضها ببعض مخطوطة كانت أم مطبوعة ، مع بيان

---

(١) محمد سعيد العريان ، مقال حكماء الإسلام : مجلة الكاتب المصري س ١٩٦٤ مجلد ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) انظر مثلاً اعتذاره عن أخطاء تحقيق إعجاز القرآن للرافعي ص ٣ و ومقدمة كتاب العقد ص (ب - ل) ومقدمته لتاريخ آداب الرافعي صفحة ط .

(٣) شهد بهذا الأستاذ محمد عطية الأبراشي في كتيب «مع سعيد العريان» ص ٧ كما اعتمد على تحقيقه كتاب العقد لابن عبد ربه الدكتور يحيى الجبوري في كتابه شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، انظر مثلاً ص ٤٣ من هذا الكتاب .

الإضافات التي أضافها المؤلف على الأصل في حياته ، أو تلك التي أضافها غيره بعد وفاته ، وبَيان عبث العابثين بهذه النسخ ، وأثر ذلك كله في اختلافها .

٦- اعتذاره عن الهفوات التي قد تصدر عنه نتيجة عدم توافر المادة ، كنقص النسخ ، أو صعوبة جمعها ، أو صعوبة ترتيب المادة كأن تعطى له قصاصات ، وأوراقًا مخطوطة بخط رديء ، أو لاستطراد المؤلف إبان عرض أفكاره أو لتقصير منه ، مع بيان صعوبة التحقيق .

٧- شكل المفردات ، والآيات ، وشرحهما ، وشرح الأفكار الغامضة شرحًا لغويًا أو أدبيًا ، أو جغرافيًا ، أو تاريخيًا حسبما يتطلب المقام ، مع إعطاء فكرة عن الأعلام الغامضة الوارد ذكرها ، ولا سيما ما له علاقة بالبحث أو شهرة في التاريخ .

٨- الإحالة إلى المراجع والمصادر التي استعان بها المحقّق .

٩- تعليق على شروح المؤلف أو على أفكاره أو على معتقداته ... ورد الخطأ إلى الصواب ، وبيان مدى صحة المعلومات الواردة في الأصل .

١٠- تمييز تعليقات وشروح الأصل عن تعليقاته وشروحه في الهامش بقرائن لغوية أو بإحالة على كتب للمؤلف أو المحقق تبين الشارح ، أو التمييز بينهما بنجمة دلالة على ما يقوم به المحقق .

١١- الإشارة إلى طريقته في التحقيق ، وإلى الرموز والأقوال التي تبين مجهوده عن مجهود المؤلف ، وذلك في مقدمة الكتاب .

١٢- الإشارة إلى التغييرات التي يضيفها المحقق إلى الأصل ، كزيادة يضعها بين قوسين ، أو يضع بينهما الكلمات التي يشتبه بصحة لفظها ، أو يشير إلى مواطن الحذف بنقط متقاربة .

١٣- قد لا يذكر للكتب التي يحققها مقدمة ، وقد ميزتها بأن سردتها سردًا أو أشرت إليها في الهامش .

١٤- عمل فهارس مفصلة للموضوعات ، والأعلام ، والبلدان ، والقوافي وأنصاف الأبيات للكتب القديمة ، وديوان الشوقيات .

١٥- الإشارة إلى ترجيح ما يتأكد من معلوماته ، أو تركه الأمر ظنيًا لما لم يتحقق منها .

ب- *الكتب التي حققها .*

* *الكتب القديمة :*

- العقد الفريد لابن عبد ربه .

وقد بذل فيه جهدًا كبيرًا بعد أن عجز عن تحقيقه محمد الخضري والأستاذ المرصفي الذي امتنع عن تدريسه إشفاقًا من تصحيحه [(١)] وسماه بالاسم المعروف له ، مع أن مؤلفه كان يدعوه «العقد» وأخرجه في ثمانية أجزاء يحوي الأخير منها الفهارس المتنوعة ، وهو كتاب أدب بمفهومه القديم الذي يعني «الأخذ من كل فن بطرف» وفي مقدمته نقرأ رده على «أحمد أمين» الذي يدّعي أن ابن عبد ربه أخذ مادة الكتاب من كتاب «الأمالي» للقالي ، وقد أثبت خطل هذا القول لأن مؤلفه توفي قبل مقدم أبي علي القالي إلى الأندلس ؛ ثم بيّن أهمية الكتاب وأسباب تأليفه ، وأعاده إلى اثنين هما : إثبات الذات الأندلسية ، ومنافسة المشارقة بعلومهم .

- الأمصار والعمران لابن خلدون

وهو الباب الرابع من مقدمة العلاّمة عبد الرحمن بن خلدون ، ويبحث في موضوعات جغرافية واجتماعية للبلدان التي يعرّف بها .

* * *

(١) انظر مقدمة الكتاب للعريان صفحة «ل» .

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي [1] .

يوضح أحوال المغرب التاريخية والجغرافية والسياسية والأدبية والعلمية، وقد بيّن فيه المحقق سبق مؤلفه إلى قاعدة اختلاف الطبائع والصفات باختلاف طبيعة الأرض ، وكذلك أثر الميول والهيئات على اللغات .

*** الكتب الحديثة :**

لم يكتف العريان بتحقيق الكتب القديمة وإنما اتجه إلى الأدب الحديث يحقق كتبه ، ويراجعها ويصححها ، وأشهر ما قام به في هذا المضمار كتب مصطفى صادق الرافعي التي دعاها بالمكتبة الرافعية اعترافًا بفضله على العربية والدين ، والكتب المحققة هي :

- رسائل الأحزان في فلسفة الحب والجمال : للرافعي :

ألفه صاحبه بعد مقاطعته «لمي زيادة» وفيه يصف حبه لها في « أسلوب فيه كبرياء المتكبر ، ولوعة العاشق ، ومرارة الثائر الموتور ... وذلة المحب يستجدي فاتنته بعض العطف والرحمة والحنان» كما تعرض بالذكر لأخرى تعرف عليها في لبنان ، ولذا فكتابه رسائل خاصة تترجم عن نفس صاحبها ، وليست أدبًا للمتأدبين ، وفي الكتاب استطراد من شعر ونثر لا يتصل بالموضوع الأساسي ، وذلك ليثبت به المؤلف معنىً . يخشى أن يفوته .

- السحاب الأحمر : للرافعي :

وهو الفصل الثاني من قصة الحب بين الرافعي ومي زيادة ، وفيه يرد التهم التي وجهتها إليه ، ويقسو على المرأة عامة ، ثم يحاول أن يعتذر منها ،

---

(١) يذكر الدكتور الطاهر مكي المشرف على رسالة الماجستير والتي هي بعنوان محمد سعيد العريان حياته وأدبه أن العريان حقق هذا الكتاب ، لكنه أضاف إلى اسمه اسم «محمد العربي العلمي» في الطبعة الأولى ليسمح للكتاب بدخول المغرب وذلك بناء على طلب من السلطان محمد الخامس - وكان ذلك أيام الاستعمار ، فلما زالت وطأته نشر الكتاب ثانية يحمل اسم العريان وحده محققًا ، ومما يؤيد قول الدكتور أن العريان تكلم في مقدمته بلغة المفرد ووقعها باسمه وحده في نهايتها ، وذلك في الطبعة الأولى . ولهذا دلالته .

ويظـن المحقّق أن جـواب «مي» عـلى ما كتبه في «رسائـل الأحـزان» كان جـواب أديبـة شاعرة أرادت أن تهيج محبها ، فأثارت كبريـاءه ، فكتـب إليها هـذا الكتـاب يصور فيه لؤم المرأة ، ويشير إلى قلبه الذي وقع أسير حبها فلم يستطع عنه فكاكًا ، فغدا يدَّعي بغضها ، على أن به مسالك أخرى من القول ليست لها وإن كانت من وحيها .

- أوراق الورد : للرافعي :

وهـو خواطر منثورة في فلسفـة الجمال والحب ، تتحـدث عـن حب الرافعي الذي أفعم قلبه بالألم ، ويقـول الرافعي كما ذكر محققه أنه جمع فيه رسائلـه ورسائـل «مي» لكـن العريان يرد هـذا القـول ليبين أنه لا يحـوي إلا رسالة واحدة لها ، أما رسائله فإنها أحاديث مناجاة في خلوتـه ، كتبها بعدما هـدأت ثائرته ، ثم جمعها في كتـاب بعد سبع سنين مـن تاريخ الفـراق ، ثم أخرجه للفن أولاً ، ولها ثانيًا ، فحوى فكر المفكر ، وعقـل الأديب ، وحياة الفنان .

- حديث القمر : للرافعي [(١)] .

ويتحـدث هذا عن قصة حـب نشأت بينه وبين امـرأة تعرّف عليها في لبنان ، ثم تزوجت بعد فترة من تعرفهما .

- تاريخ آداب العرب للرافعي .

ألفـه ليكون كتابًا يدرس في الجامعة ، ويقع في ثلاثـة أجزاء جمعت من العلـم والأدب ما لم يجتمع في كتاب قبله ، وقد لاقى المحقّق صعوبة كبـيرة في جمع الجزء الثالث منه وتحقيقه ، بعد أن رآه أوراقًا باليـة من تقادم السنين ، وقصاصات مبعثرة وإشارات إلى مواطن من كتب للمولف سينقلها ، إضافة إلى ما لاقاه أثناء البحث عن موضوعات هذا الجزء .

---

(١) انظر لذلك رسائل الأحزان ص ٧ من المقدمة ، وفيها يتحدث عـن هذا الكتاب ، واكتفى بهذا التقديم ، فلم يعد الحديث عنه حينا حققه .

- كتب أخرى للرافعي .

قام محمد سعيد العريان بتحقيق وتصحيح باقي مؤلفات الرافعي وهي :
«كتاب المساكين ، وحي القلم ، تحت راية القرآن ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» .

- ديوان الشوقيات جـ٤ : لأحمد شوقي .

وهو أشعار لم تنشر في الأجزاء الثلاثة الأولى من ديوان شوقي ؛ لم يجمع بينها جامع ، وهي تفيد في معرفة تطور شعر أمير الشعراء . إذ أن فيه ما قاله في أوائل حياته ، وفي أواخرها .

- شيطان بنتاءور ، أو لِبَد لقمان وهدهد سليمان لأحمد شوقي .

يقول العريان عنه : إنه كتاب نثر وقصة وشعر ليس من فن الشعر ، ولكنه نبضات قلب نثرت غير مقيدة بميزان ولا قافية ، وقد قص فيه المؤلف قصته مع بنتاءور شاعر رمسيس إذ عاش معه فترة في الخيال ، فيها الودّ والصداقة ، وفيها الشوق والحنين ، وفيها آثار عروش بائدة وصحار نثرت عليها أشلاء وجماجم ، وفيها من حكمة بنتاءور وصوفيته ، وقلب المصري ويقظته ، وكان شوقي هدهدًا أحاط علمًا بما حوله ، وقد جمع من معلومات الماضي والحاضر ، واشتم ريح الغد في هذا الكتاب ، وهذه المحاورات التي أنشأها وهو في الثلاثين من عمره تبيّن تطور فن الشعر والنثر والقصة عند شوقي ، وتوضح آراءه السياسية ،وتعبّر عن نفسه وفنه بصدق .

- مراجعة كتابي المطالعة العربية للمدارس المغربية

الأول منهما الجزء الثالث للقسم الثاني بالمدارس الابتدائية ، والثاني الجزء الرابع لصف الشهادة الابتدائية .

٥- السيرة .

وهو كتاب يعرض حياة الأديب مصطفى صادق الرافعي ، وسأتعرض

له بالذكر إبّان الحديث عن فن السيرة عند العريان .

٦- *رمضان* .

وهو أول كتاب من سلسلة مكتبة الشعب التي رمت إلى تقديم زاد ثقافي مناسب للجمهور . تناول فيه العريان رمضان من جميع نواحيه الدينية والاجتماعية والخلقية ، فبين فرضيته ، والأخوة الإنسانية التي يشعر بها المسلمون جميعاً خلال أيامه الفضلى ، وأحكامه ، ومفسداته ، والعادات الاجتماعية والدينية المتبعة فيه ، وزكاة الفطر ، وغير ذلك من أحكام دينية تتعلق به .

٧- *توجيه «بيان كمال الدين حسين عن التربية والتعليم في خمس سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٧»* .

وللعريان فضل توجيهه ، وهو يتحدث عن تطور التعليم وأنظمته ، وميادينه خلال السنوات الخمس المذكورة .

٨- *تقديم كتاب «تل سامر» «لمحمد أحمد الفرغلي»* .

وفي مقدمته أشاد بالمؤلف وكتابه ، ثم بين النوع الفني الذي ينتمي إليه هذا الكتاب ، فهو قصة ، أو مسرحية أو كتاب رأي إذ فيه من هذه الفنون كلها ، ولكنه لا يخلص لواحد منها . يتحدث عن الخير والشر وعلاقتهما بالله سبحانه وتعالى ، ثم الإنسان ، كما يتحدث عما بين الموت والحياة من طرق تسلكها الأحياء إلى غاية .

٩- *محاضرات متنوعة* .

ألقاها في المؤتمرات والندوات ، وأغلبها محاضرات تربوية وسياسية وهناك محاضرات أدبية ودينية .

فمن المحاضرات الأدبية : محاضرته في القدس بمناسبة مرور عام على

وفاة الرافعي ، وقد مرّ ذكرها إبّان الحديث عن رحلاته [١] .

ومحاضراته عن القصص [٢] التي يبين فيها معنى القصة ، ووجودها في الأدب العـربي القـديم ، وأنواعها المختلفة ، وعناصرها الفنيـة ، وهي محاضرة تدل على اطلاعه الواسع على الأدب العربي القديم والحديث ، وعلى الآداب الأخرى ، كما تظهر اعتماده في تأليف القصص على دراسة قواعدها الفنية .

ومن **محاضراتـه الدينية** : محاضرته عن المولد النبوي الشريف [٣] ، وقد عرض فيها أمجاد أمتنا الماضية ، وتأخرها في وقتنا هـذا ، وبين أن القوة التي نهضـت بأجدادنـا لجديرة بأن تعيدنـا إلى ماضينـا لـو تخلّقنا بالإيمـان والصبر .

أمـا محاضرته «الدين عنـد الله» فقـد بين فيها دعوة الأديـان السماوية كلها إلى الإسلام ، وقيامه على عناصر ثلاثة هي توحيـد الله ، والإيمان باليوم الآخر ،والسلوك الذي ننتهجه في حياتنا ، والذي يجب أن يُسْتَمدّ من شرع الله . كما عرض فيها للأوضاع الاجتماعية في المجتمعين ، الشرقي والغربي ، وبيّن أسبـاب تدهور العلاقات الاجتماعيـة فيهما ، ودعا إلى ضرورة نشر الإسـلام في ربوع العـالم بعـد أن يتخلّق أبناؤه بأخلاقه ليكونـوا أسـوة حسنـة ، وقد مرّت بالتفصيل إبان الحديث عن تدينه .

ومن **محاضراته السياسية** : محاضرتان عن الكواكبي أقيمتا في حفلين لـذكراه بمناسبة مرور خمسين عامًا على وفاته في سوريا ، إحداهما في دمشق والأخرى في حلب ، وهما متشابهتان في موضوعهما ، وهمـا : مفهوم القومية العربية عند الكواكبي ، ودعوة الكواكبي ، وقد تحدث فيهمـا عن رأي

(١) ومعظمها مقتبس من مقدمة كتابـه «حياة الرافعي» . انظر مقدمة الكتاب للعريان ، ومجلة «صحيفة دار العلوم» ع ٣ س ١٩٣٩ .

(٢) صحيفة دار العلوم س ١٩٣٩ ع ٧ ص ٢٨ - ٤٧ بعنوان : القصص : أنواعه وشروط جودته ، نماذج منه ، دراسات توجيهية .

(٣) المرجع السابق س ١٩٤١ ع ٤ ص ٤ ذكرى المولد النبوي .

الكواكبي بالقومية العربية ، وارتباطهما بالدين وأنكر القومية التي ترفض الأديان ولا تعدّها أساسًا لها ، وقد طبع كل منهما في كتيب صغير .

ومحاضرته : «أول الوهن في الإمبراطورية الإسلامية حركات انفصالية» : ألقاها في عام ١٩٥٠ مرتين ، إحداهما في المؤتمر الإسلامي بالحج في مكة المكرمة ، والأخرى في النادي الثقافي في السودان ، وقد بين فيها قوة المسلمين حينما كانوا متحدين تحت راية واحدة على اختلاف أجناسهم ، وألوانهم ، ثم التفكك التدريجي الذي حلّ بدولتهم ، وما آل إليه من ضعف وانحطاط ، فاستعمار ما زلنا نعانيه إلى اليوم ؛ وقد طبعت أيضًا في كتيب .

ثم محاضرته : الحياد الإيجابي [١] التي ألقاها في مؤتمر التعبئة القومية بالاسكندرية ، إذ بين فيها وقوف مصر موقف الحياد الإيجابي بين الكتلتين الشرقية والغربية لأنها دولة لا تبتغي مثلهما العدوان والاستغلال ، ولكنها لا تستنيم للهوان وما حروبها إلا حلقة من سلسلة الحروب التي خاضها العرب والمسلمون على مرّ القرون دفاعًا عن عقيدتهم وأرواحهم وأراضيهم .

وهناك محاضرته في ندوة الطلاب المبعوثين : «تراثنا الروحي» التي بيّن فيها أن أمتنا جزء من العالم كله . وأن الإسلام عمل على رقيها ، وأننا نهدف إلى نظام اجتماعي يحقّق للفرد كفايته في حاجياته ، ويحقّق للجميع أمنا وسلامًا وطمأنينة [٢] . وهذا النظام مستمد من شرع الله لا من الشرق ولا من الغرب .

وله محاضرة : أهداف الوعي العربي : تحدّث فيها عن تنبه الوعي العربي لمقاومة الاستعمار ، والسعي من أجل الوحدة .

أما محاضرته : «الأمة العربية تستأنف الحياة» [٣] فقد تحدّث فيها

---

(١) انظر الرائد عدد خاص س ١٩٥٩ ص ١٦٧ .

(٢) انظر : أحاديث في التوجيه القومي : ندوة تراثنا الروحي للعريان ص ٣١٤ .

(٣) انظر كتاب مؤتمر المعلمين العرب ص ٢١٠ .

عن كفاح العرب والمسلمين منذ القديم في سبيل العقيدة ليحققوا للإنسانية حياة جديدة إذ لم يكن سعيهم في سبيل مطامع ذاتية ، كما تحدّث فيها عن الحروب الصليبية ، واستمرارها إلى يومنا هذا ، وسقوط فلسطين في أيدي شراذمة الآفاق ، ونشدان العرب حريتهم ووحدتهم ، وسعيهم في سبيل نشر رسالتهم الإنسانية القائمة على المساواة والإخاء والرحمة .

ومن محاضراته التربوية : واحدة بعنوان «تحية لوفد المعلمين العرب» [١] تحدث فيها عن وحدة العرب ودور المعلمين في صنع تاريخ جديد لأمتنا وأخرى بعنوان «رأي في تعليم اللغة» [٢] وقد وضح فيها الفرق بين تعليمها وتدريسها ، وكيف أن الأول كان عملاً طبيعيًا شاركت فيه الطبيعة منذ هبط على هذه الأرض أول آدميّ «عمل طبيعي أعانت عليه عناصر مختلفة من عناصر الطبيعة ،ومخلوقات عدة من مخلوقات الله ، أعان عليه حفيف الغصن ... وزفيف الريح [٣] ثم انتقل إلى ضرورة تدريسها ككلّ دون تفريعها إلى عدة فروع ، وعرضلأهمية القصة في تعليم الطفل لغته ، وتقويم لسانه .

١٠- أدب الأطفال

للعريان فيه نشاط بارز ومتنوع بين قصص ومجلات وكتب [٤] درستها في كتاب مستقل بعنوان أدب الأطفال عند محمد سعيد العريان .

* * *

(١) انظر الرائد س ١٩٥٦ ع ٥ ص ٣١٠ .

(٢) انظر صحيفة دار العلوم س ١٩٤٣ ع مشترك ١ و ٢ ص ١٨ .

(٣) انظر السابق .

(٤) من ذلك رحلات سندباد في أربعة أجزاء ، وقصة العرب لاخريستوف كولمبس ، والقصص المدرسية وهي ثلاث وعشرون واحدة ، ومجلة سندباد ، ومجموعات كان يا ما كان القصصية وغير ذلك ...

١١- أدب التعريف بالكتب والمقالة والخواطر .

كان العريان يلقي بعض الضوء على كثير من الكتب التي تنشر في السوق ليعرّف القراء بها ، وسأتحدث عنها إن شاء الله كما أتحدث عن أدبه المقالي وخواطره التي كان ينثرها في المجلات والصحف .

هذه آثاره خلال سنوات إنتاجه العلمي ، إلى آثار أخرى مفقودة ذكرت في تضاعيف آدابه ، أو ذكرها غيره له : من ذلك محاضرته « كيف أختار زوجتي» التي طبعت في كتيّب [١] لم أعثر عليه على طول فترة بحثي عنه، وكتاب «المؤثرات السياسية في جيل الأدباء» ، وقد قال إنه يعدّه للنشر ثم لم بنشره بعد ، وكان ذلك في أوائل الأربعينيات ، وكذلك كتابه «تحت الرماد» الذي رثى فيه زوجته الأولى ، وكتاب « مستقبل الإسلام في مصر أو الحكومة الإنسانية العالمية [٢] وهناك روايتان هما «رجعة طومان باي» و « سمية أم زياد»فقدتا مع ما فقد من أدبه [٣] .

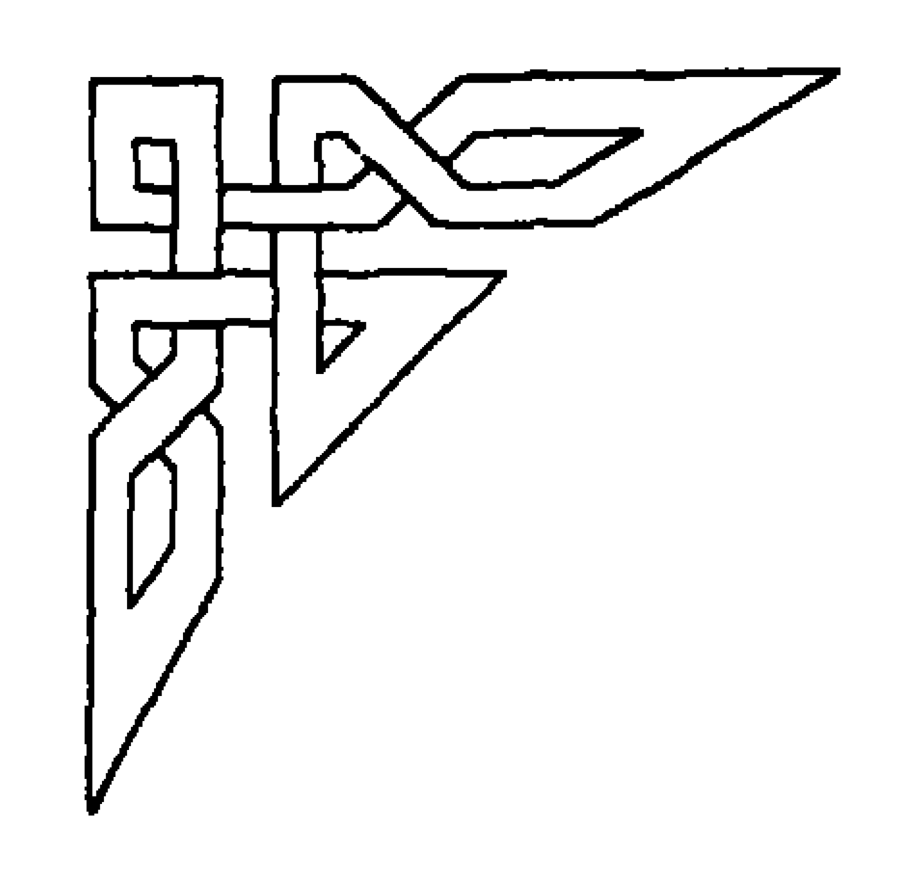
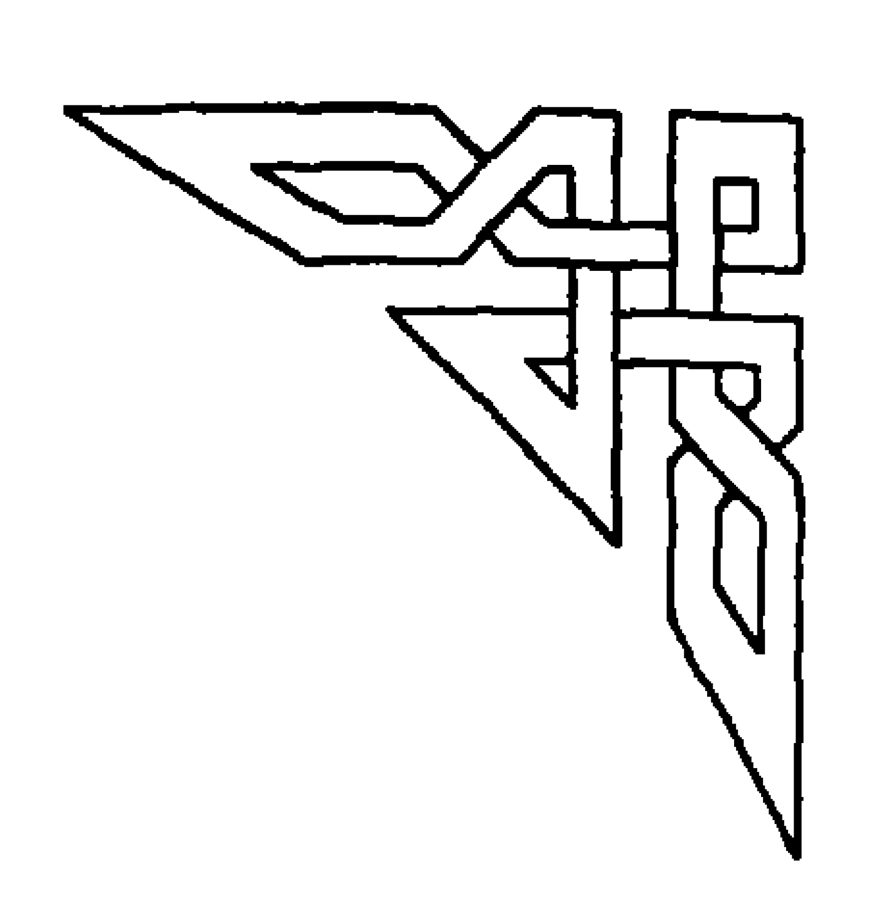
وبعض هذه الكتب أو القصص طبع مرارًا عديدة ، وهو العقد الفريد ،وحياة الرافعي طبعا مرتين ، والقصص المدرسية للأطفال وقد طبع بعضها ثماني مرات ، وكذلك رحلات سندباد كرر طبع أكثرها مرارًا ، وحقيقة الشيوعية طبع مرتين ، وذكر اسم «على أدهم» مؤلفًا منفردًا في الثانية .

* * *

(١) ذكر ذلك الأستاذ / محمد عبد الجواد في تقويم دار العلوم ص (٤٢٩) .

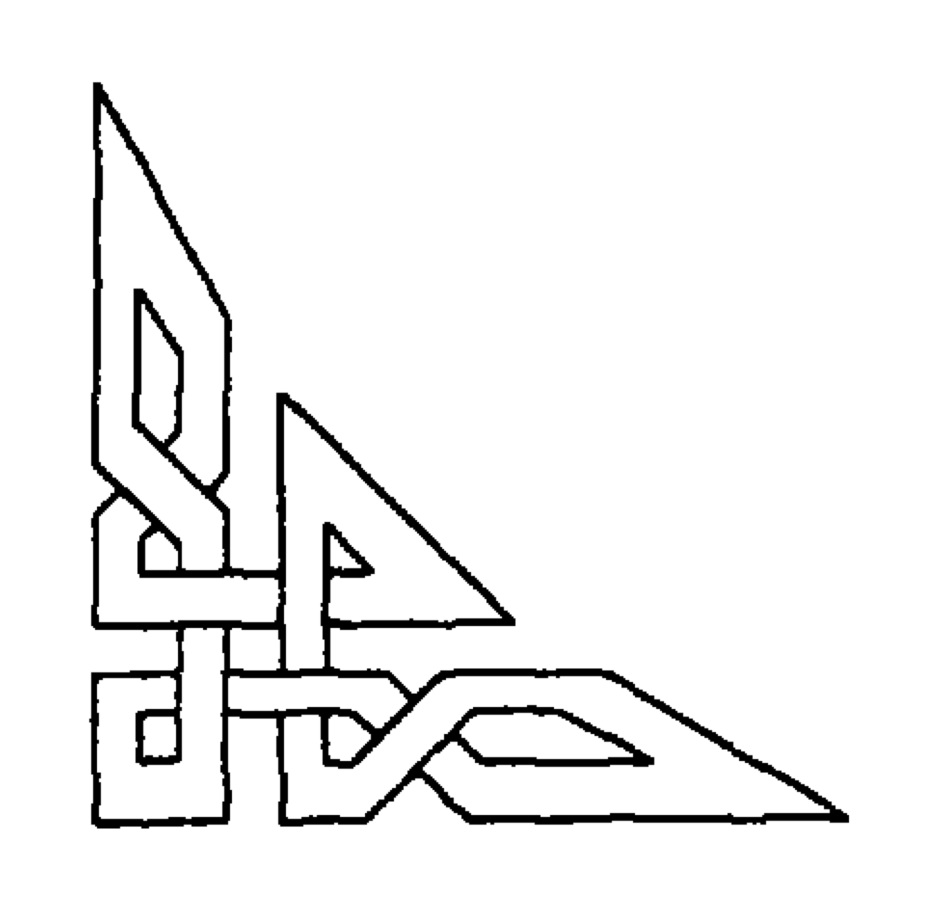
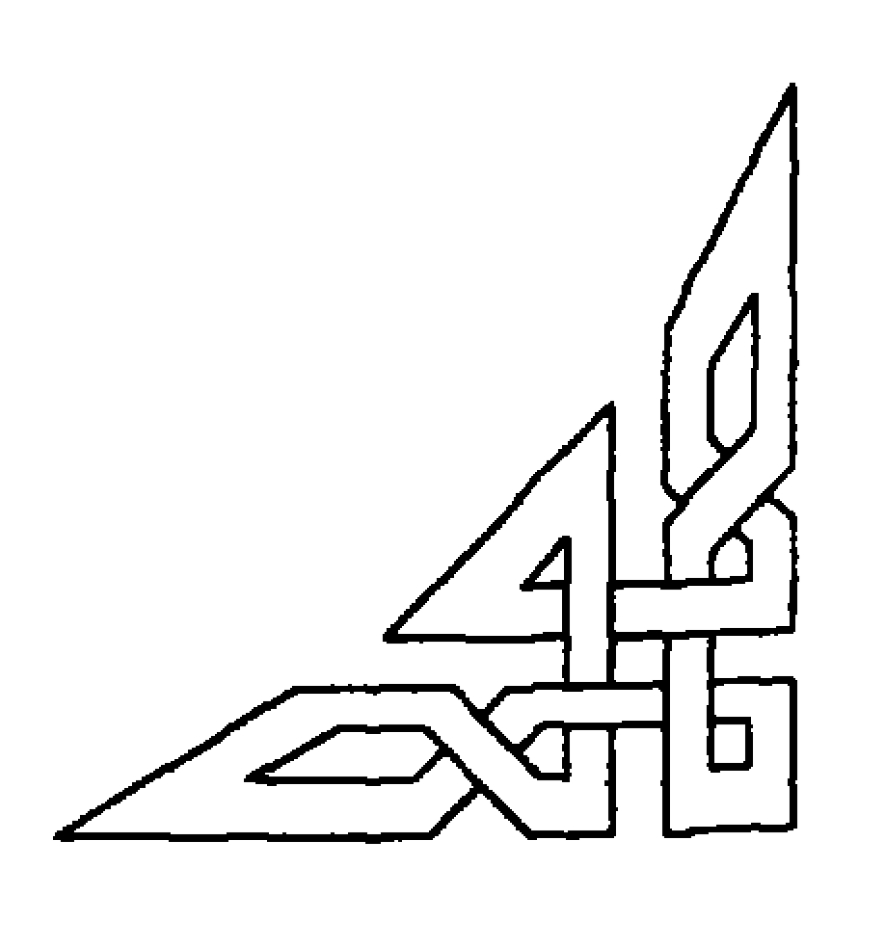
(٢) انظر السيد أحمد العجان : ذكرى الفقيد الخالد مجلة الرائد سبتمبر أيلول ١٩٦٥ ع ٩ ص ٦ .

(٣) انظر السابق .

الفصل الثالث

آراء العريان

آراء العريان

لم يكن أديبنا منقطعًا عما يدور في المجتمع من أحداث ، وإنما كان يتصل بها اتصالاً مستمرًا ، ويقتفي آثار الساسة والشعب ليرشدهم إلى طريق الرشاد مقتديًا في ذلك بأبيه ، ثم بإمامه وأستاذه مصطفى صادق الرافعي ، الذي كرّس حياته وأدبه للدين والعربية كما مرّ ، وكان العريان منذ أوائل حياته التعليمية يدعو إلى إصلاح التعليم ، ويكشف عن مساوئه من خلال ما سطّرَه من مقالات وخواطر ، ويؤلف القصص المدرسية الهادفة مع زميلين له للأطفال والناشئة ، ثم القصص القصيرة التي تستمد فكرتها من وحي المجتمع المصري وواقعه ، كما ألّف روايات تاريخية ابتغى من ورائها نصح الأمة ، وتقديم العبر والعظات من تاريخها القديم لتتجنب الزلل ، ولما تحررت بلاده من رجس المستعمر ألف كُتبًا سياسية دعا فيها إلى التحرر والوحدة ، واستغلال خيراتنا بأيدينا مبيّنًا أن الحياد الإيجابي خير سبيل يَقِينَا الانحراف إلى إحدى الكتليتين اللتين تتربصان بنا منذ القديم على اختلاف الأسماء والأشكال .

ومن خلال ما سطره نطّلع على آرائه في مختلف المجالات ، ويمكن ردّها إلى آراء تربوية ، واجتماعية وسياسية ، وسألقي على كل منها ضوءًا يكشف شخصية الأديب وأفكاره بوضوح ، يساعدنا على فهم أدبه ، والغاية التي يسعى إليها من ورائه .

أولاً : آراؤه التربوية .

تولى العريان كما مرّ وظائف في التعليم ، فكان مفتشًا ، ومديرًا لإدارات فنية ، ولمكاتب عدد من وزراء المعارف ، ثم كان من الداعين إلى تأسيس نقابة المهن التعليمية ، ولذا فهو يرى أن من حقه - كواحد من المسئولين المشهود لهم بالفضل والنشاط أن يكشف عن العيوب التي تفشّت في

أجهزة التعليم ، وأن يعرض آراءه التي يرى فيها الخير ، وكان إلى ذلك شديد الاحترام لأهل العلم والأدب ، يدعو إلى إكرامهم ، وتأدية حقوقهم التي هي دَيْن على المجتمع ، وكان يطالب بأن يكافأ المعلم الأديب في حياته اعترافًا بما يقدمه من عصارة دمه وثمرة حياته ، ومن وقته ، وراحته ، ويعيد أسباب ضعف التأليف في مصر إلى قلة مكافأة الأدباء على إنتاجهم .

وقد بلغ من تقديره العلم أن أنكر تدني الأدب إلى مستوى العامة أو أشباه العامة ، فهؤلاء لا يصلحون لأن يحكّموا في الأدب والأدباء ، يقول في ذلك بمناسبة الإعلان عن مسابقة لسلسلة اقرأ :

«حقيقة الأدب الرفيع أن يكون إلهامًا ، ووحيًا خالصًا تتنزل به الحكمة على الطبقة الممتازة من أهل الفكر ، والبيان ، لتوحي بهم ، وتعلم ، وترفع الشعب فوق قدره ، وتسمو بوجدانه ، ونفسه ، فإخضاعه لحكم العامة، وأشباه العامة من القراء بأمثال هذه المباريات نزول به عن موضوعه ، ونزول بأهله عن مكانتهم ، بل لعل أرفع الأدب مكانًا وأعلاه موضعًا هو أبعده عن رضا العامة ... [لئلا] تقود الجماهيرُ الأدباء ، وكان حق الأدباء أن تكون لهم القيادة» [١] ذلك لأن القراء يَحْكمون لمن كثر ترداد اسمه ، وقد خبر ذلك حينما قَصَر توفيق الحكيم نشاط مصر الأدبي على عشرة ، ثم سأل من هؤلاء ؟ فكان رأي القراء لمن ذاع اسمه وكثر ترداده ، وفي هذا دليل على أنهم لا يصلحون لأمثال هذا التحكيم ، لأن فيه جناية على الأدب والأدباء [٢] .

وكان يرى أن العلم ضروري لأبناء الشعب ضرورة الماء والهواء ومن حقهم أن يطالبوا به ، ومن واجب الدولة أن تستجيب لهم مهما كانت

---

(١) ديمقراطية الأدب : الثقافة س ١٩٤٤ ع ٢٦٣ ص ٢٣ وانظر لتحكيم العامة : الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٢ ص ٢١ - ٢٢ بعنوان نحن الأدباء ، والثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٢ ص ٢١ - ٢٢ بعنوان أدباؤنا العشرة و ع ١٨٣ ص ١٩ بعنوان مسابقة و ع ١٩٢ ص ٢٠ - ٢١ بعنوان حكم القراء .

(٢) انظر السابق .

وسيلتهم في الطلب .

أما آراؤه التي تتعلق بإصلاح جهاز التعليم فهي :

١- المناهج التعليمية :

أخذ العريان ينادي بضرورة إصلاح طرق التعليم وأنظمته ، والمناهج الدراسية ، ولا سيما ما يتعلق منها باللغة العربية ، وقد حضر المؤتمر الثقافي في لبنان تطوّعًا علّه يدلي بآرائه في طرق التدريس ، وكان يطبق منها ما يراه صالحًا على غفلة من رقابة المفتش ، ويعمد إلى القصة كإحدى طرقها يلقيها على تلاميذه إيمانًا منه بأن الطفل ولوع بها ولذا فهي من أفضل الطرق التعليمية ، وقد لاقت القصص المدرسية التي ألفها مع زميلين له تأييدًا كبيرًا من المربين والتلاميذ ، إذ أحدثت مذهبًا جديدًا في التدريس ، وحبّبت إلى الطلاب المطالعة بعد أن كانوا ينفرون منها ، وحينما طلبت منه الوزارة تأليف كتب التربية الدينية ، واللغة العربية للمرحلة الابتدائية عمد وزملاؤه المؤلفون معه إلى التجديد في طرق تدريسها فألفوا كتاب القراءة للصف الأول ، وآخر يرشد إلى طريقة تعلمه ، وأدخلوا القصص في الكتب كوسيلة لتعليم المادة العلمية حتى في كتب التربية الدينية .

وكان يعيب على المناهج ازدحامها بالمعلومات الكثيرة التي لا يستطيع الطفل أن يتقنها فيعمد إلى ملخصات يستظهرها ، ويظنّ بذلك أنه قد حصّل العلم كله ، ثم يتقدم آخر العام إلى الامتحان ، وينسى بعده معلوماته هذه ، فلا فائدة تذكر منها بعدُ في تأهيله للحياة ، يقول في ذلك :

«مدارسنا الحديثة تحسب أنها إنما أنشئت ليتعلم فيها التلميذ كل ما يجب أن يتعلم ، فجعلت همها أن يزدحم برنامجها بالمواد الدراسية المختلفة ، ثم تنتهي كل هذه الموسوعات إلى ملخصات يستظهرها التلميذ ليجوز الامتحان وقد ازدحم رأسه بالعناوين والرموز والمصطلحات الموجزة المقتضبة ، فيزعم هو

نفسه أنه قد حصّل من العلم كل ما ينبغي أن يحصّل» [١] .

وهو إلى ذلك يعدّ القراءة الوسيلة الأساسية لتحصيل المعارف ، ولذا وجب الاهتمام بها منذ المرحلة الأولى في المدرسة الابتدائية ، أما كتاب المطالعة فيجب أن يشمل من المعارف ما يتعلمه التلميذ من المواد الأخرى الجغرافية والتاريخية والعلمية وغيرها ، وذلك حتى لا يبقى مجرد وسيلة لتعليم اللغة مجردة عن المعاني والعلوم التي يحويها ، وحتى لا يبقى لدى الطالب إلا مادتان : مادة عملية ، ومادة اللغة التي يضمها كتاب المطالعة ، وفي هذا يقول :

«ألاّ يكون العلم علمًا إلا أن يختص بكتاب وعنوان ؟ وماذا يمنع أن يكون كتاب المطالعة هو كتاب الجغرافيا ، وكتاب التاريخ ، وكتاب الأدب ، وكتاب الحياة ؟ وماذا يمنع أن نعّود التلميذ أن يتعلم الجغرافية والتاريخ والأدب من كتاب [المطالعة] ليعرف أن «المطالعة» هي السبيل إلى كل أنواع المعرفة ، وإن اختلفت أسماؤها ، ومسمياتها ؟ وماذا يقرأ التلميذ في كتاب المطالعة إن كان لكل فن من فنون المعرفة كتابه ، وعنوانه ؟ هل يقرأ فيه إلا فصول القول ، وزخرف اللفظ ، وبريق العبارة ؟ أتراه يعرف بعدُ أن للمطالعة فائدة تغريه بها وتدعوه إليها ؟ ... العلم هو القراءة ، والمدرسة هي الكتاب ، ... هكذا ينبغي أن يعرف تلامذتنا ومعلمونا ، والقائمون على شئون التعليم منا ، وأن يرسموا نهجهم على هذا الأساس» [٢] .

ولهذا فقد امتدح «على مبارك» الذي نادى بما يدعو إليه منذ خمس وسبعين سنة في كتابه «كتاب طريق الهجاء والتمرين على القراءة في اللغة العربية» الذي سماه أحمد أمين «أول ثورة على التربية» ودعاه العريان «آخر

---

(١) رأي في تعليم اللغة : مجلة صحيفة دار العلوم س ١٩٤٣ ع (١ و ٢) مشترك ص ٧٦ .

(٢) ثورة على التربية : الثقافة س ٩٤٣ ع ١٨٣ ص ١٩ ، وانظر لذلك : رأي في تعليم اللغة : صحيفة دار العلوم ع ١ و ٢ ص ٦٧ .

ثورة» لأنه لم ير بعده كتابًا يقوم مقامه [1] .

ونجاح المدرسة - برأيه - يتوقف على مدى ما تعد طلابها للتعليم خارجها ، وما تؤهلهم للحياة ، وما تزكي في نفوسهم من شوق إلى التزود من المعارف بالمطالعة المستمرة بعد الخروج منها وإن المرء لا يدرك هذه الحقيقة إلا إذا تعوّد على المطالعة منذ المراحل الأولى لتعليمه ، وحينذاك يدأب عليها بعد خروجه من المدرسة ، ولهذا فهو يتوجه بالنصح إلى وزارة المعارف لتعي هذه الحقيقة ، فتعمد إلى تقييم النتائج ، ثم توجه كلاً من المعلم والتلميذ إلى المطالعة الخارجية ، وأفضل سبيل لتعويده هذا هو قراءة القصص والكتب الملائمة ، والمجلات الطفلية التي تحببه بالمطالعة ، وترقي عقله ووجدانه ، وتعوده على إنشاء مكتبة تنمو معه ، وتمدّه بالجديد من العلم والفكر كلما طالت به حياته ، فإذا هو بعد إنسان له رأي ، وفكر وبيان [2] ، ولهذا نراه يشيد بدعوة وزارة المعارف إلى إنشاء مجلة للأطفال ، ولكي تعم القراءة جميع أبناء الشعب فإن على المكتبات المدرسية أن تنشر رسالتها خارج المدرسة فتعير أبناء الحي من كتبها ما يحتاجونه ويرغبونه ، ثم تعقد بينهم مناظرات ، ويتحاورون فيها ، ويتناقشون حول ما حوته هذه الكتب لتعم الفائدة ، ثم تجري مبادلات بين مكتبات الأحياء جميعًا ليطلع على كل كتاب أكبر عدد ممكن من أبناء الشعب [3] .

ولقد بلغ من حرصه على القراءة أن شكر سلسلة اقرأ دون أن يأخذ بعين الاعتبار ما تنشره من كتب لا تتعارض مع الدين والخلق ، مادامت غايتها هي تحبيب القراءة إلى القراء المنصرفين عنها ، وتمهيد السبيل إلى المعرفة

---

(١) من تاريخ هذا القول . انظر لهذا : الثقافة س ٩٤٢ ع ١٩٣ ص ٢٠ .

(٢) انظر الرسالة س ١٩٣٥ ع ١٢٢ ص ١٨٢ .

(٣) انظر الرائد س ١٩٥٦ ع ٢ ص ٧ أقصى الطاقة .

بما تنشره من معلومات قد يرجع الباحث إلى مظانّها الأولى [1] .

والعريان بعد ذلك يدعو منذ أوائل حياته التدريسية إلى ألا يلتزم المعلم والتلميذ بكتاب معين تقرره الوزارة ، بل أن يترك أمامهما الباب مفتوحًا ليبحث كل منهما عن المادة العلمية حيث يجدها في أي كتاب من المكتبة العربية ، وذلك حتى يتلافى سأم التلاميذ من الكتب عامة ، هذا السأم والكراهية سببهما لهم تضخم المناهج ، فأهملوا الكتب كلها ، ولهذا فهو يندد بنظام اللامركزية ، ويعدّه عبثًا وضلالاً ، مادام أنه يفرض على كلّ من المعلم والتلميذ كتابًا بعينه ، ولا يسمح له أن يستبدله بغيره [2] ، وقد تطورت لديه هذه الفكرة فإذا به يدعو في أواخر حياته إلى إصلاح المناهج ، وينصح الوزارة بألاّ تقرر كتابًا بعينه للمادة المدروسة يجبر المعلم والتلميذ على استعماله دون سواه ، وإنما يجب أن تختار عدة كتب تلائم المنهاج المقرر ، ثم تدع كل مدرسة أو مدينة تختار ما يلائمها ، ثم تضيف إليه كل كتاب مفيد ليستمر النشاط التأليفي ، يقول في ذلك :

«وإنما [علينا] ... أن نفرض المناهج المقررة للتدريس في كل صف من كل مدرسة في وقت مبكر ، ثم ندعو المعلمين وغيرهم من ذوي الأهلية في التأليف ليؤلفوا ما شاءوا على هذه المناهج ، ثم نفحص كل ما يظهر من هذه المؤلفات ، فننوّه بالصالح منها ، ونُعْلن عن هذا التنويه في قائمة عامة ترسل إلى المدارس جميعًا ، ثم ندع لكل مدرسة ، أو كل مدينة ، أو كل مديرية تعليمية أن تختار من هذه الكتب الصالحة ما تراه لتلاميذ مدارسها ، وينبه التلاميذ في كل مدرسة إلى الحصول عليها يشترونها حيث تباع ، ويمكن أن يضاف إلى هذه القائمة كل كتاب صالح يظهر بعد ذلك ليستمر النشاط

---

(١) انظر الثقافة س ١٩٤٤ ع ٢٦٣ ص ٢٢ بعنوان اقرأ .

(٢) انظر الثقافة س ١٩٤٢ ع ٢٠٧ ص ١١ : اللامركزية ، وانظر لذلك : الثقافة ع ١٨٢ ص ١٨ وع ١٩١ ص ١٨ ، وع ١٩١ ص ١٨ - ١٩ بعنوان يا نصيب .

التأليفي» [1] .

كما يتعرض بالنقد لطريقة إجراء المسابقات الوزارية لتأليف الكتب المدرسية ، ويرجع إليها أسباب كراهية الطفل للمطالعة ، والبحث العلمي ، وينبه الوزارة إلى أن معظم الكتب المدرسية المتداولة في حاجة إلى تجديد لأنها إن أحسنت اختيار الكتب للتلميذ المستجد استطاعت أن تتغلب على ضعف الثقافة في البلاد بتحبيب الطفل القراءة ، ذلك لأن «الكتاب الأول للتلميذ الأصغر هو الدرس الأخير للرجل الكبير» [2] .

٢- *اللغة العربية*

وكان إلى ذلك يرى أن اللغة العربية في هذا القرن خير منها في القرن الماضي ، ولكنه مع ذلك يحس بضعفها على ألسنة الطلاب في المدارس ، ويرجع ذلك إلى أسباب ستة هي :

أ- طبيعة اللغة نفسها .

ب- المعلم .

جـ- برامج تعليمها .

د- الامتحانات .

هـ- التفتيش .

و- المكتبة العربية .

فالبرامج يجب أن ترتب وتوزع على سني الدراسة لا من حيث الكم ، وإنما من حيث الكيف والطريقة وينبغي أن تقدم اللغة العربية للتلميذ نصوصًا متدرجة به في معناها وأسلوبها ، ويتحدد المعنى لديه لا بالشرح المعجمي ، وإنما بتكرار وروده في نصوص ، كما يجب الابتعاد عن تقسيم اللغة إلى فروع جزئية من نحو وصرف ، وأدب وبلاغة ؛ لأن في ذلك مجافاة للطريقة المثلى

---

(١) الرائد س ١٩٦٢ ص ٢٩ : الكتاب المدرسي بين التقييد والإطلاق .

(٢) الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٨٠ ص ١٨ : أزمة القراءة .

في تعلمها ، وأحسن طريقة لذلك أن نعلمها كما تعلمها الإنسان الأول ، وكما يتعلمها الطفل ، فآدم أول مخلوق على وجه الأرض رأى ما حوله من مشاهد الطبيعة ، وسمع أصواتها ، وأصوات كثير من المخلوقات ، ومرت فترة طويلة على سماعه إياها استطاعت ذاكرته خلالها أن تتمثل هذه المسموعات ، فلما وجد الحاجة إلى النطق وجد ثروة لغوية تكلم بها ؛ وكذلك كان أسلافنا الأوائل يحلّون على الأعراب ضيوفًا يستمعون إلى ما عندهم من أشعار ، وخطب ، وأمثال ، ثم يعودون بذخيرتهم اللغوية ؛ وما قوة بيان البارودي ، وحافظ ، وأضرابهما إلا من إطلاعهم على أمهات الكتب العربية ، وفي ذلك ما يشبه رحيلهم إلى البوادي للتعلم ؛ وكذلك شأن الطفل يلقف ما سمعه ممن حوله ، حتى إذا ما صار بحاجة إلى الكلام عبّر بما سمعه ؛ ولم يتعلم هؤلاء اللغة مفردات وقواعد نحوية ، وعروضية ، ولكن هذا لا يعني أن هذه القواعد يجب أن تهمل ، وإنما على المعلم أن يقدمها للتلاميذ بعد أن يكون لسانهم قد استقام وقدروا على التعبير السليم ، وهذه هي الغاية الأساسية من اللغة ، يقول في ذلك :

«فتعليم اللغة هو عمل طبيعي ... بدأته الطبيعة منذ هبط على هذه الأرض أول آدمي ، عمل طبيعي أعانت عليه عناصر مختلفة من عناصر الطبيعة ... [كانت أذنه تسمع مرغَمة زمنًا طويلاً استقرّ فيه ما سمعه في واعيته] فلما وجد الحاجة بعد وجد ذخرًا لغويًا كثيرًا مما أفرغت أذنه في لسانه ..، من شدو البلبل ، ومن خرير الماء .. تلك هي اللغة الأولى التي لقفها الإنسان الأول عن الطبيعة ، وذلك كل متنها ومنطقها وبلاغتها ... ومن لغة هذه الكائنات الطبيعية الناطقة والخرساء كانت لغته ...

واللغة هي اللغة ، وإنما نعلمها لغاية واحدة هي أن ننشئ طبقة من أبناء الأمة ، وبناتها على التعبير الصحيح ، والمنطق الفصيح قولاً وكتابة ، ... فأين يبلغ من ذلك هذا التفريع الذى نفرّعه ... فنسمّى إنشاءً ، ونسمي أدبًا ،

ونسمي قواعد ، ونسمي مطالعة إلى أسماء أخرى لا تؤدي في آخرها إلى غاية مما ننشد ...

والتعبير باللغة هو وليد الحاجة ... فما لم تدع حاجة فلا تعبير ولا بيان ، ولا لغة ... [و] اللغة وحدة معنوية لا فروع لها في الطبيعة ... وإنما هي التعبير الذاتي ، أو المنقول باللسان أو بالقلم ... فكل تفريع لهذه الوحدة يبعد بها عن الغاية ، ولا يحقق غرضًا ... ولست أقصد بذلك إهمال النحو والأدب ، وقواعد اللغة ، ولكن هذا يجب أن يكون بعد تعلم التعبير» [1] .

ويتم تعليم الطفل لغته بأن نتكلم معه بالأساليب العربية الفصيحة ، ثم نطلب منه أن يتكلم ، ونقرأ له قصصًا تزيد معجمه اللغوي وعباراته يومًا بعد يوم ، فإذا ما بلغ مرحلة ناضجة نلقّنه حينذاك قواعد اللغة لا على أنها قواعد جديدة ، ولكن على أنها جزء غير مسموع من الكلام الذي سمعه ونطق به ، وهذا من شأنه أن يوصلنا إلى مبتغانا [2] .

وهذه النظرة إلى تعلم الإنسان الأول اللغة كما يراها العريان لم تثبت ثبوتًا علميًا دقيقًا ، إذ هي كما يقول الدكتور محمد المبارك من قبيل البحث فى الغيبيات التي لا يمكن التثبت من صحتها ، إذ بيننا وبينها عدة قرون ، ثم إن «النظرية الطبيعية التي حاول أصحابها أن يعللوا فيها نشأة أصول الألفاظ الأولى بمحاكاة الطبيعة لا تكاد تثبت للحجة والدليل ، ولا تصدق إلا في القليل النادر من ألفاظ كل لغة ... ولو صحت هذه النظرية لما تعددت اللغات ولتماثلت ، أو تشابهت على الأقل ... فإن أصوات الطبيعة واحدة مع أن تلاقي اللغات في ألفاظ واحدة ، وتشابه الألفاظ الدالة على معان

---

(١) مجلة صحيفة دار العلوم ١٩٤٣ عدد مشترك ١ و ٢ ص ٦٧ - ٨٠ : رأي في تعليم اللغة ، وما بين قوسين كهذين [...] متصرف في أسلوبه .

(٢) انظر الرسالة س ٩٣٧ ع ٢١٠ ص ١١٣٠ الصنف في اللغة العربية ، وانظر ما قاله في تفريع اللغة : الرسالة س ١٩٣٥ ع ١٢٢ ص ١٨٠٠ : القبَس للإنشاء العربي ، وفيه يذكر أنه طبّق هذه الطريقة ونجح فيها .

واحدة [١] لا يقع إلا في القليل النادر ... وإذا وقع فلا بد غالبًا من بعض الاختلاف» ، ولو رحنا نبحث عن معنى قوله تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا عالم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ [٢] . لرأينا أنه سبحانه يصرّح بأنه علم آدم أسماء المسميات كلها ، وهذا البيضاوي في تفسيره يقول : «وعلم آدم الأسماء كلها إما بخلق علم [٣] ضروري بها فيه أو إلقاء في روعة ولا يفتقر إلى سابقة إصلاح ليتسلسل ، والمعنى أنه تعالى خلقه مستعدًّا لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات ، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها ، وأسماء وأصول العلم ، وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها .

ثم عرضهم على الملائكة : الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمنًا ، إذ التقدير أسماء المسميات .

واعلم أن هذه الآيات تدل على ... أن اللغات توقيفية ، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم ، أو تعميم ظاهر في إلقائها على المتعلم مبينًا لها معانيها ، وذلك يستدعي سابقة وضع ، والأصل ينفي أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم فيكون من الله سبحانه وتعالى [٤] .

(١) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) سورة البقرة : ٣١ - ٣٢ .

(٣) أي اسم علم يدل عليها وتعرف به .

(٤) ناصر الدين البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٢٤ - ٢٥ ، ولقد ذكر الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية في حديث إذاعي له في إذاعة القرآن الكريم ردًّا على سؤال وجه إلى هذه الإذاعة حول تفسير هذه الآيات ، أن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يخلق بشرًا قالت الملائكة إنه لا يخلق أعلم منا فخلق الله آدم وعرض عليه الذوات قبل أن يخلقها على الأرض وأنبأه بأسمائها ثم عرضها على الملائكة وطلب منهم أن يخبروه بأسمائها ، فلما لم يعلموها أنبأهم بها ......=

فسواء إذا أعلم الله آدم هذه الأسماء تعليماً أم ألقاها في روعه بعد أن جعله مستعدًا لإدراكها ، ثم ألهمه إياها ، ثم أنبأها آدمُ الملائكةَ فإن هذا يدل على أنه سبحانه علم آدم أسماء الذوات والمعاني ، أو علّمه ما وجد في عصره مما يحتاج إليه في حياته ، ولا مانع بعد أن نقول : إن البشرية استحدثت ألفاظًا أخرى حاكت في بعضها الطبيعة واشتقت بعضها الآخر من الألفاظ ، ومن هنا كان الاختلاف الذي نراه في لغات أهل الأرض ، وهذا معناه أن أصوات الطبيعة ، وكثيرًا من المخلوقات لم يكونا المعلم الأول للإنسان الأول .

والعريان بعد ذلك يقول : إن الإنسان الأول لم يكن بحاجة إلى أن يسمع أو يرى ، ولكنه كان يسمع مرغمًا ، واستقر في واعيته فترة ، فلما وجد الحاجة كان لديه حصيلة لغوية استمدها من شدو البلبل ، وخرير المياه ، وأقول : كيف خلق الله آدم وزوجه ، ولم يجدا الحاجة إلى النطق قبل أن ينزلا إلى الأرض ؟! وكم مرّ من الزمن وهما صامتان حتى استقر في ذاكرتهما ما استقر ثم نطقا به ؟ ! ...

برأيي لو أن العريان اكتفى بطريقة تعلم الطفل لغته ممن حوله ثم محاولته تقليدهم كمثال للطريقة الناجحة في تعليم اللغة ، أو أضاف إلى ذلك أخذ الرواة لغتهم عن الأعراب الفصحاء ، وكذلك البارودي وحافظ من الكتب القديمة لكان أثبت لفكرته ، وأصح برهانًا لرأيه الذي ارتآه لتعليم العربية .

٣- المعلم

وكما كان محمد سعيد داعية إلى إصلاح المناهج والطرق كان يدعو إلى حرية المعلم ، ويغضب من شدة التضييق عليه إلى الحد الذي لا يسمح له بتجديد الطرق التعليمية بتنبيه تلاميذه إلى كتب صالحة يقرؤونها ، ولهذا نراه

= آدم مسميًا كل شيء باسمه ، وفي هذه دلالة على أن الله تعالى علم آدم الأسماء ، ولم يستمدها جميعًا من محاكاة الطبيعة والمخلوقات . الحديث الإذاعي في ١٩٧٦/٣/٢ .

ينبري للدفاع عنه حينما يتهمه أحمد حسن الزيات ، ويعدّه المسئول عن فوضى الأخلاق ، والأذواق لأنه لا يعمل بإخلاص ، فيقول : «إن معلم العربية في مصر لا يكاد يعرف له رأيًا يدعو إليه في الأمة لأن عواطفه مكبوتة ، ولا يكاد يعرف له منهاجًا يسلكه لأن المنهاج رسمته الوزارة ، ولا يكاد يعرف له طريقة في الفن يتبعها لأن الطريقة حددها [المفتش] ... ولا يكاد يشير على تلميذه بكتاب يقرؤه لأن التلميذ لا ينبغي أن يقرأ كتابًا إلا أن يكون من تأليف «عمر أفندي» فمن أين لمعلم العربية أن يجد الوسيلة لتربية الذوق الحر وتقوية الخلق القويم ، وتمرين اللسان الفصيح» [١] .

هذا في مدارسهم ، أما على الصعيد الوطني والقومي والعالمي فإننا نراه يتجه إلى المعلمين يدعوهم إلى المشاركة في القضايا التي تتعلق بأحداث الأمة ولا سيما قضية الوحدة العربية . وذلك عن طريق المحاضرات التي كان يلقيها في المؤتمرات ، كما يعرّفهم على المهمة الملقاة على عاتقهم تجاه مصر والبلاد العربية كلها ، والدور الذي يجب أن يقوموا به لردّ مؤامرات المستعمرين ، كما يطالبهم بضرورة تعريف التلاميذ على أمجاد أمتنا الخالدة وينصحهم بألاّ يعطوا معلوماتهم مجردة ، بل أن يبثوا فيها روح الإيمان والمسئولية [٢] بعد أن يخلّصوها من شوائبها التي دسها المستعمر بين صفحات الكتب ، وينبّههم إلى ضرورة الوقوف صفًّا واحدًا أمام النعرات الطائفية والإقليمية ، والعنصرية ، والأحزاب الهدّامة المفرّقة ، والدعوات الفكرية والمذهبية التي عمل المستعمر وأعوانه على نشرها بين صفوفنا ليوهنوا من عقائد أبنائنا ، ويحطموا مثلهم ويضعفوا من عزائمهم ، ويشتتوا شملهم ، كما طالبهم بضرورة العمل المتواصل لنشر رسالة هذه الأمة الخالدة حتى يعود إلى العالم الخير والسلام ، ذلك لأن أمتنا أمة جهاد وكفاح ، وعلوم وحضارة ، ومنها

---

(١) الثقافة ع ٢٢٥ ص ٢٣ - ٢٤ ، وانظر لذلك أيضًا : الرسالة ع ٢١٠ ص ١١٣٠ .
(٢) انظر الرائد س ١٩٥٦ ع ٥ ص ٣١ .

اقتبس الغرب حضارته ، ثم استعلى علينا بها [١] كما حضّهم على التدريب العسكري ليكونوا روادًا داخل المدرسة وخارجها .

وإذا رحنا نتّبع نداءاته إلى المعلمين نراه في الخمسينات يغيّر مسيرته ، ويدعو إلى الكفاح والوحدة ، على حين كان فيما سبق من فترات يطالب بإصلاح المناهج والطرق التعليمية ، ويطالب بحرية أكثر للمعلمين ، والحقيقة أن هذا ينبع من نفس واحدة ، نفس تحب الإصلاح وتنشده ، ثورية ، لا تفتأ تنادي بما تؤمن به ، وعندما تحققت الأماني بجلاء المستعمر ، واستطاع أن يسير خطوة في الإصلاح التربوي اتجه إلى المعلمين يدعوهم إلى العمل من أجل الوحدة ، ومن أجل نشر الرسالة الإسلامية العالمية ، مما سيتضح بعدُ بإذن الله حين أتحدث عن آرائه السياسية .

- *أنظمة المعارف .*

مرّ معنا كثير من أنظمة المعارف المتعلقة بالمعلم والمناهج والطرق التدريسية ، وهو إلى ذلك كله ينادي بإجراء إصلاحات عدة تكفل حياة هانئة للمعلمين والطلاب ، فهو يدعو إلى الإشراف على الطلاب الغرباء الذين يقدمون القاهرة طلبًا للعلم ، فتسوء صحتهم ، وأخلاقهم ، ويلاقون من المتاعب ما يؤثر على دراستهم ، بل على حياتهم كلها ، ويبين أن على وزارة المعارف أن تعرف كيف يعيش كل واحد منهم لتساعدهم في توفير ما يحتاجون إليه . لأن واجبها لا يقتصر على ما تقدمه إليهم من معلومات في حجرة الصف .

ويوضح معنى مجانية التعليم ، وكيف أنها حق للفقراء لا منحة للأغنياء، ويسأل الوزارة أن تقدم هذه المساعدات للطلاب الفقراء وألا تجعلها مكافأة ينالها الطالب المتفوق الصغير السنّ ، لأن هذين الشرطين لا يحققهما غالبًا إلا غني يدخل المدرسة في سنّ مبكر ويستعين بالدروس الخصوصية مما لا يتيسر

---

(١) انظر أحاديث في التوجيه القومي ، تقديم العريان ص هـ ، و ، والرائد يوليو تموز س ١٩٥٦ ص ١٧١ .

لفقير ، فيحرم من حق التعليم ، وفي هذا انحراف عن الغاية المرجوة من المساعدة المالية (١) .

وحينما قرأ في كتاب المطالعة الإنكليزية ما ترجمته : «في سنة ١٦٤١ أرسل الخليفة عمر جيشًا إلى الاسكندرية ، وقد دمّرَ القائد واسمه - عَمرو - كثيرًا من المؤسسات ، وأحرق مكتبة الاسكندرية ، واستغرق إحراق الكتب جميعًا ١٨٣ يومًا (٢) ، ثم اطلع على ما أعلنته الوزارة من منعها تدريس الكتب الأجنبية التي تثير الأحقاد الدينية والسياسية ، أشاد بخطوتها هذه ، ونبهها إلى أن هذا لا يكفي بل عليها أن تمنع كل كتاب «يشتمل على عبارات وموضوعات تشيد بمذهب أو دين أو إنسان لا تقرّ الإشادة به الديانة المصرية أو القومية المصرية ، فلقد يكون في التنوية بمذهب من المذاهب أو دين من الأديان ، أو إنسان من الناس أثر في عقل الطفل الناشىء هو أبعد مدى وأعظم خطرًا من كل العبارات ، والموضوعات التي من شأنها أن تثير الأحقاد الدينية أو السياسية فتلك (تثير) وهذه (تخدّر) و (الثورة) دفاع ولكن التخدّر استسلام» (٣) ، ثم طالبها بأن تحكم إشرافها على الكتب العربية والأجنبية ، لئلا تجني على عقل التلميذ الذي يحار في صحة المعلومات المتناقضة التي تقدم إليه من الكتب العربية والأجنبية ، وفي ذلك أيضًا من التجني على تاريخه العريق ، وعلى خلقه القومي ، ولذا فمن واجبها أن تنشر التعليم بين صفوف أبنائها بعد أن تخلصه مما أفسده المستعمر من حقائق علومنا (٤) .

ولما أعلن الدكتور هيكل - وكان وزيرًا للمعارف قبلُ مرتين وهو إلى

---

(١) انظر جريدة البلاغ س ١٩٤٨ ع ٨٢٨٧ ص ٣ و ٥ .
(٢) الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٨٣ ص ١٩ .
(٣) الثقافة ١٩٤٢ ع ١٨٩ ص ٢١ .
(٤) انظر الرائد س ١٩٦٣ ع ١ ص ١٢ .

ذلك من قادة الفكر - عن رأيه في وضع ابنتيه في مدرسة أجنبية ليسرع بهما إلى التطور المنشود استاء العريان من هذا ، وتساءل عما قدمه هذا الوزير لإصلاح مدارس بلاده ، ثم قال : «لقد كان عليه في ذلك واجبان : واجب الوزير الذي يملك السلطة ، وواجب الأديب الذي يملك الرأي فأين كان رأيه ذاك من سلطة الوزير ورأي الأديب ... ماذا يفعل كبار الفنيين في المعارف ، وقد آثروا المدارس الأجنبية لتعليم بنيهم وبناتهم ... ومن حقهم أن يروا الرأي فيُسمع لهم» [١] .

وهكذا رأينا العريان يسهم في تبيان المفاسد التي تفشت في أنظمة التعليم سواء منها ما يتعلق بالوزارة أم بالمناهج ، أم بالمعلمين ، ولقد رأينا دعواته الإصلاحية تكثر في أوائل الأربعينات حينما كان لا يزال معلمًا ، أو موجّهًا وهذا يدل على سداد رأيه وصواب فكره ، وصدق نيته في إصلاح هذه الأمة التي تفشى فيها من المفاسد ما عمل المستعمر وأعوانه على زيادتها ، ورأيناه في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات يتجه إلى تنفيذ ما كان يدعو إليه وذلك حينما أسندت إليه مهام ذات أثر في توجيه الرأي في الأمة ، ولا سيما في نقابة المعلمين ، ووزارة المعارف [٢] .

ثانيًا : آراؤه الاجتماعية .

يعد محمد سعيد العريان من المصلحين الاجتماعيين الذين يتخذون الأدب مطية لعرض آرائهم التي يبتغون من ورائها خير الأمة ، ونفع العباد ، وتبسط لنا أقواله الإصلاحية صورة للمجتمع المصري في ذلك الحين ، مجتمعًا يتخبط في سيره بين مواريثه العريقة ، وما تأثر به من مفاسد الحضارة الغربية، وما انتشر فيه من فقر وجهل وعادات سيئة ، مما دفع بالمصلحين لأن يقولوا

---

(١) الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٨٤ ص ١٨ .

(٢) تعمدت ذكر السنة التي صدر فيها الرأي في هامش كل صفحة ورد فيها ، ليتبين تطوره في آرائه ، وانظر في خواطره الثقافية ما ذكرته عن آرائه التربوية .

قولهم ، ويثوروا في وجهها معلنين سخطهم على هذه الأوضاع وساعين لإصلاحها ، وتنبيه الرأي العام إلى أضرارها بما تسطره أقلامهم في المجلات والصحف غير مبالين بلوم اللائمين . فالعريان يعلن سخطه في مجلة الثقافة ويقول : «هذا رأيي وعليّ تبعته وحدي ، فمن سرّه فهو لي صديق ، ومن ساءه فليس أحب إليّ من أن يجلو لي رأيه ، ويعرض برهانه لتصحيح رأي ، أو تعديل فكرة ، أو تحقيق خبر» (١) .

ويرد على من أنكر عليه خوضه في جميع مجالات الحياة ، ودعاه إلى التخصص في فرع واحد مبينًا أنه أديب ، وأن الأدب ، والفن ، والخلق ، والدين والاجتماع والسياسة أمور تعني شيئًا واحدًا لأنها تؤدي غاية واحدة تسعى إليها (٢) ، وإلا فما له وللأدب ، وماله وللصحافة .

وكان في دعوته الإصلاحية يسير وفق مذهب اجتماعي بيّنه فيما خطته يمينه من مقالات وخواطر ، وفيما ألقاه من ندوات ، يقول في معرض الحديث عنه : «إننا اليوم في فترة من التاريخ توجب علينا أن يكون لنا مذهب اجتماعي ثابت الأساس محدد الغاية لنمضي فيما نعالج من شئون الإصلاح على نور وبصيرة ، وإن أهم مشاكلنا الاجتماعية اليوم هو الفقر ، ولا سبيل إلى علاج هذه المشكلة إلا أن نعرف المذهب الاجتماعي الذي نذهب ، فإذا اتفقنا على الأساس فلن يضيرنا شيئًا أن تختلف الوسائل» (٣) .

أما هذا المذهب الاجتماعي الذي دعا إليه لعلاج هذه المشاكل فهو النظام الإسلامي الذي شرعه الله للبشر وطالبهم بأن يقوموا بتنفيذه قولاً وعملاً (٤) ، وهو يوضحه بمثل قوله تحت عنوان رسالتنا الكبرى : «هذه

---

(١) الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٧٦ ص ٢٠ .

(٢) انظر الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٩٠ ص ٢١ .

(٣) الثقافة س ١٩٤٤ ع ٢٦٨ ص ٢٢ - ٢٣ . وانظر كذلك : الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٩٠ ص ٢١ . بعنوان هذه الباب ، وما تلاه .

(٤) انظر الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٩٤ ص ١٨ .

الرسالة الكبرى هي التي تحقق معنى الإنسانيـة الكاملة للبشرية كلها ... إننـا نهـدف إلى نظام اجتماعي يحقـق للفـرد كفايته في حاجياتـه ، ويحقق للجميع سلامًا وأمنًا وطمأنينة ... ذلك النظام الذي شرعه الله دينًا على لسان موسى وعيسى ومحمد متطوريـن تطور الحقيقـة ليحقق للإنسانيـة كلهـا الأمن والسـلام والرفاهية» (١) ، وبمثـل قوله في معرض تعليقه على الأنظمـة الدولية الثلاثة : الإسـلام والرأسمالية والشيوعية ، تلك التي ترمي إلى الحريـة والرفاهية : «لا أقصـد إلا هـذه الأهـداف : حرية ، سيـادة ، كرامـة ، إنسانيـة ، رفاهيـة للعيش ... ولكني لست محتاجًا أن آخذ مذهبًا من اليمين ، ولست محتاجًا أن آخذ مذهبًا من الشمال لأن عندي مذهبي ... أنا أقوى قوة بديني ، بشرية تحاول مجتهدة فتخطىء في اليمين ، وبشرية مجتهدة تحاول فتخطىء في الشمال ، فأنا لا أحـاول محاولة بشرية ، دستوري حـدده الله ... ومذهبـه مـذهبي ... الدين الإسلامي ككل دين تطور اجتماعي محدد بقانون سماوي ... نظام يغنينا وقد وُضِع وطُبق ... سائرون إلى حيث أراد الله لإنشاء مجتمعٍ كريم كما يريده الله» (٢) .

ويبين أنه حينما ينسب آراءه إلى الإسلام فإنه لا يحط من قدرها كما يظن بعض الجهلة أو المأجورين (٣) .

من هذا كله يتبين كما ذكرت أن النظام الذي كـان يدعو إليه لعلاج المجتمع من أدوائه هـو النظام الإسلامي ، وقد برزت دعوته هـذه في مواطن عدة أهمها :

---

(١) أحاديث في التوجيه القومي ص ٣٣٤ ، والنظام الذي شرعه الله دينًا على لسان موسى وعيسى ومحمد ﷺ هو الإسلام كما ذكر في محاضرته الدين عند الله ، وقد مرت في تدينه ، وانظر الرائد س ١٩٦٤ ع ٩ ص ٢٦ .

(٢) الرائد س ٩٥٩ أكتوبر - نوفبر - ديسمبر ص ١٧٥ - ١٧٦ محاضرة الحياد الإيجابي ، وانظر س ٩٦٤ ع ٩ ص ٢٦ محاضرة الدين عند الله . والثقافة س ٩٤٣ ع ١٨٢ ص ٢١ .

(٣) انظر الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٣١ ص ٢٢ .

١- الصحافة :

وكان يشرف على بعضها في الأربعينات أناس لا يهمهم مصلحة الأمة ونفعها ، ورشاد أبنائها بقدر ما يهمهم جمع المال أو السير بالمجتمع في طريق ما يسمونه بالرقي والتقدم ، وهم بهذا يقودونه إلى الدرك الأسفل من الهاوية ، ولهذا نراه ينبري لمهاجمة الصحفيين أمثال محرر جريدة الاثنين الذي يحدد أهدافه من إنشاء صحيفة بقوله : «[نريد] الدعاية لحياة ديمقراطية ، ومحاربة الرجعية ، والتقاليد ، والتعصب الديني ، وتجديد الأزهر ، ثم الدعوة إلى تحرير المرأة قلبيًا ، فلا يزال الحب في مصر جريمة يعاقب عليها المجتمع ، ثم مساواة المرأة بالرجل ... ثم تمصير الأجانب والموازنة بين طبقات الأمة [(١)] ، فيندّد به العريان المصلح قائلاً : «ماذا تكون الأمة في غد لو أن هذا الفتى المتقحم قد بلغ الهدف الذي أراد فحطّم التقاليد ، وقضى على التعصب ، وحرّر المرأة قلبيًا وأعطاها القادة والرياسة ... إنها [سوف] تنشب أظفارها في عنق أبيها لأنّه عاب عليها أن تذل ذلة أنثى لها في كل يوم حبيب تذرف الدمع على بعاده ، وتتوسل إليه أن يعود . أفذلك هدفه الذي يسعى إليه ، إنه ليسعى إلى غاية ، ولكن في قعر الهاوية ... أهذه الآراء ... هي الهدف من الصحافة المصرية ؟ [(٢)] .

ولقد أنكر على الصحف أن تسعى لترويج بضاعتها على إثارة الشهوات بعرض ذكريات الغواني ، وأخبار الحفلات ، والليالي الساهرة بأسلوب من أساليب الشيطان ، وبإيحاء يدعو إلى المنكرات دعوة إبليس إليها [(٣)] وبين أن

---

(١) الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٢٣ . ص ٢٠ ، وانظر لذلك أيضًا س ١٩٤٢ ع ١٥٨ ص ٢١ ، و س ١٩٤٢ ع ١٨٠ ص ٢٠ ، و س ١٩٤٢ ع ٢٠٥ ص ١٥ و س ١٩٤٣ ع ٢٣٢ ص ٢٢ .

(٢) انظر السابق .

(٣) انظر الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٧٦ ص ٢١ - ٢٢ بعنوان المغازلة التي لا أنساها ، و ع ١٨٤ ص ٨ بعنوان ألوان من الإيحاء ، و ع ١٨٦ ص ١٤-١٥ بعنوان دعوة ، وقادة ، وقدوة ، و ع ٢٠٤ =

هـذه الصحف لا تصـور حـال مصر ، وكيف وهي لا تعـرض إلا صـور الراقصات اللاهيات ، والأزياء ، والصور الداعرة ، وتعلّق عليها تعليقات مثيرة ، موحية بالمفاسد والبغاء ، مزينة لها أحسن تزيين ، كيف تصورها وفي المجتمع المصري نساء شريفات لا يصدّهن عما يتمتعن به من خلق كريم صادّ ؟ وفي المجتمع المصري أناس تخلّقوا بالخلق الحسن ، والدين الصحيح ، فمصر تختلف حالها في الصحيفة عن حالها في حقيقة أمرها ، ولذا فعلى العالم الإسلامي ، بل العالم كله أن يدرك هذا ، وألا يأخذ فكرة خاطئة عن هذه الدولة العريقة في حضارتها ، وفي خلقها ودينها ، وألا ينقاد لهذه الصحف فيقلّدها ، فيقع في الهاوية ، إن هذه الصحف تصور هوى أصحابها ، وتزين الباطل ، أما الصحيفة المصرية التي تصور وضع مصر فلم توجد بعد ، يقول في ذلك :

«وإن القارىء في الأقطار البعيدة ليقرأ كل ذلك فلا يعرف «أين حقيقة مصر» من كل أولئك ، بل لعل بريق الباطل يخدعه ونبضات الهوى والشهوات تجتذبه ، فيزعم أن مصر هنا ، وإنها لهناك ! ... بلى ، في مصر عديد من المجلات تعبر عن رأى (أصحابها) في الأدب ، وتصور مذهب (كتابها) في الفن ،وتكشف (أهواء محرريها) في الحياة ، ولكن المجلة المصرية التي تعبر عن حقيقة مصر كلها لم تنشأ بعد ، حذار حذار يا إخواننا في فلسطين وسوريا ... أن تسيئوا الظن بنا ، وتستبِقُوا الحكم علينا بما ترون وتقرؤون ، إن حقيقة مصر العربية المسلمة ليست (كلها) في هذه الصفحات، وليست منها (كل) هذه الصفحات ! ...» [1] .

= ص ٢١ - ٢٢ بعنوان قلب المرأة ، و ع ٢٠٥ ص ١٥ - ١٦ بعنوان أسلوب الشيطان و س ١٩٤٣ ع ٢١٠ ص ٢٠ بعنوان أربع سيقان و ع ٢١٨ ص ١٨ بعنوان صحفي .

(١) الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٧٨ ص ١٩ ، وانظر لذلك أيضًا ع ١٧٩ ص ٢١ ، و س ١٩٤٣ ع ٢٣٢ ص ٢٢ .

ويعرض لأهمية الصحافة ، وتأثيرها في المجتمعات ، وتبوئها المكانة المرموقة فيذكر أن ما استحسنته فهو الحسن ، وما استقبحته فهو المنكر المذموم، وأنها المعلم الأول للجيل الصاعد ، وأنها تنال الحظ الأوفى من أوقات الفراغ التي لو صرفت في وجوه مفيدة لأنتجت خيرًا كثيرا ، وحبذا لو كانت صحفنا توجه التوجيه السديد إلى الخير والصلاح ، إذا لما ضاعت أوقاتنا سدى ، ولما سار مجتمعنا نحو الهاوية ، إن على الصحف أن تشيد بالرأى الصحيح ، وتكشف عن بواعث الحوادث ، وتهدي إلى الصراط المستقيم ، وإلا فإن الفاحشة ستشيع ، وإن الرذيلة ستعم ، وحينئذ تنحط الأمة ، وتشوه سمعتها في أعين الأصدقاء ، والأعداء [١] .

ويضرب العريان مثلاً لاستخدام الصحف في وجوه الخير تعريفها بالكتب التي تنشر في الأسواق لأن أكثر قرائنا في حيرة إزاء الكتب الجديدة ، فهم لا يعرفون مضمونها إلا إذا قرؤوها ، ولن يقرؤوها إلا إذا دفعوا ثمنها ، ثم قد ترضيهم وتؤدي الغاية التي ينشدونها ، وقد لا تؤدي ، ولذا يطلب من مجلة الثقافة أن تفتح له صفحاتها للتعريف بها وفي ذلك خير عميم [٢] .

ويندد بالصحف التي تنشر نقدًا ساخرًا لعلمائنا وأدبائنا القدامى المشهورين أمثال أحمد بن حنبل ، والجاحظ ، وعبد الحميد الكاتب ، وتشوه سمعتهم ، وتعطي للطلاب والقرّاء فكرة مشوهة عن تراثنا وعظمائنا ، فينصرفوا عنهم وعن علومهم قبل أن يتعرفوا عليها ، وفي هذا جناية كبرى على العلم والتاريخ [٣] .

* * *

---

(١) انظر الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٥٨ ص ٢١ . و س ١٩٤٤ ع ٢٧٤ ص ٢١ .
(٢) الثقافة ٩٤٢ ع ١٥٨ ص ٢١ .
(٣) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ٢٠٥ ص ١٥ ، وانظر لذلك أيضًا : خواطره المتعلقة بالصحافة .

٢- المرأة :

كنا رأينا محمد سعيد العريان يثور على التقاليد (١) ، ونراه هنا يسخط على من ينتهك حرماتها فكيف نفسّر هذا ؟ .

إن المطّلع على حياته يعرف أن ثورته الأولى كانت على تقاليد تحجب عنه خِطْبَه التي عقد له عليها ، على حين تسمح لها أن ترى غيره ، وفي هذا منافاة للشرع والمنطق ، أما هنا فإنه يثور على انتهاك المرأة حدودها التي رسمها الله لها ، وتعارف عليها أبناء المجتمع ، ويقصد بهؤلاء : الذين لم تفسد فطرتهم، وهم الأغلبية التي أشار إليها في حديثه عن الصحافة ، ذلك لأن معظمهن لا يزلن محافظات على عفتهن ، متمسكات بدينهن وتقاليدهنّ ، ولكن هذا لا يجعله يتغاضى عن الدعارة التي وصل إليها بعضهن ، مما حدا بالداعين الأوائل إلى تحرير المرأة ينكرون هذا ، ويرثون لحالها ، ويخشون انزلاقها إلى مهاوي الفساد ، فهذه حرم قاسم أمين ، وهدى شعراوي تعيبان هذه النهضة النسائية التي لم تظهر إلا في حفلات خليعة تهدم التقاليد باسم الخير ، وتحتضن الخصور باسم العطف على المساكين (٢) .

ولهذا فقد هب العريان كمصلح اجتماعي يدعو الجيل إلى الحفاظ على شخصيته المستقلة التي تميزه عن شخصية أوروبا ، ويحذّر من الجري وراء الغرب باسم التقدمية ، ومحاربة الرجعية ، ويحضّ على الثبات على المبدأ الحق ، ويهاجم الحفلات الساهرة التي تقام باسم الخير ، وباسم مساعدة الضعفاء والفقراء التي يبذل فيها من المال والعرض ما لا يرتضيه الفقير ، بل ويأباه كل ذي لب سليم ، ذلك لأن آثارها تتسلسل عن طريق الدّعايات المغرضة إلى البيوت ، فإذا البنت غير أمها ، وإذا الفتى غير أبيه ، وإذا بهما يتمردان فتمزق حجابها ، ويخلع مروءته ، وينساق كل منهما وراء تيار الفساد الجارف ، إن

---

(١) انظر الحديث عن زواجه .

(٢) انظر الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢٣٥ ص ٢٢ بعنوان الوضع النسائي في مصر .

العاقل ليأبى هذه الأموال التي يقدمها الأغنياء للفقراء لا عطفًا عليهم ، وإنما ليشروا لذة بضع ساعات على حساب الدين والمروءة والتقاليد ، أباسم الفقير هذا ؟ إن ذلك الغناء والرقص والموسيقى سبب الجوع والعري والتشريد ، ولكن أيدري هؤلاء جريمة أولئك ؟ [١] .

ويندد بخروج النساء إلى الشوارع متزينات ، كاسيات عاريات ، ويصورهن على حقيقتهن ساخرًا منهن إذ يجعلهن كالثوب الذي يخلق من طول ما يمر عليه من أيام وهو معروض في السوق ، يقول : «أرأيت إلى بعض البزازين وبائعي الثياب يعرضون على أبواب متاجرهم ألوانًا من الثياب البراقة يسمحون لكل عابر سبيل أن ينال منها ما ينال بعينيه ، وأن يختبر من متانتها ما يختبر بأصابعه ، وأن تشرق عليها الشمس وتغرب ؟ أرأيت إلى هذه الأثواب وقد حال لونها تحت الشمس ، ومزقتها الريح بعد أسابيع أو أيام ، وما تزال في موضعها من باب الدكان تنتظر المشتري ؟ ماذا صارت هذه الأثواب وقد كانت ؟ وماذا صارت المرأة وقد ابتذلت نفسها في السوق أما الثوب فقد عاد خرقه ، وأما المرأة ! ...» [٢] .

ويبين أن البيت يطلب المرأة العفيفة والزوجة الطاهرة الفاضلة ، وأن تحمل مشقة العزوبة أهون من معاشرة زوجة جاهلة تبرز إلى الشارع لتظهر جمالها وزينتها [٣] ولهذا فإن الرجل يعرض عن الزواج وينفر منه بعد أن خلعت المرأة المثقفة لباس حيائها وخرجت إلى الشارع مبدية ما يجب إخفاءه، فأساء بها الظن وتوزعته الريب والغيرة ، وأخذته الحمية والنخوة فلم يرتضيها زوجة ، أما المرأة الجاهلة فلا تحسن تدبير المنزل ولا تربية الأولاد ، وهو لهذا

---

(١) انظر الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٧٥ ص ٢٢ . وع ١٧٨ ص ٢٠ وع ١٧٩ ص ٢٢ . وع ١٨٠ ص ٢٠ ، وع ١٨١ ص ١٨ ، وع ١٨٦ ص ١٤ ، وس ١٩٤٣ ع ٢٣٧ ص ٢٤ .

(٢) الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٩٣ ص ١٩ .

(٣) الثقافة ٩٤٢ ع ١٦٣ ص ١٩ .

في حيرة من أمره ، ظلمه هذا المجتمع الإمعة الذي ينساق في تيار الغي والضلال [١] .

ويعرض الأديب المصلح قضية الخيانة الزوجية في صورة امرأة استشارت إحدى الصحف في أمرها ، فذكرت أن أباها زوجها قسرًا ، وعاشت وفيةً لزوجها ، لكنها كانت تعاني قلقًا نفسيًا ، وصراعًا أليمًا بين عفتها ووفائها لزوجها ، وبين حبها وإطاعتها لهواها ، وقد طفح الكيل ، وهي تخشى أن تنزلق في الهواية ، فهل تخرج عن أمر أبيها وتتزوج من أحبته ، أو تلبي نداء القلب وتبقى مع زوجها وتخادن غيره ، ولها - على حد قولها - «في تحلل الأخلاق في البلد أسوة حسنة» ، ويستنكر العريان منها هذا الادعاء وما وصمت به مصر قائلاً : «ليست هذه المشكلة في طبيعة أخلاقنا ، ولا في طبيعة ديننا ، وليس إليها باب في حياتنا الاجتماعية ، بل هي الأخلاق المترجمة [٢] ، ويعيد إلى وسائل الإعلام أسباب انتشار فكرة تحلل أخلاق البلد ، ذلك لأن الصحف والمجلات والمسارح بما تنشره مزينًا باسم الرقي والتقدم والحضارة والوفاء ، وباسم وراء كل عظيم امرأة ليست هي الأم والزوجة ، إنما هي شقراء أو سمراء ، باسم هذه الكلمات المخادعة التي تقع في نفس القارئ موقعًا حساسًا يزل الفتى ، وتزل الفتاة ، وإذا بهما إنسانان غير ما كانا ، يسعيان إلى المجد عن طريق قوامة الخلاعة والانحلال [٣] .

ويلحظ التخطيط العدواني المدمّر الذي يقود الأمة إلى البوار فيتعرض له بالنقد من خلال ما سطّره عن أثر الصحف ، وما ذكره عن سعي السعاة

---

(١) تنظر الرسالة ٩٣٤ ع ٦٣ ص ١٥٢٣ بعنوان (س . ا . ع) للرافعي والحديث هو من جواب هؤلاء الثلاثة على سؤال وجهه إليهم الرافعي ، وانظر لذلك أيضًا س ٩٣٨ ع ٢٥٦ ص ٨٩٨ و س ٩٤٢ ع ١٧٥ ص ٢٢ بعنوان رجعية أخرى و س ٩٤٢ ع ١٨٧ ص ١٧ .

(٢) الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٨١ ص ١٨ - ٢١ .

(٣) ينظر لذلك الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٦ ص ١٢١ و ع ١٧٩ ص ٢٢ و س ٩٤٣ ع ٢١٧ ص ١٨ و ع ٢١٨ ص ١٧-١٨ و س ٩٤٤ ع ٢٧٤ ص ٢١ .

إلى الإصلاح ، واستنكار المستنكرين لذلك تحت أسماء مخادعة براقة من أمثال التقدمية والحفاظ على سمعة المرأة المصرية ، والحفاظ على الأجانب ، يقول :

«وقال النائب المحترم قرني بك : ردّوا هذه الأثواب إلى صوانها أن تخلق وتبلى ... وصاحت امرأة بلسان رجل .. وَيْ ماذا يقول ؟ إنها رَجْعة منكرة ! وهتف رجل بلسان امرأة .. حذار يا شيخ ! إنك توشك أن تلطخ سمعة المرأة المصرية ... [وقال آخرون] أهذا أوان الاعتراض ؟ ... نعم هذا أوانه ، وما دمنا نستطيع أن نفعل شيئًا في هذا الأوان فإنه أوانه ، ونعم ليست هذه مشكلة اليوم ، ولكنها مشكلة من مشاكل اليوم ، وكل يوم بعده ، ونعم عندنا أشياء أهم ، ولكنها لا تشغلنا عن ذلك المهم ، وإذا كنا كلما دعا داع إلى الإصلاح صحنا : «أهذا أوانه» فلسنا فاعلين شيئًا لا في أوانه ولا في غير أوانه ... وقال قائل هناك .. أفتريدنا أن نطبق هذا النظام على الأجانب؟ ... أجانب ما هذه الكلمة الجافية التي نسميهم بها ويسمّون أنفسهم، إن كانوا يصرّون على هذه التسمية فإننا حينئذ أجانب منهم ، وليس للأجنب على الأجنب حق يستدعي الرعاية أو يهوّن التضحية ... أفكانوا يحسبون أن حقهم علينا أعظم من حق الدين والخلق» [(١)] .

وأخيرًا يعرض علينا قضية المساواة بين المرأة والرجل ويصورها لنا وقد عكس الأمر ، فإذا الرجل الضعيف غدا يطلب مساواته مع المرأة بعدما تجاوزت هذه حدّها إلى درجة أن تجرأت محامية فصفعت محاميًا انتقامًا لكاتبها الذي تشاجر مع كاتبه ، ويتمنى المصلح لو قام داع من الرجال مقام قاسم أمين ليرد إليهم بعض حريتهم التي فقدوها ! ... [(٢)] .

---

(١) الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٩٣ ص ٢٠ ، ويقصد بالأثواب : النساء ، وبامرأة بلسان رجل : المرأة المسترجلة ، وبرجل بلسان امرأة : الرجل المتخنث ، وبالأشياء المهمة في ذلك الحين هي ما يؤثر على أوضاع مصر من جراء الحرب العالمية الثانية .

(٢) انظر الثقافة س ١٩٤٤ ع ٢٦٦ ، ص ٢١ . وما سيمر في خواطره .

٣- قضايا أخرى :

أثرت الحرب العالمية الثانية على أوضاع مصر ، فأنهكت قوى الشعب والدولة ، وانتشر الفقر والتشرد ، واضطرت النساء إلى العمل ، واختلف ميزان توزيع الثورة ، وتفشت الأخلاق السيئة ، وعقدة النقص تجاه أوروبا ، وعلت صيحات الدعوات السياسية المفرّقة ، وعمّ الفساد أجهزة الحكم ، وما كانت قبلُ ذات صلاح ، وظهرت دعوات المصلحين . ومنهم أديبنا - لإرشاد الأمة حكومة وشعبًا ، فكانوا يتّبعون أخبار البلاد والعباد ، ويشيدون بما يرونه صالحًا ، ويندّدون بالشر ويدعون إلى تقويم اعوجاجه ، وها هو ذا يوجه نداءه إلى الدولة داعيًا إياها أن تكفل حقوق المواطنين إذ من واجبها أن تيسر لهم أسباب العيش من طعام ، وكساء ، ودور صحية ، وأن تهيء لهم أسباب الكرامة الإنسانية ليخلع هؤلاء عن أنفسهم ذل العبودية لأصحاب الملايين ، وأن تضع نظامًا للرواتب يعطي الموظفين عطاء مساويًا لا يميز بين فقير وذي أسرة معروفة (١) ، وأن تغير نظام جباية الضرائب بحيث يكون من حقها أن تحاسب كل ذي مال على غلته ، وعلى حاجته وعما يفيض ، نظامًا لا يفرض الضريبة على الرأس ، ولا على الفدان ، ولكن على مقدار الغلة ، وعلى ما فوق الحاجة ليستشعر كل ذي مال أن غناه غنىً لأمته (٢) ، وحينذاك تقل الجرائم ، أما إذا بقي سبعة وتسعون من المئة من الشعب يعيش على صدقة ثلاثة من المئة فإن المفاسد ستنتشر ، ولذا فعلى من يعيب على هذه الأمة أخلاقها أن يعترف لأبنائها بحق الحياة فيطعمهم من جوع ، ويكسوهم من عري ، ويجود عليهم بما حبسه من رزق الله . ثم ليمتحن بعد ذلك أخلاقهم ليرى طبائعهم الكريمة (٣) .

---

(١) انظر الثقافة س ١٩٤٤ ع ٢٧٦ ص ٢٠ و ع ٢٦٨ ص ٢١ .

(٢) انظر الثقافة س ١٩٤٤ ع ٢٧٦ ص ٢٠ .

(٣) انظر السابق .

وكان يرى أن ترف الأغنياء وبذخهم إحدى أسباب فقر الفقراء ، ولهذا دعا بمناسبة «يوم الإحسان» إلى أن يكون هناك «يوم حرمان» يمسك فيه أبناء الشعب فقيرهم وغنيهم أنفسهم عن الإنفاق ، فلا الفقير يضيره جوع هذا اليوم ، ولا الغني ، ولا يستشعر الأول المذلة حينما يمدّ يده ليأخذ من المال الذي قدّموه بعد أن ساهم فيه فيتحقق بذلك معنى من معاني الأخوة الإنسانية [1] .

ولقد كان من ثمرة نشاطه النقابي توفير المساكن والعلاج الصحي للمعلمين ، وإعانة أسرهم من صندوق المعاشات ، وسوى ذلك مما يساعدهم في رفع مستواهم المعيشي ، وذلك تطبيقًا لما كان يطالب به .

ولم يكتف العريان بالحديث عن الفقر كإحدى المشاكل الموجودة في المجتمع وإنما تحدث عن أمور أخرى كتفشي الأخلاق الفاسدة ، فلقد لاحظ هذا فأنكره ، ودعا إلى التحلي بالخلق القويم ، ولما دعا الشعب في يوم الحرمان إلى التصدق اغتنم الفرصة ودعا إلى يوم الأخلاق ، يوم يمسك فيه الأفراد أنفسهم عن الرذائل والمفاسد علّهم يتعوّدونها فتعم الفضيلة ويسود الخلق الحميد، وبهما علاج لما نعانيه من فقر . يقول في ذلك : «إننا في حاجة إلى (يوم الأخلاق) أكثر من حاجتنا إلى (يوم المستشفيات) و (يوم الفقير) و ... نحن في حاجة إلى (يوم الأخلاق) نمسك فيه أنفسنا على الفضيلة قسرًا إن لم نمسكها عليها طواعية ، فلعل هذا اليوم أن يحملنا على يوم بعده فتصير الفضيلة لنا عادة . هذه الأمة وهذه أخلاقها ... حتى الذين يحسنون الظن ... لا يستطيعون أن ينكروا ما يرون من أخلاق الأمة من الضعف والانحلال ... لو ملكنا الخلق لوجد الفقير طعامه ، والمريض دواءه ، والعاني

---

(١) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٥ ص ٢٢ ، وانظر حديثه عن الفقر : الرسالة س ٩٣٨ ع ٢٥٨ ص ٩٩٩ والثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٩ ص ٢٢ و ع ١٨٠ ص ١٨ و ع ١٩٩ ص ١٦ و س ٩٤٣ ع ٢٣٣ ص ٢١ و ع ٢٣٧ ص ٢٢ .

الأسير حريته» [١] .

وقد ضرب لنا مثلاً لسوء الأخلاق ما رآه عند طبقة المحامين ، فأكثرهم ممن يرى أن مهنته تقوم على الدفاع والمحاماة ، والانتصار لقضية ، لا يهمه في ذلك نص قانون ، ولا رأي عدالة ، وهناك من يؤمن بهما ، ولا يحسن تطبيق القوانين ، ولا يلتمس الحق ما دامت نصوصها تؤيده في وجه من الوجوه ، ويختلف مفهومه عن العدالة والحق باختلاف هذه القوانين ، وثلة قليلة تنتصر للحق لا يصدّها عما تؤمن به من الحق صادّ [٢] ، كما ضرب مثلاً آخر لمفاسد الأخلاق ما رآه من فصل بعض الموظفين بين تصرفاتهم أثناء العمل وخارجه ، ونقد الموظفين الذين يحرمون أهاليهم من حاجاتهم الأساسية ليظهروا أمام الملأ بمظهر الأناقة ، وفي هذا شعور بالنقص أمام ذوي اليسار سماه مركب الفقر ، أو مركب النقص [٣] ، وامتدح العامل الذي يحصّل أرباحًا بطرق مشروعة ، ووجه الشباب إلى استخدام أموالهم بمثلها ، كما أشاد بصديق له كان قد توفي والده وهو بعد فتىً ، فأخذ يعمل حمّالاً بعد انصرافه من المدرسة إلى أن صار له مكانة وجاه [٤] ، وندّد بعقدة النقص التي يشعر بها أبناؤنا تجاه الأوروبيين ، وحبّ الأخذ عنهم في علاج مشاكلهم ، وتناسي آراء الإسلام في القضايا المماثلة [٥] ، وعرّض بالسعاة الذين يؤخرون إيصال البريد لما في ذلك من ضرر على مصالح الدولة والشعب ، وبجمعيات الطفولة التي تفتنّ في شروطها فنونًا شتى تجعلها لا تفي بالمهمة التي أنشئت من أجلها ، كما نقد اهتمام وزارة التموين بتأمين الورق لطبع المجلات الهازلة وامتناعها عن طبع الكتب الأدبية والعلمية ، محتجّةً بنفاذه من الأسواق ،

---

(١) الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٣٩ ص ٢٠ .

(٢) انظر الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢١٣ ص ٢٠ .

(٣) انظر الثقافة س ١٩٤٤ ع ٢٧٦ ص ٢٢ .

(٤) انظر الثقافة س ١٩٤٤ ع ٢٧٠ ص ٢٢ .

(٥) انظر الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢٣١ ص ٢٢ .

وكأن هذه تنفّذ لهذه دون تلك ، وكأن مصر لا تريد أن تعترف للأدب الرفيع بحقّ من الرعاية ، كما عاب على قادة الفكر في الأمة أن يتناسوا واجبهم الوطني فلا يحتجون لما تفعله الدول المعادية لأن نساءهم منها ، ودعاهم إلى تنبيه الوعي في البلاد لما لهم من أثر يفوق أثر ذوي السلطان والجاه ، فبأقلامهم يستطيعون أن يردوا النفوس الحائرة إلى الهدى - والقلوب المريضة إلى سلامة الأمل - وأن يهبوا العزم لمن لا عزم له ، وندد بالأدباء الذين لا يبالون بتبيان الآثار السياسية والحزبية للنهضة المصرية ، وثوراتها (١) ، وبالوزراء الذين لا يدققون فيما يعرض عليهم من مصالح الشعب (٢) . وبسير الأعمال بالمحسوبية بين الناخب والنائب والوزير (٣) ، كما عاب على رؤساء الدولة نسيانهم الهدف الذي يسعون إليه ، وتزاحمهم على المناصب والمصالح الحزبية (٤) ، ونقد بعض قوانين الدولة التي تحرم التجارة على الموظفين (٥) .

على أن في قصصه سيما القصيرة منها علاج لكثير من أدواء المجتمع كالفقر والأخلاق واختلاط المرأة .

وهكذا رأينا أديبنا محمد سعيد العريان يتخذ من الأدب سبيلاً إلى إرشاد الأمة إلى الخير ، وتخليصها مما ران على كاهلها من مفاسد وعلل عاقت ركبها عن التقدم والرقي ، فكان بذلك من أوائل الرواد المصلحين ، ولئن أهمل ذكره ، فإن المستقبل لآت ، وسيعترف الناس يومًا بفضله ، ويشيدون بآرائه .

* * *

---

(١) انظر الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٥٧ ص ١٧ .

(٢) انظر الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢١٩ ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) انظر السابق .

(٤) الرسالة س ٩٣٨ ع ٢٥٨ ص ٩٩٩ .

(٥) الثقافة س ٩٤٤ ع ٢٧٨ ص ٢٣-٢٤ .

ثالثًا : آراؤه السياسية

مرّ معنا في ثنايا الحديث عن حياته أن العريان سعى مذ كان يافعًا إلى مجالدة الإنكليز ، وأنه سجن لمناوأته المستعمرين وأعوانهم ، وإذا تتبعنا أدبه نراه يهدف إلى غايات سياسية ، وتربوية ، ودينية ، وخلقية ، إذ كان يرى أن الأدب والسياسة لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وأن على الأديب أن يلتزم الدفاع عن قضايا أمته ، وأن يبصّرها سبيل الرشاد ، ولقد ألف كتبًا سياسية أرّخ في بعضها أحداث مصر السياسية منذ الاحتلال الفرنسي حتى نهاية العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، كما اشترك مع غيره في تأليف كتب تتحدث عن كفاح العرب والإفريقيين ضد الاستعمار والعنصرية ، وكره الحرب وسيلة لحل المشاكل والأزمات السياسية وكان يرى أن السياسة ليست تطاحنًا حزبيًا ، ولا مظاهرات تعج بها الشوارع تهتف بالساسة ورجال الحكم ، وإنما هي «حكمة وتدبير، ونظر بعيد فيما يعود على الأمة أفرادًا وجماعات [1] ، وقد قام برحلات بين عديد من أرجاء البلاد العربية ، والأجنبية لأغراض سياسية وثقافية .

والمتّبع لآرائه السياسية من خلال ما سطّره في آثاره يرى أنها تندرج تحت خطين عريضين يتعلق أولهما بالإسلام والعروبة ، ويتحدث ثانيهما عن المعسكرات الدولية المعاصرة ، ومدى تأثيرها على البلاد ، وسأعرض لهذين التيارين مبينة رأيه فيهما .

١- *الإسلام والعروبة* .

ولهذا التيار مداران كبيران يسيران جنبًا إلى جنب تارة ، ويعلو أحدهما على الآخر تارة أخرى حسب الظروف التي تمر بها الأمة العربية ،

---

(١) الرسالة س ١٩٣٨ ع ٢٥٨ ص ٩٩٩ .

وهذان التياران هما :

أ- الإسلام دين الإنسانية :

بدأت تباشير دعوته إلى هذه الفكرة مع أوائل شبابه ، فمنذ عام ١٩٣٨ كان يرى أن فلسطين جزء من البلاد الإسلامية تربطنا بها وحدة الدين وآصرة اللغة ، ورابطة الدم والنسب ، وأن العرب والمسلمين ليسوا وطنيين إلا إذا آمنوا أن كل البلاد العربية والإسلام بلادهم ، وأن على فلسطين أن تنشر لواءها على ربوع الديار حتى تنتظم كل عربي ومسلم ، ويتمنى أن يعود إليها وقد خفقت في سمائها راية الإسلام (١) .

وقد تطورت هذه الفكرة لديه فإذا هو في عام ١٩٤١ يعدّ مولد النبي ﷺ ميلادًا للإنسانية كلها من جديد ، لأن دينه الذي أتى به هو دين الإنسانية كلها ،ويدعو إلى التخلق بالإيمان والصبر لتحمل أعباء الدعوة إلى هذه الرسالة التي ألقيت على كاهل المسلمين (٢) .

وتبرز هذه الفكرة جلية في عام ١٩٥١ حينما ألقى محاضرته «أول الوهن في الإمبراطورية الإسلامية حركات انفصالية» في النادي الثقافي بالسودان ، فإذا به يتذكر وهو في هذه الدولة تلك الولايات الإسلامية التي كانت تجمعها راية واحدة تخفق فوق ربوعها وتضمها دولة واحدة مترامية الأطراف ، متحدة الهدف ، متحدة الدين ، فلا عصبيات قبلية ، ولا جنسيات أو قوميات متعددة ، ولا دويلات متجزئة ، وإنما هي دولة واحدة ، دينها الإسلام ، وعصبيتها الإسلام ، وهدفها الإسلام ونشره على ربوع العالم ليعمه دستوره السمح ومثله العليا ؛ يقول في معرض حديثه عن هذه الأمة الكبرى ودستورها :

---

(١) انظر الرسالة س ٩٣٨ ص ٢٥٥ ص ٨٦٨ وع ٢٥٦ و ٨٩٨ .

(٢) انظر مجلة صحيفة دار العلوم س ٩٤١ ع ٤ ص ٤ .

«وضع دستورها محمد بن عبد الله بإذن من ربه ، فخطا بها الخطوة الأولى لإيجاد الحكومة الإنسانية العامة التي ترفرف رايتها على البشرية جمعاء ... [لأن] الإسلام هو دين الإنسانية العام الخالد جاء ليمحو فوارق الجنس واللون والدم والقبيلة (١) .

ويقول في مقال له عن الإسلام ورسالته العالمية التي حملها رسوله الكريم محمد ﷺ إنه جاء «ليضع دستور الدولة العالمية التي دعا إليها فلم يمض قرن إلا والإمبراطورية الإسلامية تسود على بلاد الشرق والغرب (٢) ، وقد زالت منها الفوارق ، وأخذت تتكلم اللغة العربية لغة القرآن وتنتسب إليه ، وتهتف بما جاء به خاتم النبيين ، ولقد حملنا هذا التراث ، وكنا أبناءه وأنصاره ، وكنا رعيته والمسئولون عنه ، وعلينا أن نواصل ذلك حتى يعم الخير والإسلام أرجاء المعمورة كلها (٣) .

ويتساءل عن المصير الذي آلت إليه هذه البلاد ، ويعيد أسبابه إلى ذلك الضعف الذي حلّ بالدولة الإسلامية مذ أعلن أمير الأندلس انفصاله عنها ، ثم تبعه في ذلك أمير آخر في فاس ، ثم في القيروان ، وشمال أفريقيا ، حتى كانت الدولة الطولونية في مصر ، والمهدية والحمدانية في الشام ، والطاهرية في خراسان ، ثم الصفارية ... فدويلات أخرى اقتطعت من جسم هذه الإمبراطورية ليصبح لها بزعمها كيان وشخصية ، فإذا بهذه الإمبراطورية وقد انتقض غزلها باستيقاظ عصبيات الجنس والدم لا تستفيق من غفوتها إلا والصليبيون يعملون سيوفهم في نحور أبنائها ، والتتار يحلّون على بغداد فتحل الكارثة بالمسلمين ؛ ثم ينبه العريان المسلمين ، والمسلم كما يعرّفه من «يؤمن بأن الأرض كلها وطنه ، وأن كل مسلم أخوه ، وأن جنسه هو الإسلام ، لا

(١) طبعت في كتيب بعنوان أول الوهن في الإمبراطورية الإسلامية حركات انفصالية . ص ٧-٨ .
(٢) الرائد س ١٩٥٦ ع ٥ ص ٣١ .
(٣) أول الوهن ص ١٢-١٣ .

عصبيـــة دم ، ولا عصبيـــة جنس ، ولا عصبيـــة أرض ، ولكنـــه الإســـلام والتقوى [١] . ثم ينبـه المسلمين إلى ضرورة العودة إلى الوحـدة ، ونشر الرسالة الإسلامية العالمية .

أما في عام ١٩٥٦ ، وفي أعقاب حرب بور سعيد فإننا نراه يعقّب على ما ذكره من تكاليف العرب جميعًا في الحرب بأننا أمة ذات رسالة سماوية ، ومـن حق هذه الأمـة أن تعيش حـرة أبيـة ، وأن تـدعو إلى مسـاواة البشر أجمعين ، وأن تبشر بدينها ومثلها الإنسانية بين أمـم الأرض ليعود دستورها العـام الذي أرسله الله للبشرية جمعاء ، ولو كره المستعمرون الذين يكيدون لنا لأننا دعاة خير للإنسانية ،وهم لا يؤمنون إلا بالبطن والشهوات [٢] .

ويؤكد العريان في مؤتمر المعلمين العرب الذي أقيم في هـذا العام على أن العرب والمسلمين أصحاب رسالة إنسانية تنتظم العالم كله ، وأنهم ذوو علوم وحضارة أنارت العالـم ، فإذا بالأوربيين يقتبسون منهم علومهـم ، ثم ينكـرون عليهـم فضلهـم ، ويوهمونهـم أنهـم متـخلفون وأن عليهـم أن يستمـدوا عـلوم الغربيين الحديثة التي أيقظت العالم من سباته [٣] ، ويشير في هذا المؤتمر إلى الرسالـة الإسلاميـة التي استنـدت إلى العقيـدة ، وبشرت بهـا ، وكـافحت المستعمرين من أجلها على مرّ التاريخ ، ولكن ذوي القلوب الغلف خيّل إليهم أن هؤلاء الفاتحين المسلمين نفر من أولي المطـامع لا أصحـاب رسالة يريـدون نشرها على البشرية لينقذوها مما تتخبط فيه ، ولذلك قاوموا المسلمين فارتدوا عـلى أدبارهم خـاسرين في الحـروب الصليبية ، ثم أعادوا الكـرة في العصـور الحديثـة ، واستخـدموا أسلوب «فرّق تسد» ، وكـان لهم ما أرادوا «فخفتت

---

(١) أول الوهن ص ٢٦ .

(٢) انظر أهداف المعركة ص ٢٩ - ٣٣ .

(٣) انظر الرائد س ١٩٥٦ يوليو - تموز ص ١٧٤ ، وانظر كذلك : مؤتمر المعلمين العرب الدورة الأولى يوليو ٩٥٦ ص ٢١٠ - ٢١١ .

الأصوات التي كانت تدعو إلى الرسالة العالمية ، ولكن العرب يريدون الآن أن يتحدوا ثم يستأنفوا حياتهم ونشاطهم ليحققوا في عصرهم هذا كما حققوا في العصور الوسطى ، حضارة إنسانية رسالتها السلام والإخاء والرحمة وتعمل على إيقاظ الوعي الإنساني لهذه المفاهيم» (١) .

وتستمر دعوته إلى هذه الفكرة فكرة عالمية الرسالة الإسلامية حتى أواخر حياته فإذا هي تنقذ العالم مما يتخبط فيه من الضياع والقلق واليأس الذي حل به بعد بعاده عن النظام الرباني (٢) ، وإذ به يؤلف لذلك كتابه « الحكومة الإنسانية العالمية أو مستقبل الإسلام» الذي ذكره له أحمد العجان في رثائه بقوله : «وحسب (سعيد العريان) فيما بعد الوظيفة وتقديم استقالته أن يتفرغ لقضية الخلود ، وهي قضية (مستقبل الإسلام ...) ليجمع كل المعالم التي يحدها الأفق الفسيح ، ويتسمع إلى كل صوت يتنادى به أهل اليقين ودعاة الإلحاد ، ويستحضر صور الوهن ، وعناصر القوة التي احتشدت في العصور الماضية ، وتعاقبت على المسلمين سواء منهم من حفظ للإسلام هيبته - أو من استكان للهو دنياه من فتنة المستعمر - وإغراء المظاهر ، فلما اكتملت لديه المشكلة في صورتها وحجمها حدّد جوانبها ، وخطط لعلاجها ، ووضع الأمل في قيام ما سماه (الحكومة الإنسانية العالمية) على أيدي المؤمنين من أولي العلم وأصحاب السلوك القويم وأهل الخلق (٣) .

ب- القومية العربية

ترتبط القومية العربية في نظر العريان بالدين ارتباطًا وثيقًا ، وتقوم

---

(١) مؤتمر المعلمين العرب ص ٢١٣ - ٢١٧ ، وكلمة العرب وكلمة المسلمين مترادفتان برأي العريان يقول : «فكل معارك العرب أو كل معارك المسلمين ، وكلمة عرب ، وكلمة مسلمين مترادفتان دائمًا على امتداد التاريخ منذ بدأت تلك المعارك إلى اليوم وإلى الغد أيضًا» أنظر أحاديث في التوجيه القومي ص ١١٣ ، وخاتمة قصته العرب لاخريستوف كولمبس ص ٦١ .

(٢) انظر محاضرته «الدين عند الله» وقد مرت في تدينه .

(٣) انظر الرائد س ١٩٦٥ ع يونيه - حزيران ص ٩ : ذكرى الفقيد الخالد .

على دعائمه ، فلا قومية بلا دين ، وقد بدأ تباشير ظهورها في آثاره من عام ١٩٣٧ حينما قال : «الدين واللغة في تاريخ هذه الأمة شيء واحد يقوم كل من الآخر مقام الجزء مما يكمله ، وهما معًا عماد القومية العربية المسلمة التي نريد أن نطبع عليها ناشئة الغد» [١] ، ولكن فكرة القومية العربية تظهر أحيانًا وحدها ، دون أن ترافقها النزعة الدينية ، وذلك تبعًا للظروف والمناسبات التي يملي فيها آراءه ، فهو حينما يذكر استنجاد لبنان ببني قومه بعدما حلّ به من آلام وخطوب يعدّ مشكلته مشكلة العرب ، ويعدّ هذه المصائب بوادر خير ما دامت قد جمعته والبلاد العربية على فكرة بعدما تقطعت الأواصر الأخرى بين الأشقاء [٢] ، وفي هذه المناسبة يدعو أن تقام رحلات ومراسلات بين أبناء العروبة ليتعارفوا ، ويتآلفوا ويتحدوا عواطف ومشاعر وأفكارًا قبل أن تتحد دولتهم [٣] .

وكذلك في عام ١٩٤٧ نراه يلح على فكرة العروبة دونما تعرُّضٍ للإسلام ورسالته ، ذلك لأن دعوتي الفرنسية والفينيقية المتفشيتين في لبنان كانتا تعملان على فصله عن جسم العروبة ، وتوحيان إلى أبنائه بما تبذلانه من جهود أن لبنان جزء من فرنسا ، أو أنه دولة مستقلة عريقة في أصالتها ، ولا صلة لها بغيرها ، ولذا فقد بيّن أن من أسباب اختيار لبنان مكانًا لانعقاد المؤتمر الثقافي العربي هو ربطه بالعروبة ، والإيحاء إلى شعبه أنه جزء من الأمة العربية له مكانته في جامعة الدول العربية ، وندّد بهذه المناسبة بالدعوات المفرّقة ، وبمن يعمل على فصله ، يقول :

«في لبنان طوائف وأحزاب تشتجر حول معنى العروبة ، ومدى صلة لبنان بجامعة الدول العربية ، وفيه أمثال أميل أده ، وأمين نخلة ، والمطران

(١) الرسالة س ١٩٣٧ ع ٢١٠ ص ١١٣٠ ، وانظر كذلك حياة الرافعي ص ٢٩٣ .

(٢) انظر الثقافة ١٩٤٣ ع ٢٥٦ ص ٢٢ .

(٣) انظر الثقافة ١٩٤٣ ع ٢٥٦ ص ٢٢ .

مبارك ، ومن لا أسميه ، وفيه بعض العصبيات للثقافة الفرنسية» [١] .

أما في عام ١٩٥٦ فإن الدعوة إلى القومية العربية تبرز مرافقة دعوته الدينية تارة ، وتستقل عنها أخرى ، وذلك أيضًا تبعًا للمناسبة التي يتحدث فيها ،ففي مؤتمر الأدباء العرب لا يتعرض لذكر رسالة الإسلام ونشرها ، وكل ما نراه هو تذكير الأدباء بأن يقوموا بما لديهم من سلطان القلم بتعريف أبناء الأمة العربية على تاريخهم المجيد ليحسّوا بأنهم سلسلة من هذه الأمة المتتابعة الأجيال [٢] .

أما حينما يجتمع مع وفد المعلمين العرب ، وحينما يحضر مؤتمرهم فإنه يذكرهم بالرسالة التي عليهم أن يحملوها ، وهي السعي لتوحيد أجزاء البلاد العربية ، وإلى صنع تاريخ جديد حتى يعود البحر المتوسط كما كان بحرًا عربيًا وحتى ينهض العرب برسالتهم المثلى فينشرونها على العالم كما نشروها يوم قاموا من جزيرتهم [٣] ، وكذلك شأنه حينما ألف كتابه «أهداف المعركة» بُعَيْد حرب بور سعيد التي تآلفت فيها الأمة العربية ، فكانت كالبنيان المرصوص يؤازر بعضه بعضًا فقد استبشر بوحدة العرب خيرًا ، وندد بالمستعمر الذي فرق بين الأشقاء ، ولا سيما بعدما أوجد إسرائيل ، ثم دعاهم إلى الوحدة ، والقتال حتى يتحقق الخير والعدل ، وتتحرر الأراضي - وإلى العمل على التبشير بعقيدتهم ومثلهم الإنسانية لتكون هذه المثل الرفيعة دستور الإنسانية الخالد لتعود الأمة العربية إلى مكانتها يوم حملت مشعل الحضارة إلى العالم فأضاءته بمثلها وعلومها وأخلاقها [٤] .

وننتقل إلى سنة «١٩٥٩» وهي السنة التي يتضح فيها معنى القومية

---

(١) البلاغ س ١٩٤٧ ع ٧٩٣٦ ص ٣ .

(٢) انظر الرائد س ١٩٥٦ ع ٣ ص ١٣ .

(٣) انظر الرائد س ١٩٥٦ ع ٥ ص ٣١ ، و ص ١٧٤ ، وكتاب مؤتمر المعلمين العرب الدورة الأولى س ١٩٥٦ ص ١٧١ .

(٤) أهداف المعركة ص ٣٢ .

العربية التي يريدها وذلك إثر قيام الوحدة بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨ فقد زار سوريا ليشهد المهرجان الذي أقيم احتفالاً بذكرى الكواكبي ، وألقى بهذه المناسبة كلمتين أشاد فيهما بالقومية العربية التي دعا إليها الكواكبي ، وبيّن أنها قومية عربية أساسها الإيمان بالله على أي دين - قومية ذات رسالة روحية ، لا شرقية ولا غربية - ثم أنكر العريان على بعض دعاة القومية فصلهم بينها وبين الدين ، بل سخر منهم لأنهم ترجموا نظريات قومية لدول غربية ثم راحوا يعمدون إلى تطبيقها في بلادنا مهبط الأديان ، وصاحبة الرسالة الروحية الخالدة ، يقول في ذلك :

«إن بعض الذين ينتحلون الفلسفة من قومنا يزعمون أن الدين شيء ليس من القومية ، يقولونها ملقنين ، أو يقولونها مخدوعين ، وإنما هي دعوة ضلال وخيانة وفتنة ، لست أظلمهم فأزعم أنهم جميعًا يريدون لأمتهم ضلالاً وخيانة ، ولكنهم أرادوا أن يوصفوا بعلم فترجموا كلامًا يقوله بعض عدونا ، ويزعم أنه العلم فزعموا مثل الذين ترجموا عنهم أن القومية شيء غير الدين ... إن الأمة العربية أمة ذات رسالة يؤمن بها مسيحيها ومسلمها على سواء ... رسالة ذات الطابع الروحي التي جعلت بلادنا مهبط الأديان ، ومن آفاقها كان مشرق الحضارة على أيدي رسل المسيح ، وأتباع محمد ، روحيتنا بعض قوميتنا ، وأول خصائصنا إيماننا بالله ... إن الإيمان بالله قوة لكل ذي دين على دينه» (١) .

وفي هذه السنة نفسها ، وفي مؤتمر قادة التعبئة القومية يلقي كلمته « الحياد الإيجابي» على الطلاب المبعوثين يدعوهم فيها إلى أن يتعرفوا على أمجاد أمتهم حتى لا يقعوا فريسة الأنظمة الأخرى التي لا توائم دينهم وعروبتهم ، ثم يذكرهم بالرسالة الإنسانية التي عليهم أن يحملوها بوصفهم بعض أهلها ، وهذه

---

(١) دعوة الكواكبي : أغسطس «آب» ١٩٥٩ ص ١١ . وانظر كذلك : مفهوم القومية العربية عند الكواكبي س ١٩٥٩ ص ٦ ، ٧ .

الرسالة هي التي شرعها الله ، وجاءت متطورة حسب تطور المجتمعات على لسان موسى وعيسى ثم على لسان سيدنا محمد ﷺ الذي اكتمل به الدين [١].

أما في الستينات فإننا لا نكاد نرى له آراء سياسية تتعلق بالعروبة إلا ما كان من تنديده بالمعسكرات الشرقية والغربية ، وبأنظمتهم ومجتمعاتهم ، والإشادة بمجتمعنا العربي ذي الرسالة السماوية [٢] .

أستطيع بعد هذا كله أن أرجح أن دعوة العريان إلى القومية العربية كان قوامها الدين ونظامها الإسلام ، وحينما تتحقق تأتي المرحلة الثانية التي كان ينادي بها وهي التبشير برسالة الإسلام حتى يسود العالمَ الخيرُ والحق والسلام ، والمتّبع لآثاره في كتبه ومحاضراته يجد مصداق هذا ، بل ويجد الحديث عن الرسالة الإسلامية يتلو في معظم الأحوال أقواله عن الوحدة العربية ، أما قوله الآنف الذكر : «إن الأمة العربية أمة ذات رسالة يؤمن بها مسيحيّها ومسلمها على سواء» فلا يتعارض مع ما ذكرت ما دام هؤلاء وأولئك يؤمنون بالله ، وماداموا يحتكمون إلى الإسلام وشريعته نظامًا ، ولا أدل على هذا من مثل قوله : «المغربي في مراكش - وفي الجزائر ، وفي تونس ، وفي ليبيا ، والمصري في وادي النيل ، والسوري واللبناني ، والفلسطيني والأردني والعراقي والسعودي واليمني كل أولئك أمة واحدة ليس بين أرض بعضهم وبعض حدود ، ولا فواصل ، أبوهم واحد ، ولسانهم واحد ، وعقيدتهم واحدة ، وأهدافهم واحدة ، فمن حقهم أن يعيشوا أمة واحدة ، ذلك هو هدفنا الأول، أمة عربية متحدة في وطن عربي موحد ... ونحن أمة ذات عقيدة ومثل إنسانية عليا ... ومن حقهم [أي المؤمنين بهذه العقيدة والمثل] أن

---

(١) أحاديث في التوجيه القومي ص ٣١٤ ، وقوله بعض أهلها يقصد به أنهم جزء من العرب أو المسلمين ، وهما لفظان مترادفان كما مرّ إبان الحديث عن «الإسلام دين الإنسانية» ينظر الدين ص ٨٨ .

(٢) انظر محاضرته : الدين عند الله التي مرّ ذكرها في تدينه .

يبشروا بعقيدتهم ومثلهم الإنسانية بين أمم الأرض لينشئوا وعيًا إنسانيًا عامًا ينتظم البشرية جميعًا ، تنتفي به أسباب الشر والفساد في الأرض ، إن تلك المثل التي خرجنا بها ذات يوم على الناس منذ قرون فتحضروا من بداوة وتهذبوا من جفوة ، وتعلموا من جهل ، واتصلت بينهم وبين الإنسانية أسباب، تلك المثل الرفيعة يمكن أن تعود مرة أخرى دستورًا عامًا للبشرية لتعيش البشرية في أمن وسلام ورفاهية» (١) .

٢- الأنظمة الدولية

أبدى العريان آراءه في الأنظمة الدولية التي تسود العالم قديمها وحديثها، وعلاقة أمتنا بها ، تلك التي تكتل أصحابها على شكل معسكرات أو أحلاف ، وأول ما يطالعنا من هذا محاضرته في مؤتمر المعلمين العرب في عام (١٩٥٦) حين ذكر أن الأمة العربية خاضت معركة مستمرة منذ فجر التاريخ مع الروم والفرس والأحباش ، وأن شعبها كافح في سبيل الرسالة العظيمة التي كان يدعو إليها ، ولكن بعض الطامعين ظنوا أنه يحارب طمعًا وجشعًا فحقدوا عليه ، وظهر هذا الحقد في إسبانيا ، ثم في الحروب الصليبية التي ادعى أهلها زورًا وبهتانًا أنهم يحاربون باسم الصليب ، وما هي (أي الحروب) إلا الجشع وحب السيطرة والاستعباد ، والقضاء على الرسالة الجديدة التي جاءت لتنقذ البشرية من العبودية ، ذلك لأن الأديان تدعو إلى الرحمة والحب ، ولا تدعو إلى البغضاء والتشاحن ، ذلكما اللذين ظهرا في عصر النهضة ، حين بدأت أوروبا حروبها باسم جديد ، فعملت على تمزيق وحدتنا وصفوفنا ، ولعلها أوهمت يومئذ الدولة العثمانية أن تتوسع على حسابنا حتى نتفرق ، ويصير بأسنا بيننا ، فتحولت إذ ذاك مقاومة العرب وأهدافه إلى محاربة هؤلاء الذين تربطنا معهم عقيدة ولسان ونسب ، فتحققت أهداف أوروبا حين طوي اللواء

---

(١) أهداف المعركة ص ٣٠ - ٣٢ ، وقد ألفه سنة ١٩٥٦ ، وكتاب مؤتمر المعلمين العرب س ١٩٥٦ ص ١٧١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٧ وقد مرّ كثير من ذلك .

الذي كان يعلو في سبيل نشر الدعوة الإنسانية الإسلامية ، ولكنها لم تكتف بهذا بل عادت ثانية في القرن التاسع عشر ، وكشفت القناع عن أطماعها ، وبسطت سلطانها على الجزائر ، وتونس ، ثم تلتها أجزاء أخرى من هذا الوطن، وكانت خطواتها هذه امتدادًا للحروب التوسعية الصليبية ، ويؤيد ذلك ما قاله اللورد ألنبي حينما دخل القدس غازيًا عام ١٩١٨ «الآن انتهت الحروب الصليبية» (١) ، ولكن العرب صاروا يطلبون حريتهم ووحدتهم ، فأدرك المستعمر أن نهايته قد أوشكت على الزوال ، فقسم البلاد العربية قسمين حال بينهما وجود الصهاينة ، ثم عمد إلى حيلة أخرى حينما أوجد قضية الأحلاف العسكرية ، وأوعز إلى العرب أن ينضموا إليها فأبى أكثرهم إلا نفورًا ، فقسم العالم كتلتين شرقية وغربية ليكرههم على الانحياز إلى إحداهما ، فصمموا على أن يكونوا كتلة ثالثة تحفظ التوازن في العالم لإقرار السلام ، كما حاول أن يربط تجارتهم بتجارته فرفضوا ، ثم عمد إلى تفريقهم ، فصاروا ينشدون الوحدة واتفقوا أخيرا مع الصهاينة على شن عدوانهم الغادر على مصر فكانت حرب بور سعيد درسًا تأديبيًا أبرزت بجلاء لحلفاء الصليبيين أن ما يملكونه من سلاح لا يعادل قوة الشعب المؤمن بحقه في الحرية وفي الكرامة الإنسانية (٢) .

وفي عام ١٩٥٩ ، وفي ندوة الطلاب المبعوثين وضح فكرة الحياد فبين أننا التزمنا الحياد الإيجابي كمذهب سياسي فلن ننحاز إلى شرق ولا إلى غرب ، لا إلى المذهب الشيوعي وسياسته ، ولا إلى المذهب الرأسمالي وسياسته ،ونحن هنا الوسط ، فمنذ القديم كان أهل الشرق والغرب يحاربوننا ، واستمرت مناوأتهم علينا حتى يومنا هذا وإن تغيرت أسماء دولهم ، فاليونان والروم القدماء والروس والبلغاريون من أهل المشرق ، والإنكليز والفرنسيون

---

(١) انظر مؤتمر المعلمين العرب س ١٩٥٦ ص ٢١١ - ٢١٧ ، وأسباب المعركة ص ١٢ - ١٩ .

(٢) انظر أهداف المعركة ص ٦٢ و ٦٥ .

والإسبان والروم الغربيون من أهل المغرب ، وهؤلاء جميعًا يحاربون لفكرة واحدةً على اختلاف المعسكرين الشرقي والغربي ، ونحن ندافع عن أنفسنا على مرّ التاريخ ، فحروب العرب والمسلمين كانت دفاعية منذ غزوة بدر إلى العصر الحاضر ، والصليبيون أولو مطامع وغايات استعمارية تذرعوا من أجلها بالدين ليخفوا حقيقة جشعهم ،وأكبر دليل على هذا حروب روسيا للمسلمين في بلاد القرم لاستعباد أهلها ، وتملك أراضيها ، ثم محاولات أمريكا الاستعمارية، وهؤلاء وأولئك من أحفاد الروم الذين قاومونا قديمًا ، وهما يتظاهران بأن لكلٍ سياسة ومذهبًا ورأيًا ، لكنهما متفقان في واقع أمرهم على عداوتهم ، وفي أهدافهم ، فالاتحاد السوفيتي حاربنا قديمًا ، وحينما تمكنه الفرصة ليحلم أحلام القياصرة يغزونا بقوته وعتاده ، أو بأفكاره ودينه وقد حاول ذلك ولا يزال يحاول في العراق [1] ، أما أوروبا وأمريكا فقد غزتا بلادنا - وهما تمدان لنا يد المعونة حينًا لكنهما تنظران إلينا نظرة السيد للمسود ، ولذا فمن حقنا أن نتخذ طريقًا نمشي فيه على حيدة ، ومن ينحرف عن سبيلنا فليس منا ، ولسنا منه ، ثم إننا لسنا محتاجين إلى أنظمتهم الاجتماعية ، أو السياسية ، فعلى الرغم من الخلاف العلمي حول الشيوعية والاشتراكية من جانب ، والرأسمالية وفروعها من جانب آخر فإن كليهما ينادي بالمساواة ، والحرية ، والسيادة ، وتوفير الأمن ، ولو أحسنا الظن بما ينادون مع اختلافهم في التنفيذ لأنهم بشر ، فإننا أيضًا نحن الأمة الوسط ، لا نقصد إلا هذه الأهداف ، ولسنا محتاجين إلى أنظمتهم لأنها أنظمة بشر ، يجتهدون فيخطئون أو يصيبون ، ونحن عندنا نظامنا الذي هو قوة لنا إذ حدّده الله وجعله لنا دستورًا ، ثم يقول : «لسان الله لساني ، مذهبه مذهبي ، وأنا هنا نقطة المحور من العالم كله فرض علي

---

(١) يقصد بدينه : الشيوعية كما ورد في محاضرتيه : مفهوم القومية العربية عند الكواكبي ، ودعوة الكواكبي ، ويقصد بمحاولته في العراق ما تغلغل فيها من أفكاره في أيام حكم عبد الكريم قاسم .

الحياد» (١) .

وهو يعدّ الحياد نظامًا ربانيًا ، وليس مستمدًا من مصدر آخر ، يقول : «الحياد من ديني ... الإسلام حين بدأ ... نظامًا سياسيًا للدنيا والآخرة عامًا ، فهنا نقطة المركز ... والله حين اختار عيسى ومحمدًا من قومنا أراد أن نكون نحن هنا لنعطي عن اليمين ، ونعطي عن الشمال ، فلا نأخذ من اليمين ولا من الشمال ، لأن عندنا ما نعطي ، وليس عند أحد ما يعطينا ... لنا طريق ... لنا هدف ، والذين عن يميني قد يلتقون معي على ذلك الطريق فهم أخوة حتى نفترق ، والذين عن يساري قد يلتقون معي كذلك على ذلك الطريق .. فهم معي أخوة حتى نفترق ... ولست منهم وليسوا مني في عدالة ولا محبة حين ينصرفون عني فليذهب من يذهب إلى حيث يشاء ، هذا حيادنا .... سائرون إلى حيث أراد الله لإنشاء مجتمع كريم كما يريده الله ... الحياد الإيجابي ... هو أيضًا الذي يتعلق به أمل البشرية جميعًا لمستقبل آمن سالم حين يتصارع الشرق برأيه مع الغرب برأيه ... فلا بد أن تكون هناك نواة الحياد لفكرة جديدة (٢) .

فهو يرى أن الله قد حدّد لنا هذا النظام ، وإذا ما تلاقى مع غيره في بعض الآراء فإن هذا لا يعني أننا نستمد من الآخرين ، فهم معنا فيها ، وإذا ما اختلفنا سرنا في طريقنا الذي شرعه الله لنا ، وحدّده بدستوره ، وهذا ما أراده الله للبشرية جمعاء ، وهو الأمل الذي ينشده العالم حينما تتصارع الآراء،

---

(١) الرائد س ١٩٥٩ عدد خاص أكتوير نوفبر ديسمبر - ت ١ ، ت٢ ، ك١ - ص ١٦٩ - ١٧٨ .

(٢) الرائد س ١٩٥٦ عدد خاص أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ص ١٦٩ - ١٧٨ ، وانظر أحاديث في التوجيه القومي ص ٣١٤ . وقد فسّر الحياد الإيجابي بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين أمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ ثم قال «إنما عليكم أنفسكم» بمعنى الزم حدك وواجبك ، وابدأ بنفسك لا يحملنك كفران من اليمين ، ولا ضلال من الشمال ... على أن تغيّر خطتك : إنما أنت وطريقك . اسلكه أبدًا إلى غايتك متجهًا إلى وجهة واحدة ، إلى قبلة ، إلى هدف فإن مشى معك فأنت وإياه ، وإلاّ فأنت ونفسك لا يعنيك أن يلحق بك أو لا يلحق ، هي دعوة إلى الحياد الإيجابي في أكمل صوره . من مجلد الرائد ص ١٧٨ .

وهو البذرة الطيبة التي تنتظر حينما تخفق الأنظمة الأخرى .

ويبين العريان بعد ذلك أن كفاحنا يجب أن يكون لتعلو هذه المبادئ لا من أجل انتصار أحد المعسكرين :

«لا ينبغي أن تكون غاية الكفاح في هذه الأجيال المعاصرة أن ينتصر الشرق ولا أن ينتصر الغرب ، فانحيازنا إلى الشرق أو انحيازنا إلى الغرب يغلق الطريق على الفرصة التي تتيح لنا أن نستعلي بالرأي وبالمثال والنظام ، أن نكون في غدنا كما أراد الله لنا منذ وضع فينا هذه الرسالة ، أن نكون قادة لمجتمع جديد ترفرف عليه الرفاهية [1] .

وفي هذه السنة بين رأيه في الشيوعية في كلمته التي ألقاها في حفل الكواكبي في سوريا ، فعدّها مذهبًا سياسيًا ، وجعل لينين يستعبد الملايين باسم الحرية والشيوعية هذه التي جعلها دينًا بلا دين ، وأفيونًا جديدًا يخدّر به أتباعه الذين ينساقون وراءه بلا وعي ولا إرادة ، كقطعان الماشية ، وكانت فلسفته دعوة تدمير وهدم ورجعية ، إذ ضرب بالحرية عرض الحائط ، وحرّم الأديان ، وأراد للبشرية ألا يضبطها سلوك ولا ضمير ، وألا تهتدي بغير الغريزة، وحكم بالرأي الصلب ، والعصب ، وسفك الدماء مستعيضًا بذلك عن الحرية ، والتسامح والأخوة والرحمة ، ثم ندّد بدعاة القومية العربية الذين ينكرون الأديان ، وبين خطرهم في المجتمع العربي المسلم [2] .

وإذا ما انتقلنا إلى عام ١٩٦١ فإننا نراه يصرح في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية وكان عضوًا فيه بأن الاشتراكية التي يود حكام مصر تطبيقها هي اشتراكية من الإسلام أو بمعنى أصح : التكافل الاجتماعي ذلك لأن الإسلام هو العقيدة التي يستمد منها الرأي، وقد فرض على المسلمين هذا التكافل [3].

---

(١) المرجع السابق .

(٢) مفهوم القومية العربية عند الكواكبي ص ١٢ - ١٣ .

(٣) جريدة الأخبار ١٩٦١/١٢/١١ ص ٣ .

وأخيرًا وفي عام ١٩٦٤ يلقي قبيل وفاته محاضرته «الدين عند الله» ويعلن فيها رأيه صريحًا في الأنظمة الاجتماعية التي تسود المعسكرات الثلاثة في العالم ويبين أن الله أنزل دينه متدرجًا عبر تيار البشرية حتى اكتمل وختم برسالة سيدنا محمد ﷺ حين بلغت مرحلتها الأخيرة من التطور ، فصارت بذلك شريعته هي الدستور الكامل للمجتمع البشري ، دستور يشعر الفرد في ظله بالطمأنينة ، والراحة ويعطي أهمية كبرى للمعاملات والعبادات التي تهذب النفس ، وتسارع بها إلى الخير ، على حين يسود المجتمعات الأخرى شرقيها وغربيها القلق والضياع ، فالمجتمع الشرقي تفشت فيه فلسفة النظام الإلحادي الشيوعي التي أهدرت قيمة الفرد وأهدرته ، واستعبدته ، يقول في ذلك :

«فلسفة النظام الإلحادي ... [الذي] يحكم قبضته الخانقة على ملايين هنالك ... نشأت تحت ضرورات ، وفي ظروف معينة ، أشاعت لونًا من السخط بين طبقات من الشعب من أجل القوت أو من أجل التحرر ... لقد أهدروا قيمة الإنسان ووجوده ، وأهدروا نفسه وروحه ... صغارهم وكبارهم ، عامتهم وخاصتهم في ذلك الجو من الهمّ ، والقلق ، يعيشون» [1].

أما في الغرب فإن العزلة المميتة ، والقلق والحيرة ، والانحلال يسودون في أرجائه ، فهو لذلك مجتمع لا إنساني يحتاج كالمجتمع الشرقي إلى تغيير ، وبيدنا نحن مفتاح الإنقاذ لما وهبنا الله من نظام عادل يخلص البشرية مما تتخبط فيه :

«المجتمع هناك [ويقصد به في الغرب] مجتمع غير إنساني كذلك لأنه مجتمع يعيش فيه كل فرد فردًا يشعر بالانعزال الكامل بينه وبين كل فرد في ذلك المجتمع ، مجتمع ترى الانحلال سمة من أوضح سماته ... كل فرد في ذلك المجتمع يسأل نفسه إلى أين المصير ؟ كلهم يوقنون أنه لا بد من تغيير ...

---

(١) الرائد س ٩٦٤ ع ٩ ص ٢٧ - ٢٩ .

لتبلغ الإنسانية مرحلة الأمن النفسي ، والأمن الجماعي ؛ شعور بالقلق والحيرة في المجتمع الشرقي ، وشعور بالقلق والحيرة في المجتمع الغربي ، كلاهما يطلب لإنسانيته نظامًا أفضل ... ونحن هنا في هذه المنطقة الوسط من العالم نحمل أمانة الدعوى إلى المثل الإنسانية التي يفتقدها الشرق والغرب ... نحن ... أصحاب شريعة الإنسانية كاملة ... أصحاب دين الغد ، هو ديننا اليوم ، وهو الدين عند الله منذ الأمس البعيد ... نحن المرجوون غدًا لكي نجلو ديننا ونوضحه ... ليرى كل ذي قلق في الشرق وكل ذي قلق في الغرب الصورة التي يرجوها لغده» (١) .

وهكذا رأينا أن النظام السياسي الذي يراه العريان ضروريًا لهذه المجتمعات الدولية لينقذها من مفاسدها ويقودها إلى مدارج الخير والرحمة والمساواة ، هو النظام الإسلامي الذي يستمد مصادره من دين الله لا من الشرق ، ولا من الغرب ، ومن أجل هذا ألف كتابه «مستقبل الإسلام أو الحكومة الإنسانية العالمية» .

٣- آراء أخرى

فيما عدا هذين التيارين اللذين عالجهما العريان بوضوح وصراحة وجرأة ، نراه يسجل تاريخ مصر الحديث منذ عهد محمد علي باشا حتى بُعَيْد عهد الانفصال عن سوريا ، ويشترك مع غيره في تأليف كتاب «قصة الكفاح بين العرب والاستعمار» وهو كتاب يبحث في تاريخ العرب منذ أوائل عهد الإسلام ،حتى العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦ ، أما تأريخه لمصر الحديثة فقد جمعه في ثلاثة كتب هي طريق الحرية ، وأسباب المعركة ، وأهداف المعركة ، ومن هذه الكتب ، ومن مؤلفاته وأقواله نطلع على آرائه حول علاقة إسرائيل مع المستعمر ، فهي ربيبته وصنيعته ، أوجدها في هذه

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ .

المنطقة الوسطى من العالم لتكون قاعدة لتوسعاته العسكرية ، ثم ساندها بكل ما يملك لتفرض بأسها علينا ،وكانت الولايات المتحدة الأمريكية في مقدمة الدول التي قدمت لها العون والمساعدة لتمزق وحدة أراضينا ، وتهدد السلام في منطقة الشرق الأوسط ، ولذا فإن الوحدة لا تتم إلا بانتزاع هذه الشوكة من قلب وطننا ، وردّ كل يهودي إلى موطنه الأصلي لأن «كل واحد من هؤلاء يحمل جوازين من جوازات السفر ، أحدهما من الدولة التي ينتمي إليها، والآخر من إسرائيل» [١] .

أما أهمية البترول في وحدة الصف ، وفي المعركة فقد بينها حينما تحدث عن خسارات الدول الغربية بعد تحطيم العرب أنابيب إبان حرب بور سعيد ، ورفعهم شعار بترول العرب للعرب ، وامتناعهم عن تصديره إلى الدول المعادية [٢] .

والأحلاف العسكرية أحلاف يدعو إليها المستعمر لنكون في ركابه ، وقد وضّح مضارها ، وموقف الدول العربية منها ، وثورة الشعب العرب على حكامه في العراق بعد انضمامه إلى حلف بغداد ليرفع عن كاهله كل نفوذ أجنبي [٣] .

كما وضح موقف مصر من المعتدين ، فهي دولة تدعو إلى السلام والرخاء والحرية ، وستبذل في سبيل ذلك أقصى ما تملك ، ولكنها لم تقف مكتوفة الأيدي أمام أي عدوان ، ولسوف تقاتل من أجل السلام [٤] .

وهكذا رأينا محمد سعيد العريان رجلاً سياسيًا يبدي آراءه جلية ، وقد برزت بوضوح في الخمسينات ، ولا سيما في أعقاب حرب بور سعيد عام

---

(١) مجلة العربي ع ١٢٦ ص ٤٢ ، وانظر أهداف المعركة ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٩٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، والرائد س ١٩٥٦ ع ٥ ص ٣١ ، وكتاب مؤتمر المعلمين العرب ص ٢١٧ .

(٢) أهداف المعركة ص ١٠٢ ، ١٣٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٥٢ ، ١٥٨ .

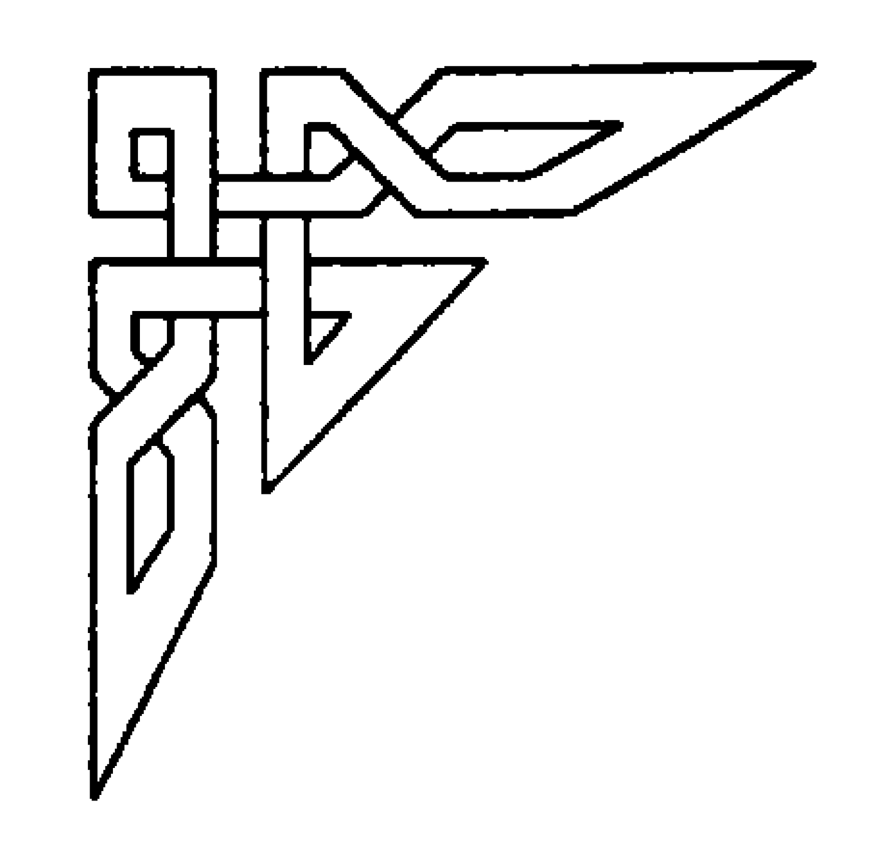
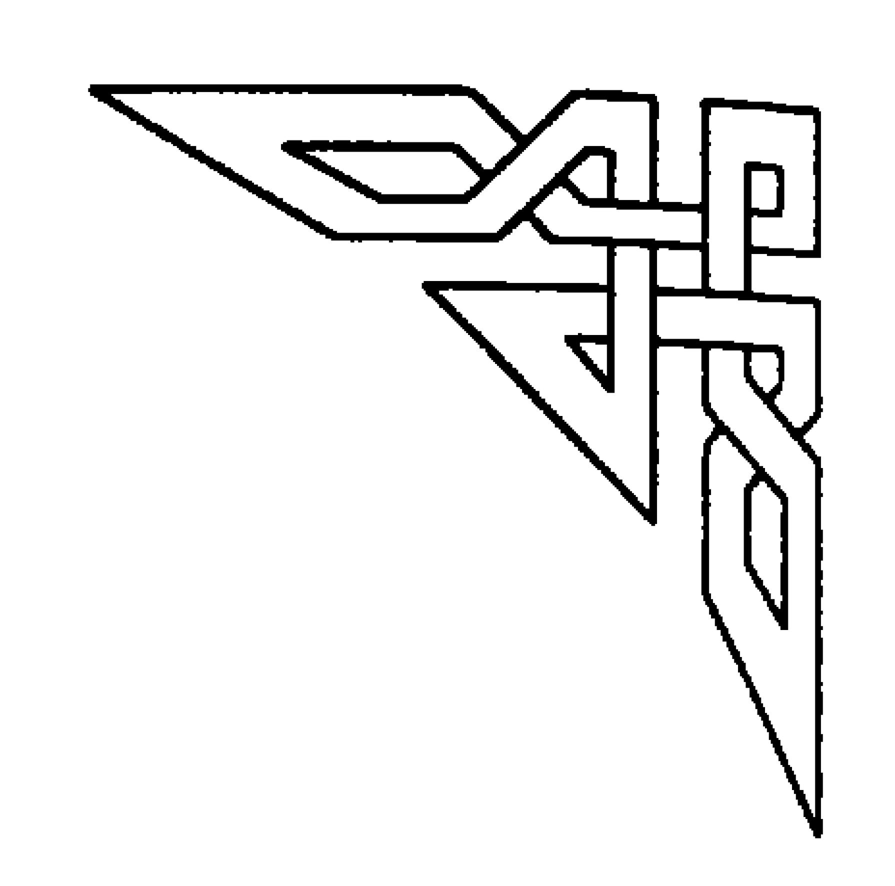
(٤) المرجع نفسه ص ١٧٠ .

١٩٥٦ ، والوحدة بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨ ، أما في الستينات فإن صوته السياسي خفت خفوتًا ملحوظًا ، إذ لم نعد نسمع له في هذه الفترة إلا حديثه عن المجتمعات الدولية الثلاثة : الإسلام ، والرأسمالية ، والشيوعية ، بل إنه في هذه الفترة تخلّى عن الاتحاد الاشتراكي ، واستقال من الأزهر لخلاف مع علي صبري كما مرّ في أعماله [١] .

وأخيرًا يبدو من خلال ما مرّ عن حياته أن اديبنا كان مصلحًا دائبًا لخير أمته ، وتبصيرها طريق الرشاد ، وعلاج مشاكلها على أسس من الخلق الحميد ، والدين المتين ، والنظام الإلهي الحكيم ، وقد تنوعت مجالات النشاط التي كان يعمل بها بين تربوية ، واجتماعية ، وسياسية ، أما على الصعيد العربي فكان داعية إلى وحدة العرب وحدة تلّم شملهم الذي مزقه المستعمر ، على أن يكون نظامهم نابعًا من شرع الله الذي ارتآه لعباده ، وكانت دعوته هذه خطوة أولى للتبشير برسالة الإسلام في ربوع الأرض كلها ، ليكون شريعة الأرض كلها ، ولا يخفى أن لحياته الأولى - ثم لاتصاله بالرافعي - أثرًا كبيرًا في ذلك ، وقد بدت تباشير آرائه من الصغر ، وظل يحملها بعد أن تبلورت الأفكار في ذهنه ، واتضحت لديه المفاهيم الدينية والاجتماعية ، والتربوية والسياسية ، فكان ممهّدًا لطريقها ، مذلّلا صعابها فيما سطّره قلمه ، وفيما قام به من أوجه النشاط سواء في النقابة ، أم في الاتحادات ، أم في الرحلات إلى كثير من بلاد العالم شرقيها ، وغربيها وكان سعيه فيها لا يقل عن دعوته فيما خطته يمينه من مقالات وكتب .

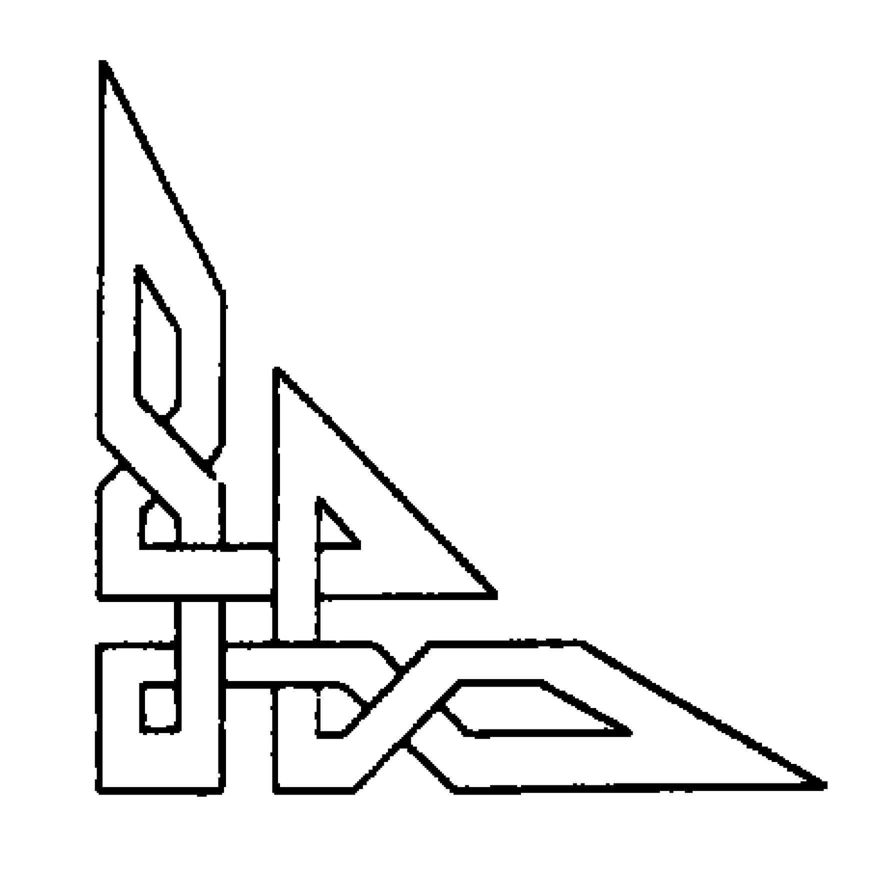
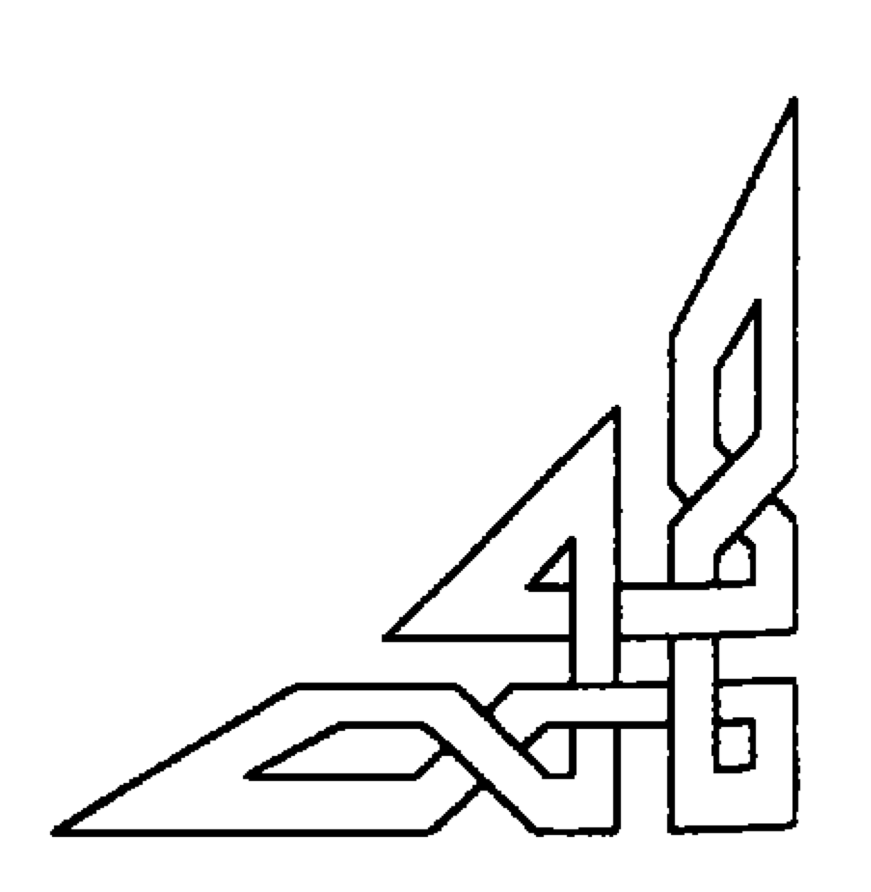
***

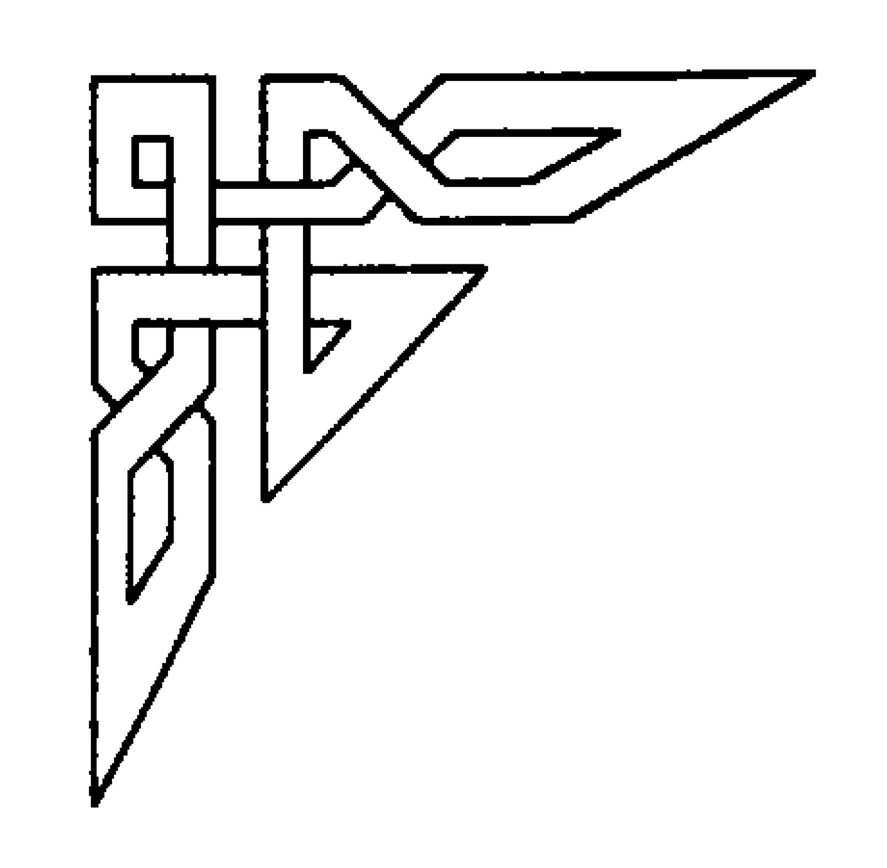
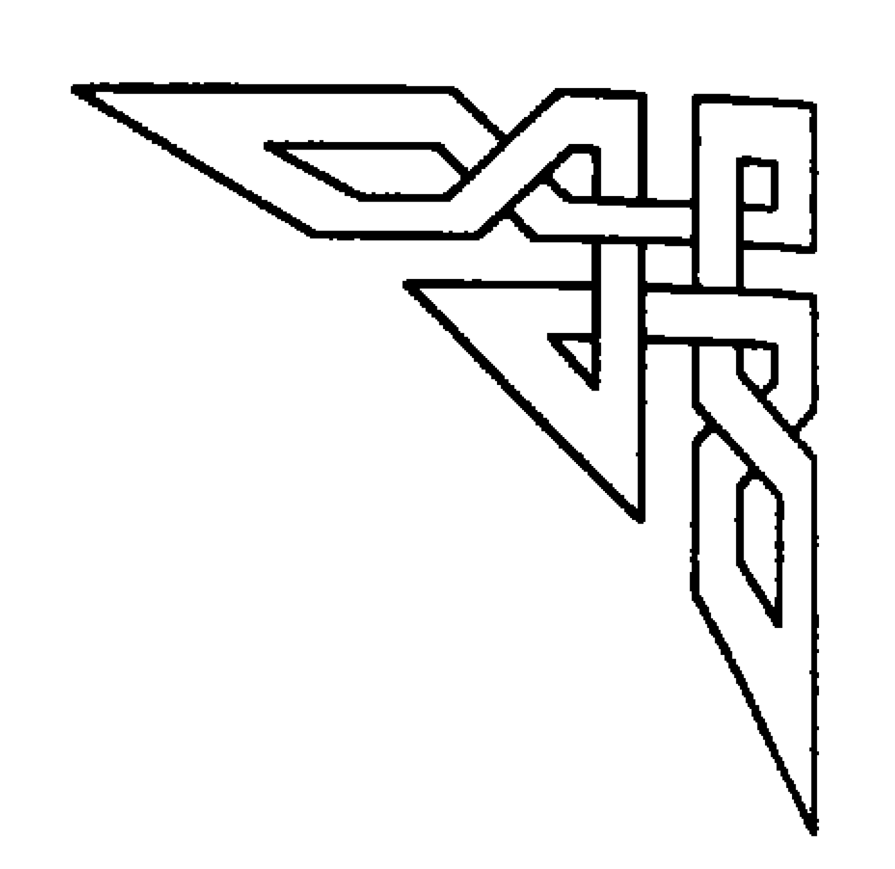
(١) ينظر أعماله الرسمية وغير الرسمية .

الباب الثاني

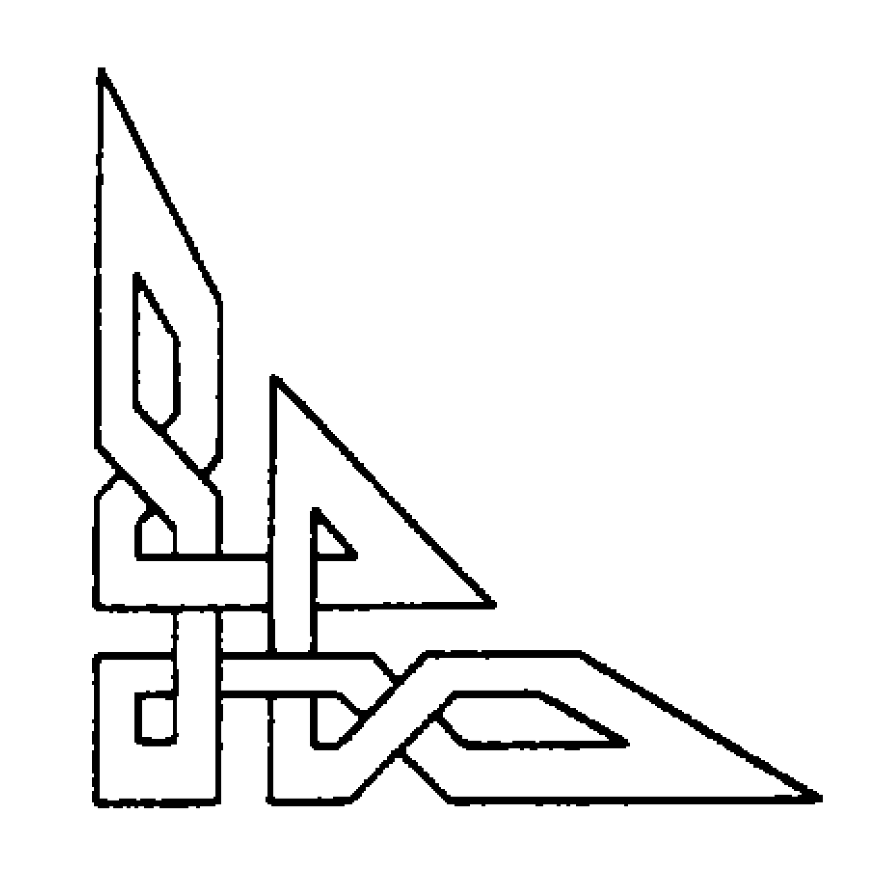
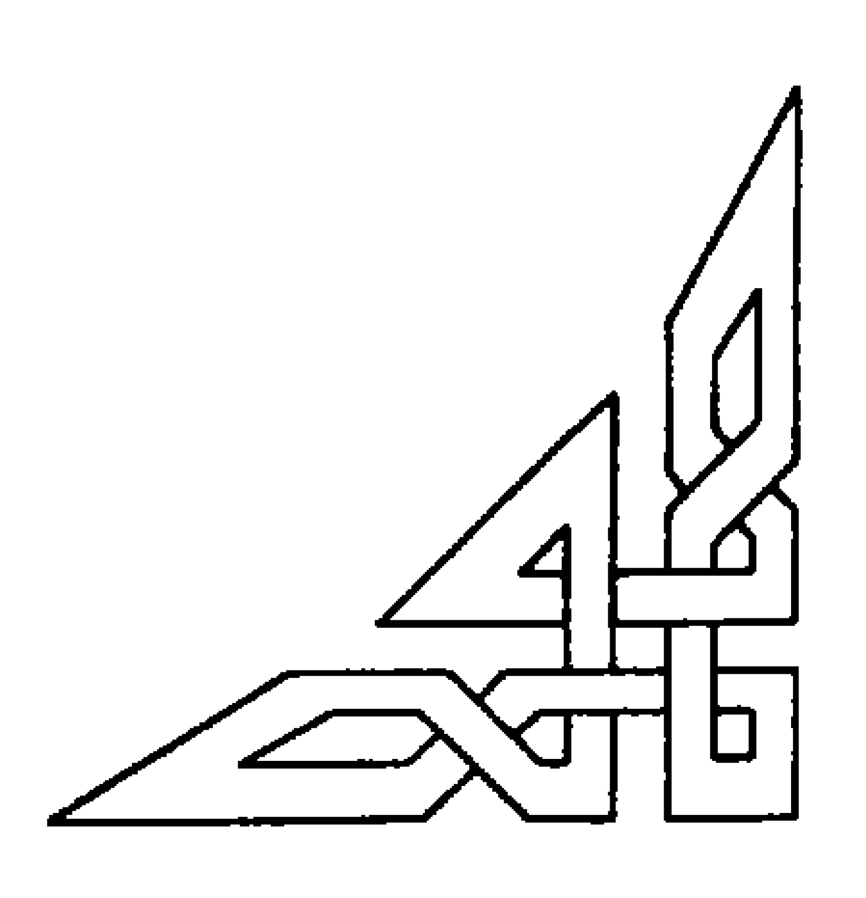
فن المقالة والسيرة

الفصل الأول

المقالات وما يلحق بها

المقالات وما يلحق بها

أولاً : المقالات :

بدأ محمد سعيد العريان منذ عام ١٩٣٥ يكتب مقالاته في مجلة الرسالة، ثم في مجلة الثقافة ، ثم توالت في مجلات وصحف أخرى ، معبرة عن مشاعره وأحاسيسه الذاتية والاجتماعية ، ولا سيما ما يتعلق منها بزوجه مذ خطبها حتى توفيت وخلفت له أولادًا ثلاثة هم البقية الباقية التي تذكره بها كلها حاول أن يتناسى ما به من عميق الجراح .

وتسهيلاً للدراسة سأعمد إلى تقسيم مقالاته إلى ذاتية وموضوعية لأنها لا تخرج عن هذين النوعين ، وكثيرًا ما تداخلا حتى ليصعب التمييز بينها لولا طغيان أحد العنصرين على الآخر ، ويندرج تحت كل منهما أقسام أخرى .

١- المقالة الذاتية :

وهي عند أديبنا ترجمة صادقة لما كان يحس به في أعماق نفسه ، وسويداء قلبه من أشجان وأتراح ، وسعادة وهناءة تجاه فتاة أحلامه أولاً ثم زوجه ، وأم أولاده ثانيًا ، ثم فقيدته التي واراها الثرى بعدما خلفت له ذكريات ممضة ، وأولادًا ثلاثة أخيرًا ؛ لكنها لم تقتصر على نفسه ، وإنما اتسعت حتى شملت الأوضاع السياسية والثقافية والأدبية لوطنه ولعصره ، ومن هنا أمكن تقسيمها إلى أنواع أربعة هي :

أ- مقالة الصورة الشخصية أو الذات .

ب- المقالة التأملية .

ج- مقالة الرحلة .

د- المقالة السياسية .

أ- مقالة الصورة الشخصية [١] :

خصائصها : تتحدث هذه المقالات في جملتها عن السنة الأولى في حياته ، ثم ما بعد وفاته ، وتصور آلام الوجد والفراق . وهموم الأولاد . والمصاعب التي يلاقيها من أجل تربيتهم بعد ما خلفتهم أمهم في مثل عمر البراعم ، ولذلك يغلب عليها طابع الحزن ، ويبدو أن كل شيء كان يذكره بفقيدته حتى مهرجان العلم الذي أقيم في الإسكندرية ، البلدة التي لفظت فيها آخر أنفاسها تحوّل عنده إلى مأساة مذ لمح معالمها ، حتى الطبيعة فيها غدت حزينة باكية لمصابه الأليم . ومن هنا كان مقاله هذا يترجم عن أشجانه وأحزانه .

وهناك مقال «هكذا علمتني الحياة» يصور فيه الأديب جزءًا من حياته الأولى يوم تقدم إلى امتحان الشهادة الابتدائية . فتحالف ضده أعداء الوطن ليخلفوه في صفه ، وقد أتى به مذيلا بعبارة قدّمها إلى القراء ليكون عظة للمعتبرين ، فلا يقطنوا من رحمة الله ، وحتى يوقنوا أن كل عسر لابد ذاهب ، وأن بعد كل ضيق فرج يتبعه ، وأن المصائب قد تؤدي بصاحبها إلى المجد والسؤدد .

ويبدو الأديب في هذه المقالات أحيانًا إنسانًا تربع على كرسي الحكمة ، ليعلم الناس من تجاربه وخبراته [٢] .

وهو فيها رومانسي النزعة ، وأقصد بذلك ما كان يعبر به عن أحزان

---

(١) وهي حسب التسلسل الزمني للتأليف : مقال دعيني أنام : الثقافة س ٩٣٩ ع ٢٩٢ ص ٢٦٠ ، حديث رمضان س ١٩٤٢ ع ١٩٥ ص ١٥ ، صحيفتي : الثقافة س ٩٤٢ ع ١٩٦ ص ٢٠ ، بيوت الطلبة : الثقافة س ٩٤٢ ع ٢٠٧ ص ١٢ ، بعد عام ولدى : الثقافة س ٩٤٣ ع ٢١٢ ص ٢١ . في مهرجان العلم : الثقافة س ٩٤٣ ع ٢١٦ ص ٢٠ ، هكذا علمتني الحياة : كل هزيمة يمكن أن تتحول إلى نصر : مجلة بناء الوطن س ١٩٦٢ ع ٤١ ص ٢٠ .

(٢) كما في مقال دعيني أنام .

عميقة تشاركه فيها الطبيعة فتبكي لبكائه ، وتعصف لقلقه ، ووجيف قلبه [١].

وقد برزت الناحية الموضوعية في ثنايا بعض مقالاته ، وذلك في اتجاهها إلى الناحية الاجتماعية ، أو الثقافية ، أو السياسية [٢] .

وتبتدئ معظم مقالاته بعبارة موجزة مشوقة ، أما العرض فقد قسم إلى فقرات عمد منها إلى تثبيت المعنى في ذهن القارئ وتوضيحه ، ونلمح التسلسل المنطقي في هذا التقسيم فكل فكرة تؤدي إلى أخرى ، وتكون نتيجة لما سبقها .

ويمتاز أسلوبه الأدبي بالسهولة والبساطة الملائمة لمستوى الجمهور ، مع التدفق المعبر عن ثورة نفسية كامنة في أعمق أعماق نفسه الكليم . والألفاظ ملائمة لمعانيه في جرسها ومعانيها ، وتراكيبه محكمة ، كما يمتاز بالتصوير البارع للمواقف والشخصيات .

وتمتاز عناوينه بتعبيرها عن المضمون الذي يظهر على مسرح المقالة .

وهذا مقال «بعد عام ! ولدي» يوضح هذه الخصائص أجلى توضيح.

بعد عام ! ولدي

يتحدث هذا المقال عن أحزان الأديب في عيد ميلاد ابنه ، وعن مشاعره نحو هذا الذي لفظت أمه بولادته آخر أنفاسها ، قبل أن تكتحل عيناها بمرآه ، أو تكتحل عيناه بمرآها ، فلقد تلقاه من يدي حاضنته إثر مولده حزينًا أسوان ، لم تنبس ببنت شفة ، وكذلك هو ، وشرع يبكي بلا دموع ، والطبيعة من حوله تعصف وتزمجر كقلبه المضطرب الخافق .

هذا صغيره يخرج إلى الدنيا وليدًا بلا أم ، كالمسيح ، شمّ أنفاس حياته الأولى بلا أب ، ومع هذا كان الثاني أسعد حظًّا من ابنه ، لأنه وجد

---

(١) كما في : ولدي ، حديث رمضان . في مهرجان العلم .

(٢) كما في بيوت الطلبة ، في مهرجان العلم ، هكذا علمتني الحياة .

الأم الرؤوم ، والثدي الراضع ، على حين فقدهما طفله ، فلقد عافت نفسه الرضاعة بعد أن فقد الحنان ، حتى ذوى عوده ، وغدا يتململ بنظرة خرساء لا حس فيها ولا عاطفة ، كإنسان آلي .

ومما زاد في أشجان الأديب سؤال ابنتيه عن القادم الجديد الذي زاد الأسرة فردًا ، ولم يذكر أنه ابنه إلا في تلك اللحظة ، أهذا هو ابنه الذي ظل يتغنى به أزمانًا طويلة ، وينشده في يقظته وحلمه قبل أن يكون له زوج تحلم به هي الأخرى ؟ لقد حلّ الشقاء بمقدمه لأن سعادة الآباء بالأبناء لا تتحقق إلا بوجود الأم ، ومن هنا لم يعد يحس في قلبه حنانًا إلا كإحساس الغرباء ، ذلك لأنه كلما التفت نظرته بنظرته ذكر أمّه فاكتوى بنار الحزن ، وها هو ذا يوم عيده ، إنه يوم المأساة والفاجعة إن روحه لتضطرب اضطراب الرياح الهوج في الشتاء القارس من ألم الذكرى ، ولوعة الفراق ، إنه ينظر إلى صغيره على حين كان هذا يمدّ بصره إلى البعيد البعيد وكأنه ينظر إلى ما وراء الغيب ، ولكن ما باله وهذا ، لقد اقترن عيده بيوم الحداد ، فليفرح أو فليضحك أو فليبك فليس للحياة طعم بعد فراقها .

ويتوجه الأديب إلى صغيره بالنصح : ألا يحترس من شيء ما دام القضاء إذا حُمّ سيقع لا محالة ، فما الحذر ، والأمل ، والخشية إلا أسماء سماها الناس ليعيشوا في عالم الوهم ناسين أو غافلين عما كتبه الله عليهم ، وسواء عليه أوعى هذه النصيحة أم لم يَعِها فإن الحياة ستعلمه ، وليكن بعدُ ما يراد له .

ثم يعتذر إلى غلامه عما بدر نحوه ، فهو قد دبَّجَ له من قبلُ كلامًا غير هذا ، يوم كان أمنية من أماني القلب ، لكن القدر سبقه ... ويودعه أخيرًا ليذهب إلى حيث الملتقى القريب النائي ، ليحدّث مَنْ ضمّ الثرى جسدها ، ويبثها أحزانه ، لو كانت تسمع وتعي !

ولقد استهلّ الأديب مقاله هذا بخاطرة ألمت ذهنه ، وذكرى ، إن في

مثل هذا اليوم كان مولد طفل ، هو ابنه ، ومن هذا التعبير الذي صدّر به مقاله تتضح لا مبالاته به أو بعيده ، فنتطلع إلى السر الكامن وراء هذه اللامبالاة غير المعهودة تجاه فلذة الكبد ، ويزيدنا تشوقًا وتشوقًا إلى ذلك وصفه وحيده وصفًا لا يدل على حنان أو عاطفة ، إنه قطعة من لحم تزداد وزنًا مع الزمن ، وتذكره بأيام وحوادث ، ومن هنا كان دخوله في العرض ، لقد كانت ولادته في يوم بؤس وشقاء في يوم وفاة شريكة عمره .

ولقد استعان الأديب ليعرض أحاسيسه ومشاعره بعدة أمور منها التلميح بقصة السيد المسيح ، ثم المقارنة بينه وبين ابنه ، وتفضيل حياة الأول على الثاني لما لقيه من حنان الأم وعطفها .

ومنها وصفه له بقطعة لحم تزداد مع مرور الزمن ، ومنها ثقافته حين شبهه بالآلة الصماء الخرساء ، لا حس فيها ، ولا عاطفة ، فكأنه صنع كيميائي بارع خرج جسمًا ذا حركة آلية ، ثم لا شيء ، بعده من إنسانية الإنسان ، أو من طبيعة الكائن الحي .

ومنها أمر بدهي فطر الله البشرية عليه ، فكل الناس يشعر بالحنان واللهفة تجاه ابنه إلا أديبنا الذي فقد حين فقد أمه ، كل معاني الحب والرحمة والإنسانية .

والأديب في هذا المقال مشتت اللب ، تقوده عاطفة حزينة ثائرة ، مصطرعة في نفسه ، ولكن هذا الاصطراع ، وتلك الثورة ، وذانك الحزن لم تفسد نهجه وأسلوبه ، بل كانت كل فكرة تؤدي إلى ما بعدها ، وهي في الوقت نفسه نتيجة لما سبقها . ونستطيع أن نقسم المقال إلى قسمين ، يتحدث أولاهما وهو الأوسع عن حياته الأولى قبل عيد ميلاده . وثانيهما : عن حاله معه في ذلك العيد ، ونصائحه . وهذا التقسيم يضفي على النص جمالاً ويجعل الخطة محكمة مرتبة . أما خاتمته فكانت ملائمة للموضوع فهو يودع ابنه في يوم الحداد والعيد ليذهب إلى زيارة زوجه بعد أن جعلنا نعيش لحظات ممتعة بما فيها من

ألم حرّك المكامن الشجية ، وهزّ أوتار النفس ، وأثارها بالجزئيات التي وصفها وصفًا ممتزجًا بحرارة العاطفة ، وبما باح به واعترف من حزن عميق دفين ممض حتى أشبه مقاله القصيدة الغنائية في حديثها عن الأشجان والأتراح ، وهو يترك نفسه على سجيتها لتظهر تأثراته وأحاسيسه بأسلوب رائع - وهذا من أهم مميزات المقالة الشخصية ، يقول مقبول أحمد : «هي في حدّها الدقيق لا تخرج عن أن تكون تعبيرًا فنيًا لتجارب الكاتب الشخصية ، ولكنها في أحسن حالاتها لون من الاعتراف مبعثه ما يجتاح أعماق المقالي من مشاعر تحركها نظرته الفاحصة إلى ما حوله ، والكثير من النقاد يرون أنها عمل فني متكامل يشبه القصيدة الغنائية» (١) .

ولئن كانت عاطفته شجية ، فإن صدقها ، وبساطة التعبير عنها يوحيان بأنه إنسان مرهف الإحساس ، شديد الإخلاص ، والحب لشريكة حياته ، حبًا جعله يكره ابنه ويتشاءم من مقدمة في يوم وفاة أمه . ولقد ساعدت إشارات التعجب والاستفهام على تقوية العاطفة والسمو بها ، ونراها في قوله :

«أكان يدري أن الصورة التي ضمّ عليها أجفانه لن تتراءى له بعد ، فأمسكها أن تفلت ، وأغمض عينيه ؟ ياليته ، ولكنه لم يرها ... وخرج إلى الدنيا بلا أم ، ما حاجته بعد إلى أن ينظر ويرى ؟» (٢) .

وقوله :

«وجثوت إلى جانبه أبكي بلا دموع ، وكانت الريح تعصف ، والدار خالية ، إلا من طفل رضيع ، وأب سقيم ، وذكرى أم !!» (٣) .

وكذا زاد إثارة العواطف وصفُه لنفسَه ولابنه ، والطبيعة من حولهما في ذلك اليوم ، فهو زوج محب ، وفيّ ودود ، يرى سعادة الآباء بالأبناء لا

---

(١) مقبول أحمد : المقالة الأدبية في الأدب المصرى الحديث . رسالة .

(٢) الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢١٢ ص ٢١ .

(٣) انظر السابق

تتحقق إلا بوجود الأمهات ، وهو رجل تؤثر عليه الأرزاء والخطوب فتضني جسده ، وتنهك أعصابه ، وتجعله كالريح العاصفة لا يهدأ لها قرار وهو يبدو كمن يكره ابنه ولكنه مع ذلك راضٍ بقضاء الله وقدره مؤمنٍ به إيمانًا عميقًا ، وإن طغى الحزن على الصبر فباح واعترف .

أما ابنه فقد عاف الرضاعة لأنه لم يجد بها الحنان والعطف والوئام ، وأخذ يذوي ، وكَمَن مشاعره ، وبدا كآلة عجماء بلا أحاسيس ولا عواطف .

وكأن الطبيعة أحست بالأحزان فشاطرته آلامه ، فعصفت ورعدت ، وهاجت رياحها كقلبه المضطرب الدامي ، وأصبحت موحشة مخيفة كالدار التي حلت بها المصيبة لا أنيس فيها ولا بهجة ، وكنفسه التي خلت من كل بهجة ومسرّة .

وكذلك كان للخيال أثره في إثارة العواطف . وإيضاح الفكرة ، فالمشاهد تترى متتابعة تصور حاله وحال ابنه ، فلقد أصابه الجمود بعدما طرق مسمعيه نبأ وفاة زوجه ، ثم تقدم إلى صغيره ليحادثه ويسائله ، ويحاول أن يُبكيه ليفتح عينيه . ثم يحتضنه . ويضعه في مهده ، والريح تعصف من حوله ، والدار مقفرة كقلبه :

«في مثل هذا اليوم منذ عام تلقيته لأول مرة من يدي حاضنته صامتين ، لم أنبس ولم تنبس ، مطرقين لم أسأل ، ولم تجب .. وخلوت إليه أحاول أن أستنبئه فلم ينبئني ، وأدنيت وجهًا من وجه أحاول أن ألمس أنفاسه فلم يلمسني ، وشددت يدي عليه أحاول أن أبكيه ليفتح عينيه فلم يبك ، ولم يفتح عينيه ... أكان يدري أن الصورة التي ضمَّ عليها أجفانه لن تتراءى له بعد ، فأمسكها أن تفلت وأغمض عينيه ؟ ياليته ، ولكنه لم يرها .. وخرج إلى الدنيا بلا أم .. ما حاجته بعد إلى أن ينظر ويرى ؟

تعال إلي يا ولدي إنني أنا أبوك وأمك منذ الساعة ، إن كان لكل طفل في الحياة أب وأم ! وضعته بيديّ في مهده الأول ، وجثوت إلى جانبه

أبكي بلا دموع ، وكانت الريح تعصف ، والدار خالية . إلا من طفل جائع ، وأب سقيم ، وذكرى أم !!» [١] .

وقد تصور كلمة ما لم يصوره مشهد . فكلمة «زفيف» تصور مدى الاضطراب النفسي الذي كان يحس به في يوم الذكرى ، هذا الاضطراب والتحرك أشبه تحركات الرياح العاصفة : «تناولته اليوم بين يدي ، وفي قلبي مثل زفيف العاصفة من لوعة الذكرى» [٢] .

وكذلك «جثوت» في قوله : «وضعته بيدي في مهده الأول ، وجثوت إلى جانبه أبكي بلا دموع» [٣] فهي تصور مدى الجمود الذي أصيب به فكأنه خشوع سيطر على مشاعره فغدا كعابد وقف وقفة إجلال وصمت أمام قدرة مولاه ، ثم جثا خاسئًا يتململ خوفًا منه وإشفاقًا .

وإذا كان النص الأدبي لا يعتمد على الفكرة والإثارة فحسب ، وإنما أيضًا على طريقة تجليتهما ذلك لأنه «يقرأ للمتعة لا للثقافة» [٤] فإن لأسلوب الكاتب وصياغته أثراً في ذلك ، ولقد كان سهلاً واضحًا ، مصوّرًا . مؤثرًا يبدي ثورة الأديب الدفينة ، متدفقًا حينًا - هادئًا حينًا آخر- ولنقرأ له هذا المقطع ، فهو يبين معظم خصائصه :

«واجتمع بعد شتات ما بقي من أشلاء الأسرة المحطمة ، وسعت الصغيرتان حول مهاد أخيهما ، واحدة تدرج ، وواحدة تحبو ، وسألت كبراهما : من هذا يا أبي ؟ وعييت بالجواب ، لقد مضت أسابيع منذ كان ما كان ، ولكني لم أحاول يومًا أن أسأل نفسي من هذا الذي أرى ؟

أذلك ولدي الذي لبثت سنوات وسنوات أهتف به في يقظتي ، وفي

---

(١) المرجع السابق ص ٢١ .

(٢) ص ٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١ وانظر كذلك : دراسة الألفاظ الموحية المعبرة للمقال .

(٤) انظر رأي الدكتور «محمد أبو الأنوار محمد علي» في رسالته للماجستير : «مصطفى لطفي المنفلوطي الكاتب» ص ٥٤ .

أحلامي ، وأسأل : أين أنتم يا أحبائي ، ولكني لم أتخيل قط في يقظة أو في منام أن يكون ذلك الذي كان .

بلى إنه ولدي ، ولكن أين مني مكانه ولا أم ؟ وهل يرى الأب ولده أول ما يراه إلا في عيني أمه ؟ فأين مني ؟ وهل تكون سعادة الآباء بالأبناء إلا أن تتمثل صورتها في مرآة أربع أعين ؟ أذلك ولدي ؟ نعم . فأين صورته من نفسي ؟ وأين صورته في مرآة قلبي ؟ أئنه لكذلك ؟ فمنذا يهمس في أذنيّ بأمانيّ غده ، ويلاحيني في مستقبله ، ويشاركني في النظرة إليه ، ويباريني في العطف عليه ، ويذكرني كلما نسيت أن لي ولدًا ، وأنني أبوه ؟ ماذا من الفرق بين أبوة الأب ، وإنسانية الإنسان في العطف والمحبة ؟ أيزعم أحد أنه يدري ؟» (١) .

فهنا نرى السهولة في الألفاظ ، والوضوح في المعاني ، والتصوير في الأسلوب في سعي الفتاتين حول مهد الصغير ، وسؤال الكبرى عنه ، وفي توارد الخواطر على مخيلة أبيهما .. كما نلحظ هدوء النفس بإخباره ، ثم اضطرابها ، وثورتها في التساؤلات المتكررة التي تدل على فقدانه العطف بسبب المأساة الكبرى .

إضافة إلى هذا نرى اللفظة الموحية المعبرة ، ذات الجرس الموسيقي العذب ، واضحة في تعابيره . فكلمة أشلاء ومحطمة في قوله «أشلاء الأسرة المحطمة» توحيان بتفتت الأسرة ، وتكسر أعضائها ، وكيانها ، بحرفي الشين ، والطاء المشددة ، كما تؤديان نغمًا حزينًا صاخبًا يتبعثر ويتفرق كتفرق هذه الأسرة .

وكلمة تصطرع بحروفها القوية - بالصاد ثم الطاء - فالراء والعين توحي بهذا الصراع والعراك ، والاضطراب في نفس الأديب حين كان ينظر إلى ابنه وذلك في قوله : «طائفة من الخواطر والذكريات تهمس بين نفسه ونفسي ،

(١) الثقافة س ٩٤٣ ع ٢١٢ ص ٢٢ .

وتصطرع بين نظرة منه ونظرة مني» .

أما جمله فيكثر فيها التوازن الذي يكسبها جرسًا موسيقيًا عذبًا ، ولنقرأ قوله : «وترادفت عليه المراضع من أمهات السوق ، ووجد الدّر ولم يجد الصدر ، فعاف الرضاعة وبكى بلا صوت ولا دموع ، وذوى ولا حان ولا عاطف ، ولزم الصمت أسابيع ، لا يبكي ولا يتململ ، إلا نظرة خرساء ، ليس لها همس ، عجماء ، ليس لها معنى ، بلهاء ، ليس لها حسّ ولا عاطفة» .

فالتوازن نلحظه في :

وَوَجَدَ الدَّرَ ، ولم يَجِدِ الصَّدْر ...

وبكى بلا صوت ولا دموع

وذوى ولا حان ، ولا عاطف

ولزم الصمت أسابيع لا يبكي ولا يتململ ...

إلا نظرة خرساء ليس لها همس

عجماء ليس لها معنى

بلهاء ليس لها حسّ ولا عاطفة

أليس هذا نثرًا شعريًا ، أو شعرًا نثريًا ... إنه نثر موسيقي فيه جمال لا يقل عن جمال الشعر وفيه إيحاء لا يقل عن عزف الأنغام ...

ويكثر في مقالة الاستفهام معبرًا عن قلقه ، وقد يجيب على تساؤلاته ليبين عن عميق الجراح . وقد مرّ من ذلك شيء ، كما يؤكد معانيه كثيرًا بإن أو بالحصر . كقوله :

«إنّ ثمة شيئًا عظيمًا يفرق بين معنًى ومعنًى ، وبين صورة وصورة ، شيئًا يحسّه القلب ولا تراه العين ، وإنّ فيه لمفتاح السر الأعظم المغلق عليه قلب كل رجل وامرأة لا يفتحه شيء غيره ، وإن فيه لمفتاح السر الأعظم الذي انطوت عليه حكمة الزواج ، وإنني مع ذلك ليخيل إلي بإزاء هذا الطفل أنني رجل غير أبيه ، بلى ، إنّ له عليّ حقًا ، وإنني لأحمل همّه وأرعاه رغبة

كل ذي ولد لولده» .

ومن التأكيد بالحصر :

«مالي وإياه لا نلتقي في نظرة إلا ارتد بصري إلى الماضي في لهفة وحنين ،وارتدّ بصره ، ولا يخطر في نفسي مرة إلا دافعَتْه خواطري المتراحمة فأبعدتــه عني ؟» وهـذان التأكيـدان بـإن وبـالحصر يقويـان تعبـيره عـن أحاسيسه ، وكليم جراحه .

ومن الحكم - ويأتي بها إنسان خبر الحياة ، وله نظرة في قضائها وتدابيرها قوله لابنه :

«اضحك أو ابك ، فإنما الحياة هذان ، ولا شيء غير هذين ، وإنها بهذين لخدعة أو أضحوكة ساخرة ، وحبالة صائد ! .

لا تحترس من شيء ولا تخش شيئًا . ولا تؤمّل في شيء ، فإنما الاحتراس والخشية والأمل كل ذلك أضاحيك يسخر بها القدر من الإنسان الحي حين يتوهم أن له في الحياة إرادة .

الاحتراس والخشية والأمل - الماضي والحاضر والمنتظر ، العُدة والوسيلة والغاية - كل هذه أسماء سمّاها الناس بلا مسمى ليعيشوا على التوهم حينًا - ثم يموتوا - وما بشيء من ذلك كانت حياتهم - ولا كان الموت ، ولكن القدر المقدور منذ الأزل في صفحة الغيب !» .

فالأديب تربع كرسي الحكمة بعد ما خبر الحياة ، وعرك حلوها ومرها ليسدي إلى ابنه نصائح قوامها : أن المرء لا حيلة له ولا طَوْل أمام المقدّر الذي كتب عليه مذ قال له الله تعالى كن ، فكان ، وكل ما يراه المرء من وسائل ، أو يؤمل فيه ، أو يعيش به إن هو إلا أسماء تلهي المرء وتجعله يعيش في عالم الوهم ، سادرًا عن الحقيقة الأزلية الكبرى .

وهكذا كان الأديب موفقًا في مقاله هذا لا بأسلوبه فحسب ، وإنما بطريقة تجليته وعرضه على القراء ، وبعواطفه المتأججة التي نقلها إلينا محملة

على أجنحة الخيال المصور ، المؤثر ، المعبر عما يكمن في قلبه من عميق الجراح ، وأليم الأحزان .

ب - المقالة التأملية [١] :

سماتها :

تشبه المقالة التأملية في موضوعاتها مقالة الصورة الشخصية عند الأديب ، إذ اتخذ معظمها مطية يعرض فيها أحاسيسه تجاه زوجه ، وأولاده، ومن هنا فقد سادها الحزن ، والشكوى والألم ، حتى غدت وكأنها نجوى قلب ، وخواطر تبتعثها نظرته إلى الحياة ، متأثرة بالحوادث التي مرت عليه .

ولقد عرض مضمونها الذي يتعلق بالنفس البشرية والكون والحياة ، من وجهة نظره الخاصة ، وفتره تفسيرًا يلائم مشاعره وذاته ، وعلى الرغم من أن بعض هذه المقالات تحدّث عن أمور مجردة تتعلق بالوهم والخيال [٢] إلا أنها تدخل في نطاق هذا النوع من المقالات ، لأنه عبر عنها من خلال رؤيته لها ، ومن هنا تعد هذه المقالات تأملية لا فلسفية ، لأنه لم يتقيد فيها بمناهج الفلاسفة والمناطقة ، وإن حكت ما يحكيه هؤلاء .

ولعل مقاله «دار وحبيب» يوضح أبرز خصائص هذا النوع ، ففيه رأيه في الزمان ، والحياة ، والموت ، والحب ، والأمل ، وهاكم دراسة له وتحليلاً :

* * *

(١) ألف من هذا النوع ست مقالات هي حسب التسلسل الزمني للتأليف ذكرى ميلاد : عند الثلاثين : الرسالة س ١٩٣٤ ع ٧٤ ص ١٩٨٣ ، أين أنتم يا أحبابي : الرسالة س ١٩٣٤ ع ٧٦ ص ٢٠٤٨ ، دار وحبيب : الرسالة س ١٩٣٥ ع ٩٥ ص ٧٠١ . أين أنا : الرسالة س ١٩٣٩ ع ٢٩٤ ، ص ٣٥١ ابنتي : الرسالة س ١٩٣٩ ع ٢٩٩ ص ٦٢٥ ، شهرزاد : الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٢٦ ص ١٩ .

(٢) كما في مقال : أين أنا .

دار وحبيب!

«عاد الأديب ذات يوم إلى طنطا ليرى دار خطبة قد هدم جزء منه ، وأنشئ مكانه مقهى ، ورأى كرسيًا ومنضدة في الركن الذي كانا يجلسان فيه ، فتأثر وحدثته نفسه أن يجلس في ذلك المكان «ويطلب شيشة يصعد بها أنفاسه الحرى ، ولكنه تحرّج ... وخشي أن تظن به الظنون» ثم كتب مقال دار وحبيب» [(١)] ، ومن هنا يعدّ هذا المقال نفثة صدر جريح ، وأنّه محب كليم على دار كانت بها أمنيته ، فلما هدمت ، وارتحل عنها أهلها بلا وداع ، تبدّد أمله ، وانتثرت أحلامه ، ولكنه مع ذلك ظل يذكرها لأنها هي المنى وهي الأمل .

وقد استهل العريان مقاله بأمنية تمناها فليته ضل الطريق إلى هذا المكان قبل أن يراه موحشًا مقفرًا متهدمًا ، لأنه كان ملتقى شبابه وأحلامه . وفيه السعادة والبهجة ، فغدا اليوم كومة من حجار ، فأين يلقى وديعته ، إن الأيام على قوتها لن تستطيع أن تبدد ذكراها من نفسه ، وها هو ذا يحس بمقدمها ، ويتسمع همس نجواها ، ويشم عبير لقاها ، ها هي ذي تخطر أمامه بأهدابها الناعسة ، ثم تولى عنه مدبرة مولية ، فيرجوها أن تعود لتصل الحاضرة بالماضي ، ولكن ... لقد اختفت ، وجاء إلى قبالته شيخ يدب على عكازة ، يتبسم ، ويخبره أنه الزمان ، فيسأله أن يرد عليه الماضي ، فيسخر منه ، فالزمان لا يرد شيئًا ، وإذا ما أصر على مطلبه فليسائل الحب أن يجيبه ، حين ذاك يدرك أن الحب خرافة تستلب الشباب طمأنينتهم ، وسعادتهم . وبهجة عمرهم ، وتخلف وراءها الندم ، واللهفة والذكرى الأليمة. وما عليه إزاء هذا إلا أن يحافظ على شبابه الذي هو أغلى ما في الوجود .

ويمضي الزمان مخلفًا وراءه أمرًا أسوان حزينًا ، يتبعه ، فيصادف شابًا

---

(١) انظر عباس خضر : غرام الأدباء ص ١١٩ .

تبدو عليه النضارة والنعيم يلقاه مسلمًا عليه فينكره . فيعجب هذا منه ، ويخبره بأنه كان رفيق صباه ، إنه الأمل الذي ظل يلازمه أمدًا طويلاً ، فيعتذر منه بجهله حقيقته ، بما ألهاه الزمان عن الذكر ، ويعيد الأمل إلى نفسه الثقة والطمأنينة ، ذلك لأنه شاب في مقتبل العمر ، وبيده مفاتيح السعادة ، وهو القادر على أن يملي على الزمن إرادته ، وهذا عاجز عن النيل منه إذا ما استمسك بالشباب والأمل ، وهنا يطلب منه العريان ما كان طلب من الزمان : أن يرد عليه الحبيب ، والأيام المواضي فينبئه أنها ما تزال على الوعد كعهدها يوم عرفها . ولئن تبدت له ثم أعرضت فإنها تدعوه لأن يتبعها ويخبره أن الحب لا يحده زمان ، ولا مكان ، فالمحب ومن يهوى معًا أبدًا ، وإن فرقت بينهما الأيام ، وإن باعدت بينهما الديار .

ويلمح الأديب زهرة تعيش بين الأنقاض تناجي أختها نجوى الحزين ، إنهما في هذا المكان رمز الحياة والموت ، وإن للجماد لحياة كحياة البشر ، وإن البيوت لحية ما دامت آهلة بسكانها ، فإذا ما هجروها غدت رمزًا للفناء والقبور .

دنا الحزين منها يستمع حديثها . وإذا بواحدة تئن وتشتكي من هذه الحياة التي جعلتها تعيش بين الأنقاض والرم - لا تنعم - ولا ينعم بها أحد، إنها تود أن تكون يومًا على صدر حريري ، وآخر في زهرية ، وليكن مصيرها بعدما يكون على حين كانت الأخرى تحمد الله على أنها تقضي عمرها هنا ، في هذا المكان ، فليس يهمها ما أهم أختها ، ينعم بها الناس ، ثم يرمى بها ، فتداس .

وبينا كانتا تتجاذبان أطراف الحديث ، إذا بريح عاصفة تحوّل الزهرة الأولى ورقات متناثرة ، فيذكر بمرآها قلبه الذي تحطم قبل أن يدرك أمنيته التي تمناها ، ويخاطبها معزيًا لها . بأنها ليست الوحيدة التي تشقى باليأس والحرمان قبل أن تنعم بالحب وتذوق لذة الأماني .

لقد كانت مقدمة المقالة قصيرة استهلها بعبارة شديدة الإيجاز تشعر قارئها بضجره لأنه افتقد الدار حين تحولت أنقاضًا ، وابتعد عنها قاطنوها ، فأين يلقاها الآن ؟ ومن هذا السؤال الممهد يدخل في العرض الذي قسمه أقسامًا تحدث في أولاها عن تخطيه الركام عله يلقى صاحبته ، بعد ما سمع همس ذكراها . ولقد تحقق ظنه - ثم خاب أمله برواحها ، فأنشج في البكاء ولم ينقذه منه إلا شيخ عجوز حطمة هو الزمان وفي القسم الثالث يلقى الأمل ممثلاً في الشباب والنضرة وأخيراً يرى زهرة يشبه حاله بحالها في الحرمان واليأس - ثم كانت الخاتمة وهي أشبه بحكم الخبير « كم من قلوب بشرية كقلبك انتثرت أحلامها بددًا على أنقاض اليأس والحرمان قبل أن تنتشي عطر الحب أو تذوق لذة المنى . عزاء لك ، ولي» .

ويلاحظ التسلسل المنطقي للنص فكل حديث تبع ما سبقه ويؤدي إلى لاحقه ، ولقد استعان الأديب لإبراز فكرته بخياله الواسع . وتأملاته الفسيحة، فشبه الزمان بشيخ عجوز حنكته التجارب ، والأمل الذي يعيد الثقة إلى قلبه بشاب باسم وضاء ، أما رأيه في الحياة والموت فقد أظهره زهرتين تتحادثان ...

والحق أن هذه التشابيه التي عرضها مشاهد حية ، جذابة ، متحركة، إن هي إلا آراؤه وتأملاته ، جلاّها بهذا الأسلوب التصويري الرائع لتفصح عما يكمن في نفسه من أهواء وأحاسيس ، ولتعكس صورته في هذه الحياة هادئًا في ظاهر أمره ، ثائرًا في أعماق أعماقه . وكذلك كان أسلوبه فيه ، وهو في تضاعيف ذلك يلقي حكمه المستمدة من خبرة مجرب في الحب والحياة والموت، على نحو قوله :

«إن للأحجار والجماد لحياة كحياة الناس ، وموتًا كالذي ماتوا ...» .

«إن البيت الآهل لحي بسكانه ما عمروه ، فإذا احتملوا وهجروه فما هو حينئذ بيتًا حيًا وإن بقيت له معالمه وأبوابه ...» .

ولقد استعان الأديب بالحوار التمثيلي يشرح به آراءه التي أجراها على لسانه ولسان الشيخ والشاب ، والزهرة ، يشرحها بدقة وتفصيل لجزئيات التجربة التي عاناها ، ليكسبها حيوية وجاذبية ، ولتكون أصدق تعبيرًا من عرضها بسرد مباشر . ومن هنا كانت عاملاً مساعدًا في إثارة النفوس ، واستجابة المشاعر ، ومشاركة القارئ من ذلك قوله :

« ذاك شيخ يدب على عكازة لوّحتها السنون . يعلو حجرًا ويهبط عن حجر فدنا مني ، وقد تقلصت شفتاه عن مثل الابتسامة . أي منظر موحش ؟ قلت : من تكون أيها الشيخ ، ومالي بك عهد ؟ قال : أنا ... ؟ ما أشد حماقة الفتيان ! أنا الزمان ! وإنما لي أن أسألك : ماذا تنشد بين هذه الأنقاض ؟ قلت : في هذا المكان أودعت شيئًا عزيزًا عليّ . إنه قلبي . أفتدري أيها الشيخ أين ألقاه ؟

هنا في هذا المكان كان لي أهل وأحبة ، وكان قلبي لديهم وديعة ، إن الدار لتشهد ، فإني لأنشد هنا قلبي وشبابي وحبي . قال : ويحك يا مسكين أتسألني ؟ أتسأل الزمان أن يرد عليك ما فات ؟

إنك يا بني تؤمن بالحب ، فاسأل الحب - إن أجاب - أن يرد عليك ما استودعته .... ما الحب يا بني إلا خرافة ، هل هو إلا أرق يراوح بين جنبيك ،ودموع تقرّح بين جفنيك ، وانتظار يستلب شبابك من عمرك ، وحنين يسترق يومك من تاريخك . غيرة تسلبك الطمأنينة والقرار ، وشكّ ينبت في صدرك الشوك ، وهل هو من بعد إلا الندم واللهفة والذكرى ؟ أفرأيت شيئًا من ذلك يعدل ساعة من ساعات الشباب ، أو يرد عليك سعادة من سعادات الماضي ؟ هيهات يا بني .. هيهات ....

ومضى الشيخ على وجهه وإن في صدره لسرًا» .

فها نرى الأديب يعرض في حواره آراءه في الزمان ، والحب ، وقد جاء حوارًا حيوياً رشيقًا موضحًا للشقاء الذي يحل بمن يبتلى بداء الوجد ،

مؤثرًا ، يتغنى فيه صاحبه بآلامه وآماله ، بل كان هذا أسلوبه في المقال عامة ، إلى بساطة وسهولة ، وجاذبية وجمال ، وتشويق ، وحكم .

وألفاظه واضحة ، دقيقة التعبير ، جميلة الوقع ، في تراكيب قوية محكمة وعبارات منتظمة موقعة توقيعًا متناغمًا ، ولنقرأ له هذا المقطع الذي أشبه الشعر في إيقاعه المتناغم :

«ما الحب يا بني إلا خرافة»

«هل هو إلا أرق يراوح بين جنبيك»

«ودموع تقرح بين جفنيك»

«وانتظار يستلب شبابك من عمرك»

«وحنين يسترق يومك من تاريخك»

«وغيرة تسلبك الطمأنينة والقرار»

«وشكٌّ ينبت في صدرك الشوك»

وكنا رأينا الأديب في المقال السابق يؤكد بإن ، وبالقصر ، وهنا في هذا المقال يعمد إليها وهذه الميزة من خصائص أسلوبه عامة .

ويكفي أن أشير إلى أن هذا المقال كتبه متأثرًا بفراق خطبه تلك التي انتظرها بضع عشرة سنة ، وفيًا لها ، مخلصًا ، ووجه إليها ومن أجلها معظم مقالاته ، حية ثم متوفاة ، محملة بعواطف سامية ، رقيقة ناعمة ، أو شجية باكية ، يكفي هذا لكي نعرف الدافع إلى عاطفته القوية هذه ، ومدى عمقها في نفسه .

وأخيرًا يعد هذا المقال من أروع مقالاته التأملية ، لما حواه من خيال واسع ، وحوار تمثيلي ، وأسلوب بليغ في سهولة ويسر . وعاطفة صادقة بعيدة التأثير ، وهذا من أهم متطلبات هذا النوع كما ذكرها محمد يوسف نجم [1] .

---

(١) انظر محمد يوسف نجم : فن المقالة ص ٩٨ - ٩٩ .

جـ- مقالة الرحلة [١] :

مميزاتها :

تخطى الأديب ذاته وأهله ، وعبّر عن أحاسيسه تجاه فلسطين البلد الجريح ، إثر زيارته لها بمناسبة مرور عام على وفاة أستاذ الرافعي ، وسجل في هذه المناسبة مقالين تحدثا عن صلة القربى بين البلدين ، وعن شعب موطن الرسالات المناضل ، الدؤوب نحو الجهاد والعلم ، أما الثالث فقد عبّر به عن مشاعره تجاه بعض الفلاحين السذج .

وفي هذا النوع من المقالات يبين الكاتب أسباب الرحلة ، والطريق إليها ، ثم يتحدث عن مشاعره تجاه جماعة من الناس . أو شعب من الشعوب ، وما يحس به من روابط تربطه مع هذا الشعب أو تلك الجماعة ، فهو لهذا تعبير صادق عما يكنه لهؤلاء الناس من حب أو كراهية ، أو عطف أو سخط ، ويمتاز أسلوبه فيه بالبساطة القريبة من الحديث العادي ، وباليسر والسهولة ، وبالعاطفة الثائرة في الفرح والألم ، وبتصوير المواقف تصويرًا حيًا متحركًا ، وبالتحليل النفسي للشخصيات التي يتحدث عنها ؛ ولعل مقاله « من ذكريات شم النسيم» خير شاهد لما اشترطه النقاد في هذا اللون الأدبي من ضرورة تسجيل تأثرات الكاتب وانطباعاته نحو عالم جديد لم يألفه فهو « مغامرة ممتعة تقوم بها روح حساسة في أمكنة جديدة ، وبين أناس لم يكن لها بهم سابق عهد ... والرحالة يسحب صفاته الفعلية والنفسية على تلك المشاهد ... ويجمع الملاحظات ، ويقارن بينها ،فيخرج منها أكثر فهمًا وأصدق ملاحظة .. وأغنى ثقافة ، وأعمق تأملاً» [٢] .

---

(١) وقد ألف ثلاث مقالات من هذا النوع ، مقالان بعنوان أسبوع في فلسطين نشرهما في مجلة الرسالة س ١٩٣٨ ع ٢٥٥ ص ٨٦٨ وع ٢٥٦ ص ٨٩٨ ، والثالث بعنوان : من ذكريات شم النسيم : يوم لا أنساه : الرسالة ع ٣٠٢ ص ٧٧٢ .

(٢) فن المقالة ص ١١٦ .

من ذكريات شم النسيم
يوم لا أنساه

يستهل الأديب مقاله بعبارة موجزة تبين سر تذكره لما حدث في يوم الاحتفال بعيد شم النسيم . وقد مضى عليه أمد طويل ، ثم ينتقل إلى توضيحه فيحكي لنا صداقته مع مدرسي اللغة العربية في طنطا . واقتراح أحدهم قضاء هذا اليوم خارج المدينة واجتماعهم قبيل الشروق للرحيل إلى الحقول النضرة ، وهناك كانت الشمس تداعب عشاش الطيور . والندى يلمع على أوراق البرسيم ، وقد جلسوا عند مصلى كبير قرب المدينة . وأخذ الطرب منه مأخذه ، فخلعوا عن كواهلهم وقار الشيوخ . وتزمت المعلمين ، وحملوا أمتعتهم وطعامهم اثنين في معطف أبيض . وتفرّغ الباقون للضحك والمزاح . ثم أخذ العريان وصديقه زهران يعدوان متسابقَيْن لكن كلمات نابية طرقت مسمعيهما جعلته يعزم العودة إلى رفاقه ، وأخذت صديقَه العزّةُ . فعاتب - فتشاجر . وسالت الدماء . وعلت الصيحات ، وأسرع أهالي القرية لإغاثة أبنائهم . وهرع الصحب لنجدة رفيقهم . حفاة ، عراة الرؤوس . وما كان سعيهم إلا لينالوا حظهم من العصي الدامية . وبعد لأي وجهد تمكن العريان وصحبه من العودة إلى المصلى يتبعهم جمهور غفير من الفلاحين ليقبضوا على أمتعتهم ، وليخرجوا زجاجات ماء ، وشرعوا يسبون ظنًّا منهم أن فيها خمرًا يتناولها فساق فجار في بيت من بيوت الله ، وفي وجه كل منهم أثر يشير إلى ما كان ، وتعاهدوا على الكتمان ، وكان لهم ما أرادوا لولا أن العمدة حضر إلى مدارسهم ليكرر اعتذاره ، وما حلّ المساء حتى شاع الخبر ، وأذيع وشمت الشامتون وكذلك الرافعي الذي أخبرهم بأن الله تعالى أدان سمعتهم لأنهم حفلوا بعيد غير إسلامي ، أكثر مما يحتفلون بمطلع شهر المحرم . وكانت هذه وصية أب مؤثرة . جعلته يقلع عن هذه العادة .

لقد كان مطلع المقال عبارة تشويق بتساؤلها عن معرفة السبب ، ثم حديث عن الصداقة لا يلائم المقام . ولا سيما وأنه طال دون أن يكون له تأثير في العرض ، ويأتي هذا ليبين تهيؤهم للرحلة ، وإعراض الرافعي عن مشاركتهم في الابتهاج بهذا العيد . ثم مناظر الطبيعة الخلابة ، وما فعلوه في منتصفها إلى أن تشاجروا هناك .. وهو عرض يسير الهوينى ، متزنًا في مقدمته ، مثيرًا في إضحاكه بوصف صلعة الأستاذ زهران ، وحمل الأمتعة ... وقد جاء عرضًا متسلسلاً منطقيًا ، فكل حدث يؤدي إلى ما بعده ، وهو في الوقت نفسه نتيجة لما سبقه ، واستعان الأديب لوصف رحلته ، وتوضيح فكرته ، وإثارة الآخرين بوصف الطبيعة والناس في مرحهم وحزنهم ، وفي نشوتهم وألمهم ، وفي ثورتهم وهدوئهم ، كما استعان بالإرهاص الذي يشير إلى ما سيكون دون أن يصرّح به نحو رغبتهم في قضاء متعة بريئة في هذا اليوم . فكلمة بريئة تشير إلى أنهم يبتعدون عن المحرمات التي يرتكبها بعض الناس في أمثال هذه الأيام ، كما عمد الكاتب إلى تحليل الحوادث بتبيان أسبابها ونتائجها ، فهم قد حملوا زجاجات ماء ليشربوه زلالاً ، فكانت مفتاح الشر ، وقد حلل الأديب نفسية هؤلاء الفلاحين السذج ، فهم على طيب قلوبهم ورحابة صدورهم يثارون لأقل شائعة ، ويصمون من يقع في حبالهم بأشد المنكرات . وينجدون ظالمين أو مظلومين ، دون أن يحتكموا إلى عقل أو منطق . أما عمدتهم ، وأولو الرأي فيهم ، فقد جعلتهم خبرتهم فى الحياة يتبينون الأمر قبل أن يصدروا أحكامهم ، كما نلمح تدين الفلاحين ، وتوقيرهم دور العبادة ، وحفاظهم عليها أن ينالها عبث العابثين .

وكانت خاتمة الرحلة مناسبة مع ما قدّم من صفاته وصفات زملائه ونصيحة الرافعي لهم .

على أن شخصية الكاتب كما تبدت من خلال النص كانت شخصية رجل متدين ، يحب العلم ، ويسعى في سبيله سعي العابدين إلى ذكر الله ،

وهو نشط دؤوب عمد مع بعض صحبه إلى إنشاء ندوة يتداولون فيها أمور الأدب ، وهو أيضًا رجل جد ووقار ، لكنه يحب النكتة . وظهر هذا في بعض عبارته نحو وصفه صلعة الأستاذ زهران ، ينأى عن الشر ، وذيوعه حفظًا لكرامته ، ويستمع إلى نصح الناصحين .

وكان الوصف جذابًا مشوقًا ، فالطبيعة في أواخر الربيع ذات مناظر بهيجة ، فقطرات الندى (تلمع على أوراق البرسيم صافية تترقرق ، وأشعة الصبح تداعب عشاش الطيور في أعالي الشجر ، والنسيم الرقراق يهمس في آذاننا بشرى ميلاد يوم جديد من أيام الربيع الضاحك) .

ويمتاز أسلوب الأديب بالخاصة التصويرية ، فهو يرسم لنا صورًا جزئية ومشاهد متتابعة تعبر عن حاله وصحبه ، وعما حدث لهم ببساطة ، ووضوح ، وبأسلوب رقراق منساب مثير تارة ، هادئ أخرى ، فصلعة زهران بدت تحت أشعة الشمس مصقولة لامعة ، لا تتيح للناظر أن يستبين مقدمة رأسه ، وهما وقد أحيط بهما لا يجدان سبيلاً إلى الخلاص ، والعصي تتابع فوق رأسيهما وبدنيهما ، ولا يستطيعان أن يحتميا إلا بأيديهما ، يعقدانها فوق رأسيهما لتكون لهم مجنة تقيهما شر الضربات القاتلة ، وبأرجلهما يسلمانها للريح ، والقوم يلاحقونهما بالحصى والحجارة ، وأصحابهما يحاولون إغاثتهما فيهرولون حفاة عراة الرؤوس لينالوا نصيبهم من الضربات .

ومن الصور الجزئية المعبرة «على سبيل الاستعارة المكنية والتشخيص» وصفه أشعةَ الشمس كأنها إنسان يداعب الطيورَ في أعشاشها ، والنسيمَ امرأً يهمس في الآذان مبشرًا بقدوم عيد جديد وذلك في قوله :

«وأشعة الشمس تداعب عشاش الطيور في أعالي الشجر ، والنسيم الرقراق يهمس في آذاننا بشرى ميلاد يوم جديد» .

أما الوقار فقد غدا «على سبيل التجسيم» جسمًا ثقيلاً له وزن : « وتخففنا من بعض ما كنا نحمل على كواهلنا من وقار» .

وتبدو العاطفة متنوعة بين فرح ونشوة وسرور في أحضان الطبيعة الباسمة ، وحزن وألم بعد المصاب الجسيم ، وبين عاطفة إنسانية تتعاطف مع سذاجة الفلاحين ، ودينية تهجر الاحتفال بهذا اليوم بعدما استجابت للذكرى ، وهي جميعًا على تنوعها تبدو قوية ثائرة في حالتي السرور والحزن ، صادقة ، ولا أدل على ذلك من أن ذكراها لازمته ست سنوات ثم خلّدها في هذا المقال مؤثرة حية بعد أن لقنته درسًا لا ينسى .

على أن أسلوبه الذي امتاز ببساطته ، ووضوحه ، وميله إلى السهولة التي أشبهت الحديث العادي يُشارك الفكرة والعاطفة في إثارة القراء ، ولا سيما أن هذا المقال مقدّم لقراء عاديين أكثر منهم مثقفين لما فيه من نكتة ، وبعد عن العلم والمعرفة ، فهو في حقيقته انطباع وتأثر من حادث ، سطّره على صفحة المجلة ليتيح المجال للقراء أن يستمتعوا معه بعض اللحظات أولاً ، وليأخذوا منه ثانيًا درسًا وعظة من الحيطة والحذر والتقوى والخشية من الله ، وهذا نص يوضح نموذجًا من أسلوبه في هذه المقالة :

«وبلغنا المصلى ... وخلفنا أحذيتنا ، وتخففنا من بعض ثيابنا ، واتخذنا من أغصان شجرة الصفصاف مشجبًا نعلق عليه من طرابيشنا ومن ثيابنا ... واشتغل كل بشأن ، وخلع «زهران» طربوشه فبدت صلعته مصقولة لامعة تحت أشعة الشمس . فما تعرف أين ينتهي جبينه ، وأين يبدأ رأسه ، وكانت مادة حديث .. وتثاءب زهران وتمطى ، وقال لي : هل لك أن تسابقني عدوًا على هذا الطريق ؟ فأجبته إلى ما دعا .. ولم أكن أعلم أن ثمة شرًّا يتربص وأخذنا نعدو ليس في أرجلنا نعل تقينا وخزات الحصى ورأسي عارٍ إلا من الشعر ورأسه عارٍ من كل شيء» .

فهنا نلاحظ الأديب قد عمد إلى مفردات وتعابير وجمل متكررة يستعملها عامة الناس في أحاديثهم . يصور بها الموقف تصويرًا مضحكًا على نحو قوله : خلع زهران طربوشه ، صلعته ، وتثاءب وتمطى ، نعل تقينا ،

رأسي عار إلا من الشعر ورأسه عارٍ من كل شيء ... » .

ولئن كان أديبنا يمتاز بقوة الأسلوب والجزالة في مقالاته عامة ، فإنه هنا نأى - عن قصد - عن هذه الخاصة لأن المضمون المثير المضحك يتطلب البعد عن وقار الفصحى ، وقوتها .

ء- المقالة السياسية

وله واحدة بعنوان «ما بعد الحرب» [١] . تحدثت عن الأكاذيب التي ينشرها المغرضون لتبرير الفتك والدمار ، فليس بصحيح ما يروّجونه من دعايات تزعم أن الحرب العالمية الثانية إنما قامت لتوفير حرية الفرد والجماعة ، وتأمين الحياة لكل حي ، فهي شائعات يحقق بها العدو مآربه ضاربًا في ذلك عرض الحائط الضمير الإنساني ، والوجدان البشري ، وهو لا يحتكم إلى قانون ، ولا إلى شريعة ، وليست المشكلة مشكلة طعام وشراب وأمن إنما المشكلة كما يراها العريان «هي كيف نردّ هذه الآدمية الوالغة في الدم إلى الإيمان بمعنى الإنسانية» [٢] فلا تفتك وتبطش باسم الجوع والفقر والحرية والسلامة .

ولعلّ السبب في ندرة مقالاته السياسية يعود إلى أنه كان ينشرها لضغوط سياسية دونما توقيع ، وقد رأينا إبان الحديث عن حياته أنه كان يرمز حينًا بقاف ، وحينًا آخر لا يشير إلى أنه كاتبها ومنشئ سطورها لكن كاتبه وصديقه محمد كامل حته عرف فيه هذه الخلة ، وذكر أنه كانت تنشر له مقالات بلا توقيع على نحو ما فعل في جريدة البلاغ ، بل إنه كان مندوبها ، وكفانا هذا دليلاً على ما ذكرت .

---

(١) الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢٢٨ ص ٢١ : الصحافة والأدب في أسبوع «قاف» بعنوان : ما بعد الحرب ، ولقد عددتها مقالة على الرغم من أن الأديب كما لاحظت بعد تتبع يرمز للخواطر «بقاف» عددتها كذلك لأن متطلبات المقالة توفرت فيها وهي لا تخرج في مضمونها وشكلها عن المقالات الأخرى ، ولذا لم أر حاجة لدراستها . ونقدها .

(٢) انظر السابق .

٢- المقالة الموضوعية

تطور فن المقالة في هذا العصر وبلغ مرتبة كبيرة من النضج والإتقان بعد أن انتشرت الصحافة وصارت القالب الذي يؤثره الأديب ليصب فيه مشاعره وخواطره - ويعالج به أدواء مجتمعه ، وقد لاذ إليها أديبنا العريان لينير الطريق أمام الأمة - ويبصرها عيوبها .

وفي مقالاته الموضوعية نلمح الطابع المنطقي في منهاج البحث ، وطريقة عرض المادة وتحليلها ، وفي اقتراح الحلول المناسبة . وطغت عليها نبرة الحزن والنقمة على الأوضاع القائمة . تلك النقمة الحادة الممزوجة بالسخرية المبطنة تارة ، والواضحة أخرى وهي إلى ذلك صريحة خطها كاتب لا يبالي لوم اللائمين يقول في ذلك :

«وإنما هذه سبيلي منذ أيقنت أن علي لهذه الأمة حقًّا . أن أكون في كل ما أعالج من فنون الكتابة حر القلم ، والرأي ، والضمير ، صادق التعبير عن الحقيقة كما تراها عيناي ، وكما يستيقنها وجداني لا كما تتراءى لبعض من لا أرى لهم رأيًا ولا وجدانًا من ذوي الأمل أو من ذوي الحذر .. أما هذا القلم فقد أبلى في الجهاد الأدبي ثمانية عشر عامًا ، وجاوز سن الرشد فليس يخضع لغير ذي ولاية ، وأما هذا الصوت فقد بلغ صداه الآفاق ، فلن يخفت أبدًا ولن يحول حائل بينه وبين ذي أذن» [(١)] .

على أن ذاتية الأديب لم تتوار دائمًا خلف الحجب ، وإنما تبدت أحيانًا ساخرة أو متقنعة ، وأظهرت لنا شخصيته وانطباعاته في مادته ، لكن الطابع الموضوعي كان السائد ، ومن هنا فقد أدرجتها تحت هذا القسم ، وقد تميز بعضها بالطول ، على حين أوجز بعضها إيجازًا قاربت فيه خواطره المتناثرة في بطون مجلات الثقافة .

نشر الأديب هذه المقالات في المجلات الأدبية أولاً ، ثم فيها ، وفي

(١) جريدة البلاغ س ٩٤٧ ع ٧٩٤٠ والمؤتمر الثقافي العربي -٤-٥ ص ٣ .

الصحف ثانيًا حينما كان مندوبًا لجريدة البلاغ إبان فترة انقطاعه عن العمل الرسمي ، ويندرج تحتها ثلاثة أنواع هي :

أ- المقالات التربوية .

ب- المقالات النقدية .

ج- المقالات الاجتماعية .

ولسوف أبين خصائص كل لون من ألوان هذا الفن ، وأدرس مقالة دراسة أدبية نقدية مبينة خصائصها بجلاء يكشف مميزات نوعها .

أ- المقالات التربوية :

مميزاتها :

يبلغ عددها تسع عشرة مقالة [1] تبحث في شئون التربية والتعليم ، وتعرض بالذكر للمجالات التي يجب إصلاحها في هذه الوزارة من أنظمة وطرق تدريس ومناهج متّبعة ...

ويعد العريان ناقدًا ومربيًا في هذه المقالات ، يأتي بالحلول المناسبة الصريحة ، ولو كانت تعرّض بذوي الجاه ، ولقد تداخلت عنده السياسة

---

(١) وهي حسب التسلسل التاريخي للتأليف :
إلى الأستاذ أحمد أمين : الضعف في اللغة العربية : الرسالة س ١٩٣٧ ع ٢١٠ ص ١١٣٠ ، أدباء ومدرسون الرسالة س ٩٤١ ع ٤٣٠ ص ١٢٠٨ ، ثورة على التربية : الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٨٣ ص ١٩ ، المدرسة المصرية : الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٤ ص ١٨ ، مدرسة مصرية : الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٧ ص ١٧ . يانصيب : الثقافة س ٩٤٢ ع ١٩١ ص ١٨ ، لا مركزية : الثقافة س ٩٤٢ ع ٢٠٧ ص ١١ ، بعد الامتحان : الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٤١ ص ١٩ ، أدب النهضة : الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٥٧ ص ١٧ ، تجديد العلم : الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٦٠ ص ٢١ المؤتمر الثقافي العربي رقم -١- : جريدة البلاغ س ١٩٤٧ ع ٧٩٨٢ ص ٣و٥ . المؤتمر الثقافي العربي -٢- : جريدة البلاغ س ٩٤٧ ع ٧٩٣٢ ص ٣و٥ المؤتمر الثقافي -٣- جريدة البلاغ س ٩٤٧ ع ٧٩٣٦ ص ٣و٥ ، المؤتمر الثقافي العربي -٤- : جريدة البلاغ س ١٩٤٧ ع ٧٩٤٠ ص ٣و٥ . المؤتمر الثقافي العربي -٥- : جريدة البلاغ س ١٩٤٧ ع ٧٩٤٦ ص ٣و٥ ، المؤتمر الثقافي العربي -٦- : جريدة البلاغ س١٩٤٧ ع ٧٩٤٩ ص ٣و٥ مجانية التعليم حق للفقراء لا منحة للأغنياء : جريدة البلاغ س ١٩٤٨ ع ٧٢٨٧ ص ٥،٣ ، أقصى الطاقة : مجلة الرائد س ١٩٥٦ ع ٢ ص ٦ ، الكتاب المدرسي : مجلة الرائد س ١٩٦٢ ع٧ ص٣ .

بشئون التربية فغدا يندد بالمستعمر ومن يمالئه ، ويعمل على هدم الروابط بين أبناء الأمة الواحدة ، ومن هنا فقد تبدت فيها نغمة ساخرة متحدية ، وهو يعمد إلى ضرب الأمثلة ، يؤكد بها أفكاره ، وتجلّي شخصيته ويعرض آراءه عرضًا منطقيًّا مع بساطة ووضوح ظاهرين ، يلائمان جمهور القراء وغالبًا ما يبتدئ المقالة بذكر القرار الصادر في شأن من الشئون - أو بإحالة إلى مقال سابق - ثم يعمد بعد إلى الشرح والتوضيح ، والتحليل والتعليل . يصف العلة ودواءها ويبصر أمته سبيل الرشاد علّها تجتنب طريق الغواية والضلال والمهلكات .

ولقد كانت مقالاته متوسطة الطول إلا أن بعضها أشبه لقصره خواطره الطويلة ولعل مقاله «مجانية التعليم حق للفقراء لا منحة للأغنياء» يوضح أبرز خصائص هذا اللون الأدبي .

مجانية التعليم حقّ للفقراء لا منحة للأغنياء

يعد هذا المقال من مقالات العمود الصحفي العادي [1] عرض فيه كاتبه قضية ضرورة تقرير المجانية في التعليم للفقراء لكي تساعدهم على إتمام تعليمهم ، وبيَّن خطل الفكرة التي تجعلها منحة يستحقها من توفرت فيه شروط معينة ، وقد استهلّه بذكر القرارات التي عرضت على البرلمان لإقرارها، ومن بينها مشروع يدور حول المستحق للمعونة التعليمية ، ووضح أن هذا المشروع ينحرف عن غرضه من وجهتين ثم انتقل إلى شرح القرار ، وحَيْده عن غايته ، فهو يتطلب ممن يستحق المعونة أن يكون متفوقًا في درجات الامتحان ، أصغر من أقرانه ، وفي هذا تعارض مع مبدأ الديمقراطية التي ينادي بها ويسعى إليها ، لأن الفقير ينتسب في معظم الأحيان في سن متأخرة

(١) انظر أقسام المقال الصحفي : د . عبد اللطيف حمزة : المدخل في فن التحرير الصحفي ص ١٦٥ نقله عنه مقبول أحمد في رسالته : المقالة الأدبية في الأدب المصري الحديث ص٦٧ .

عن السن التي يلتحق فيها أولاد الأغنياء . ثم إن هؤلاء يفوقونه في مستواهم الثقافي لاستعانتهم بالدروس الخصوصية ، كما أن المستوى الثقافي لأسر الفقراء لا يسمح لهم بمراقبة الأبناء ، وإضافة إلى عدم التجانس الفكري بين هؤلاء وذويهم ؛ ولذا كان من الصعب أن يتواجد هذان الشرطان في فقير ليستحق هذه العطية المالية ، وبالتالي فإن التعليم سينحرف ليكون مستقبلاً مدارس للأغنياء ، على حين ينصرف الفقراء عن تعليم أولادهم في المدارس الثانوية .

على أن الغاية من المشروع هي مساعدة الفقير ، وفى تطبيق هذين الشرطين بعد عن هدفه ، ومن هنا فلا فائدة من التوسع في المجانية ، إن لم يفد منها مستحقوها ، والأمر الثالث هو أن تنفيذ هذا القرار على هذا الوضع جنوح عن معنى التعليم ، فهو ضرورة تتحول إلى ترف حين ترتبط بمعنى المكافأة على مسابقة من المسابقات .

ويعتذر الأديب عن الوزارة . ويبين أنها لم تكن تقصد هذا ، وعليها أن تعيد دراسته قبل أن يعرض على مجلس الشيوخ لإقراره .

وفي الخاتمة يشير إلى أن مئات الألوف من أبناء الشعب يتطلعون إلى المسئولين بعين الرحمة ويتساءل أيصير القرار للمترفين أم لأهله من المحتاجين ، ويدعو بالهداية إلى طريق الصواب .

لقد كانت مقدمة المقال متصلة بالموضوع ، ممهدة له ، معينة على فهمه ، وجاء العرض مناسبًا مؤيدًا بالأدلة فأدى إلى النتيجة المتوقعة ، ودل على شخصية الأديب وآرائه الإصلاحية ، فهو ذو قلم شرع للدفاع عن حقوق الشعب . مصلح يهتم بكل صغيرة وكبيرة ،ويدمي قلبه رؤية الأمة تتخبط في دياجير الجهل والتخلف . وتنفعل نفسه لما يصيبها من أرزاء وخطوب ، فيبين عن الانحراف بنقمة مبطنة حينًا . ساخرة حينًا آخر . ويفسح المجال للأمل ويرجو الأمة أن تستجيب للحق . فتغير قرارها . وهذا من أهم متطلبات

المقال الصحفي . يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة :

«لا يشترط في المقال الصحفي أن يكون تعبيرًا عن وجدانات ذاتية بقدر ما يشترط فيه أن يكون تعبيرًا عن وجدانات غيرية ، وذلك أن الفرق بين الصحفي والأديب برغم اشتراكهما في صفة الكتابة أن الأول معني بالمجتمع يخاطبه دائمًا على صفحات الجريدة . وأما الثاني فمعني بنفسه ...

«ننتظر من الصحفي أن ينظر إلينا في هدوء ، وأن يحدثنا في رزانة ، وأن يشعرنا بلذة الحديث ، وأن يشركنا في استعراض المسائل التى تتصل بحياتنا العامة ، وأن يقف منا من كل ذلك موقف الصديق الذي يساومنا في المنزلة ، وأن يعرض لنا الأمور التي ينقدها عرضًا يشعرنا فيه بنوعين من الشعور هما الشعور بالسخط على أمر معين . أو شعور بالسخرية من هذا الأمر المعين . وكل ذلك في غير عناية من الصحفي بنفسه وهذان العنصران لازمان للمقالة الصحفية ما دمنا ننظر إلى الصحافة على أنها ناقدة للحكومة ، وناقدة للمجتمع [١] .

ولقد عرض الأديب آراءه هذه بأسلوب سهل لين ، يقترب من أسلوب الحديث العادي فألفاظه واضحة . وكذا عباراته ، على قوة إحكامها . ولنقرأ له هذا النص الذي يبين عن كثير من خصائصه الأسلوبية في مقالاته الصحفية .

«ولم يجعل التشريع منح المجانية لأولئك الصغار المتفوقين جوازيًا مقصورًا على من طلبه . بل جعل لهم حقًا واجبا يمنحه كل تلميذ يتحقق فيه صغر السن والتفوق ، ولو لم يطلبه ، على حين لا يطمح التلميذ الفقير في الحصول عليه ، ولو كان متفوقًا ما دام لم يتحقق له شرط السن . ولا الفقير الصغير السن إذا لم يتحقق له شرط التفوق . فإذا لاحظنا إلى جانب هذا أن أبناء الفقراء وبناتهم لا يلتحقون بمعاهد التعليم عادة إلا في سن متأخرة نوعًا

(١) د . حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر جـ ١ ص ٢٤٤ .

عن السن التي يلتحق فيها أولاد ذوي اليسار المترفين ... عرفنا أن تحقيق هذين الشرطين كليهما في أولاد الفقراء أمر نادر الوقوع ..... وهذا هو ما حدا بي إلى الكتابة في هذا الموضوع قبيل عرضه على مجلس الشيوخ .

«إن عشرات الآلاف أو مئات الآلاف من أولاد الفقراء الذين يتطلعون إلى التعليم الثانوي أو يطمعون أن يستمروا فيه لينتظرون بقلوب واجفة ما يقرره مجلس الشيوخ في هذا التشريع الخطير ، فهل ترى حضرات الشيوخ المحترمين يقرون المبدأ الذي يقول : إن التعليم ترف لا ضرورة ... أم تراهم سيزنون هذا التشريع بميزان الديمقراطية الصحيحة فيقرون للفقراء كالأغنياء بحقهم في العلم» .

فهنا نرى الأسلوب الصحفي العادي بألفاظه السهلة الواضحة التى توصل الفكرة إلى القراء جلية يساندها عاطفة وخيال ، كما نرى التساؤلات التي تثير عواطف مجلس الشيوخ . وقد أتى بها بعد عرضه صورة آلاف من الفقراء يمدون أبصارهم إلى رجال القانون علّهم ينقذونهم ويحمونهم من الجوْر .

ب- *المقالات النقدية* :

خصائصها :

كتب محمد سعيد العريان أربع مقالات أدبية نقدية [1] . تحدث في ثلاث منها عن ضرورة دراسة حياة الأديب الخاصة ، ودراسة عصره لتبيان العلاقة بين إنتاجه ، والبيئة التي عاش في أجوائها ، ثم وضح معنى العصر والتاريخ الذي عاش فيه الأديب ، أما الرابعة فكانت ردًا على مطالب الدكتورة بنت الشاطئ نحو قضية اكتشاف العرب لأمريكا .

وتعتمد هذه المقالات ولا سيما الثلاثة الأوائل اللواتي يتصلن بالنقد

---

(١) هي حسب التسلسل التأريخي للتأليف : أعيان الجيل : الثقافة س ١٩٤١ ع ١٤٩ ص ١٣ ، والفن والشخصية ع ١٥٢ ص ١٦ ، والعصر والبيئة في الأدب والتاريخ ع ١٥٦ ص ٧ . ثم القصة والتاريخ : جريدة الأهرام ١٩٦١/٥/١٢ ع ٢٧١٨٠ ص ١٣ .

الأدبي - على خطة محكمة ، ونهج سديد . قوامه مقدمة مستمدة من واقع الحياة ،أو من الثقافة ، توصله إلى خاطرة يعالجها بعد أن يكثر من التساؤلات حول موضوعها . ويكون العرض جوابًا لها ، وقد تطول هذه المقدمة أحيانًا ، وقد تتعرض لمشكلة اعترضته . فيجيء العرض ليكشف بضوئه الساطع مكامنها . ويبين رأيه فيها كما في مقاله «القصة والتاريخ» .

أما العرض فقد اتبع فيه النهج المنطقي . أيده بأقوال القدامى ، وبقصص من التاريخ القديم ، وببراهين من أمهات الكتب . وقد تساند آراءه أقوالٌ معاصرة ، وهو في ذلك كله يشبه الباحث في هدوئه وبعده عن السخرية ، والغضب والحقد .

ولقد طالعتنا مقالاته بأفكار نيرة عن معنى العصر والبيئة والتاريخ وعن أهمية دراسة الحياة الخاصة للأديب من خلال العصر الذي يعيش فيه ، ولئن كانت قليلة في عددها إلا أنها كانت تفي بالغرض . وتدل على فكر صائب ونظر سديد . ولقد استطاع الناقد أن يختار الموضوع ويعرضه علينا بحذق وخبرة . وأن يقدم إلينا من ذاته وفكره وأسلوبه ما جعله مشوقًا للقارئين .

ولعل مقاله «العصر والبيئة في الأدب والتاريخ» خير مثال لهذا النوع من المقالات :

العصر والبيئة في الأدب والتاريخ

ويحكي معنى العصر وأهميته في دراسة الأدب والتاريخ . يستهله الأديب ببدهية معروفة هي أن الأديب مرآة عصره . ومن هنا وجب على الدارسين أن يعرفوا الفترة الذي أدبت الأديب . أو حدثت فيها الحادثة ، ثم يتساءل عن معنى العصر أهو التاريخ العام لحياة الأمة ، أم هو المؤثرات الخاصة التي كانت السبب في التعبير الأدبي أو وقوع الحوادث ، ويُتبعه سؤالاً آخر عن معنى التاريخ أهو الحوادث أم الناس . وبهما ينتقل إلى العرض فيبين

أن المؤرخين القدامى كانوا يسجلون تاريخهم تبعًا لوفيات الأعيان أو الأمراء ، ثم كانت مرحلة أخرى رُتب فيها التاريخ فصولاً على الحوادث لا على الرجال . ولا على السنين ، ولا يزال هذا النهج متبعًا إلى يومنا هذا على الرغم من تباعد الفترتين .

على أن التاريخ ليس كما يراه المؤرخون ، وإنما هو الناس ، وهم السوقي وبياع اليانصيب ، وهم الزوج والولد والصديق ، وهم وسائل اللهو والطعام ، وهم كل ما يؤثر على حياة المرء ، وبالتالي فنه الذي يعبر عن مشاعره وانطباعاته .

ويضرب العريان مثلا من واقعه ، فلقد شهد ثلاثة شعراء [1] كانوا في قمة الأدب ، وعاصروا فترة الخديوية والاحتلال الإنكليزي لمصر ، كما عاصروا العهد العثماني ، فهل تشابه أدبهم ، وهل تغنى دراسة التاريخ العام الذي مرت به الأمة في حياتهم عن دراسة تاريخهم حتى يمكن القول إن تاريخها تاريخهم ، لن يكون الجواب إلا نفيا لأن لكلٍّ تاريخه الخاص الذي يتضمن طعامه وشرابه ومركبه وملبسه ، وفراشه مما حسن لديه أو استاء منه ، ومن هنا نعرف التاريخ ، وليس يغنى فن التراجم عن هذا ، كما أنه ليس من الوفاء لحق التاريخ أن نحفل بالعظماء والخاصة لأن لعامة الناس وأماكن حياتهم وملتقى لهوهم وأحزانهم أثرًا في الأدب والتاريخ ، وترجمة حياة هؤلاء هي ترجمة للبيئة والعصر . والجيل والزمان والمكان ، ذلك لأن الحادثة بناسها ، فإن لم نشرع بتدوين تاريخنا على هذا الأسلوب أسلوب الاهتمام بالخاصة والعامة ، ضاع كثير من المؤثرات على أدبنا وأدبائنا .

ويضرب الأديب بعد هذا مثلاً من حياة القدامى . ذلك أن هؤلاء لاقوا من حكى لنا سيرة خاصتهم وعامتهم من الصعاليك والشُطّار والمجانين ،

---

(١) هم : أحمد شوقي . وحافظ إبراهيم . ومصطفى صادق الرافعي .

فكانوا بذلك أبصر منا بفن التراجم ، فلو قرأه الدارس وأخرج جدّه من هزله لعرف العصر الذي عاش فيه الأديب .

ويختم مقاله هذا بذكر المناسبة التي من أجلها كان هذا المقال ، فلقد أتاه صديق ، وأخبره أن محاولته لجمع أدب حافظ إبراهيم ودراسة حياته ، باءت بالإخفاق لأنه لم يظفر إلا بالقليل من النكات ، وضاع الباقي على شهرته فيها . في مدارج النسيان ، ويتساءل العريان بعدُ عما يبقى منها بعد أن تنقضي عدة أجيال ، فأين منزلته حينذاك من التاريخ ؟! .

لقد كانت المقدمة ملائمة للعرض في بديهيات معلوماتها ، وفي تساؤلاتها التي هيأت الأذهان للعرض ، وقد سار هذا الهوينى . واستعان فيه الأديب بأمثلة قديمة حكت فن التراجم عند أسلافنا ، وفي عصرنا ولئن كان الموضوع معهودًا فإن مناقشته الجديدة الهادئة المتزنة جعلته شيقًا جذابًا ، إلا أن خاتمته كانت تصلح مقدمة له وإن كانت ثمرة للمقال ، وكأنه أراد أن يؤكد الفكرة فضرب لنا مثلاً من حياة حافظ إبراهيم التي اندرس أكثرها على الرغم من أن معاصريه لا يزالون على قيد الحياة .

أما أسلوبه فكان قويًا محكمًا ، فهو يكتب للمثقفين ، بل لخاصتهم ، وعباراته قوية محكمة منسقة في نبرة موسيقية وتناغم منسجم ، ولا سيما حين يحذف تتمة بعض الجملة ليدع للسياق توضيح المعنى على نحو قوله .

« هؤلاء وأولئك وغيرهم ممن أعرف وممن لا أعرف ، سافلين عن ذلك وعالين ، هم تاريخنا وصورتنا ، ومجموع ما ينبغي أو يؤثر عنا ، وهم العصر والجيل والبيئة والزمان والمكان ... إن الحادثة ليست شيئًا في التاريخ إلا إذا كان معها ناسها فهي بهم وهم بها ... » .

فهذا الانسجام الموسيقي في تكرار « هم » والجمل التي تليها . ثم في « فهي بهم تاريخ وهم بها » يساعد على إظهار حذف تتمة الجملة ضميرًا كان أم لفظًا يكسب الأسلوب جمالاً ورشاقة .

ولقد استعان الكاتب بالقصر والتأكيد ليزيد المعنى تثبيتًا وإيضاحًا ، وهذا دأبه في كتاباته ، فمن التأكيد قوله «هم تاريخنا وصورتنا ومجموع ما ينبغي أن يؤثر عنا ، وهم العصر ، والجيل والبيئة ، والزمان والمكان» فهنا يؤكد بتكرار الضمير هم ، ثم بالمترادفات التي تعطي معنى البيئة .

ومن القصر قوله : «لأهلِ التاريخ ما يرون في معنى التاريخ فليس لي أن أقتحم عليهم ، وإنما لي من التاريخ معناه الأدبي فحسب» .

وتكثر التساؤلات ، بل إنها من لوازم أدبه ، يعتمد عليها لتقرير رأي وهذا نص يوضح أهم خصائصه الأسلوبية :

«هل لي أن أقول بعدما قدمت : إننا لم نشرع في تدوين تاريخنا ، وإن الباحث في آثارنا غدًا لن يجد بين يديه من مقدمات الحكم ما يهيئ له أن يحكم فيصيب ... .

إنما أدعو إلى أن تكون لنا عناية عامة بالتعبير عن كل ما يحيط بنا من صور الحياة في هذا الجيل ...

«ترى أكان القدماء أبصرَ منا بالحقيقة الأدبية العالية ، وأعمق غورًا في فهم الأدب والتاريخ حين جمعوا في كتبهم من أخبار الصعاليك والشُّطّار والمجانين ما يقرؤه القارئ من سواد الناس اليوم فيتعجب ويسخر .. ويقرؤه الأديب والمؤرخ والعالم السلوكي فيستخرج الجدّ من هزله ، والحق من باطله ، أكان ذلك منهم للهو ، أم كان ذلك عندهم علمًا» .

فهنا نرى التأكيد والقصر والاستفهام . وضرب الأمثلة القديمة .. وكل ذلك جاء في عبارات قوية ، وتراكيب محكمة منسجمة .

* * *

ج- المقالة الاجتماعية :

سماتها :

على الرغم من أن أديبنا كان مصلحًا اجتماعيًا إلا أن آراءه الإصلاحية لم ينثرها مقالات وإنما خواطر على صفحات مجلة الثقافة ، ومن هنا فقد ندرت مقالاته الاجتماعية حتى لم نعد نرى له إلا اثنتين [١] ، بل إن إحداهما وهي بعنوان عسكري المرور شابهت ذلك الفن الأدبي ، فكانت كخواطر متابعة يضمها سلك واحد .

أما المقالة الثانية «الصحافة المصرية» فقد تحدثت عن أثر الصحف المصرية في حياة المجتمع المصري والعربي كله والمفاسد التي تئن تحت كلاكلها ، وطرق إصلاحها ، وأوجه النشاط التي يمكن الاستفادة منها ، ويمتاز هذا المقال بأسلوبه العلمي الذي يجنح إلى الثورة والعنفوان في آخره ، على حين يمتاز الأول بالثورة النفسية يعرض من خلالها رأيه ، سيما ما يتعلق بأمر من أمور التعليم . وهذا الضجر ، وتلك النقمة على تباين كمهما تجعلان القارئ يتأثر وينفعل ، ويكون هذا الضجر أول خطوات الإصلاح الذي يبتغيه ، والذي هو من أهم مميزات المقالة عامة . والاجتماعية خاصة كما يقول زكي نجيب محمود [٢] .

وهاكم دراسة مقاله «عسكري المرور» الذي يوضح بعض هذه الخصائص :

* * *

---

(١) هما الصحافة المصرية : الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٥٨ ص ٢١ ، وعسكرى المرور : الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢١٣ ص ٢٠ .

(٢) انظر جنة العبيط ص ٩ .

عسكري المرور

ويتحدث عن أسباب الطاعة عند الإنسان ، وعلى الرغم من أنه يحوي أحاديث تربوية نفسية إلا أنه يسلك ضمن المقالات الاجتماعية لما يحويه من أمثلة توضح بعض المفاسد الاجتماعية المتفشية في المجتمع يعالج من خلالها أسباب استجابة المرء ، أي امرئ كان ، إلى القانون ، ولقد استهلّه بتساؤل أحمد أمين عن أسباب طاعة الإنسان لعسكري المرور : ألشخصيته ؟ أم لأنه يمثل القانون بسطوته وقوته ؟ أم لأسباب أخرى ؟ ثم يجيب العريان مبينًا أن هذه الاستجابة ليست للقوانين ، ولا لشخصية العسكري ، وإنما لداعي الحياة الذي يكمن في نفس كل إنسان ، فالحوادث المميتة تمر عليه صباح مساء ، ومنها يتعلم الدرس الذي لا ينسى ، ويحافظ على حياته باتقاء أشرارها ، ولولا هذا الداعي الباطني الذي يحضّه على صيانة جسده فيقيه أخطار المهالك لغلبت طبيعته فتمرد وتغطرس ، واستعلى وتجبر ؛ ولو أن كل مصلح أو مرب عرف ما في نفس ناصحه أو تلميذه فتوجه إليه بالأمر والنهي لاستجاب له منصوحه ، لكن قلما يُدرَك هذا إلا من مصلح موفّق ، ومربٍّ ناجح ، ومن هنا يكون اختلاف مرشد عن مرشد .

ويختتم المقال بتقرير هذه الحقيقة حقيقة الطاعة بداعي غريزة النوع أو حب البقاء .

وتساؤل الأديب في بداية المقال نبه الأذهان إلى الفكرة ثم إلى شرحها في العرض والإدلاء بالبراهين المنطقية ، العقلية والاجتماعية ، ثم إلى نصحه المربين وقد ختم بتأكيده على الفكرة بإيجاز ، وفي تضاعيف مقاله بدا لنا معلمًا مربيًا ، ثم ثائرًا عنيفًا يكمن انفعاله في أعمق أعماقه لتبدو في سطوره كلمات قاسية على نحو : التغطرس والتجبر ، والاستعلاء ، ... يقول :

«ولو أنه كان يحس إحساس الآمر الناهي المطاع فيما يأمر وينهى لغلبته

طبيعة الإنسان الحي فتغطرس وتجبر ، واصطنع الأمر والنهي لغير وقته وأوانه ، إدلالاً بقوته ، وإيغالاً في بسط سلطانه ... [إن سبب طاعتهم] هو التوقي والحذر ، ومخافة الهلكة ، فقد جبلت البشرية على العصيان والتمرد ومحاولة الاستعلاء بالإرادة الفردية المطلقة» .

فهنا يبدو العريان ناقمًا ينظر إلى البشرية بمنظار أسود ، فليس الناس كل الناس من يتغطرس ويتجبر ، ويستعلي ، ويتمرد ، ويقول تعالى :

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (١) .

أما أسلوبه فسهل في قوة حبك ، وإحكام عبارات ، دقيق ، واضح ، خال من الحشو والاستطراد ، علمي بمناقشته لموضوعه ، وبما يحويه من مصطلحات نفسية نحو «علماء الغرائز ، غريزة النوع ، حب البقاء ، أمر الباطن ، وفيه التأكيد بإن وبالقصر ، وهذا نص يبين عن كثير من هذه الخصائص :

«فلو أن كل معلم ، وكل أب ، وكل مصلح حرص على أن يعرف ما في نفس تلميذه أو ولده ، أو ناصحه قبل أن يتوجه إليه بأمره ونهيه ، لعرف أين يصيب منه موضع الإقناع ، ويظفر بطاعته ، طاعة النفس لا طاعة الجوارح ، فإنما الغرائز في كل نفس زوجان ، أمرة وناهية ، وقلما يلتفت امرؤ إلى ما في داخله من عراك الغرائز ، وصراع الرغبات ، وإنما يلتفت إلى ذلك المعلم الناجح ، والأب المربي ، والمصلح الموفق ، فيقصد كل منهم في درسه وأمره وموعظته إلى حيث يوافق غريزة من غرائز الخير في النفس ، فيوقظها ، وينفخ فيها الحياة ، ويسلحها بأسلحته لتثبت على المقاومة ، ثم يأمر أمره ، أو ينهى ، فهنا يجد الطاعة الراضية المطمئنة لأنها طاعة النفس للنفس حين يوافق الأمر في الخارج (أمر الباطن) الذي هو أمر الغريزة المسيطرة الغالبة» .

---

(١) [سورة الشمس آية ٥ - ٨] .

فهنا نرى المعاني ، والألفاظ العلمية المتعددة ، والأسلوب السهل المؤكد ، والقصر بإنما ..

على أن الخيال أيضًا ساهم في تأدية المعنى ولو بقَدَر ، فصورة للإنسان وهو يتغطرس ويتجبر ، وأخرى تعرض علينا مشهدًا يصور النفس البشرية ، وقد نفخت فيها النصيحة روح الحياة ، فأيقظتها من رقادها ، ثم قدّمت لها السلاح القوي لتثبت به على المقاومة ثم تستجيب للأوامر والنواهي ، وتكون طيبة النفس راضية مرضية ، هاتان الصورتان إلى أُخَر جزئية نحو عراك الغرائز ، صراع الرغبات تعملان على تقريب المعنى من أذهان القراء ، وتثيران إلى ذلك عواطفهم وانفعالاتهم ، فيتأثرون ويستجيبون وتكون المقالة حينذاك قد أدت مهمتها التي رسمها لها كاتبها ، مذ خط فيها أحرفها الأولى .

٣- خصائص أدبه المقالي :

أ - عنوان المقالات :

يرى النقاد كما يذكر الدكتور أبو الأنوار أن هناك صلة تربط القارئ بعنوان المقال عن طريق ما يسمى بالإشعاع الوجداني [1] .

والعناوين لدن أديبنا تتصل بالموضوع اتصالاً وثيقًا تهيئ ذهن القارئ للأفكار وتدعوه إلى متابعة القراءة ، وهي مختصرة موجزة ، وتمتاز في المقالات الذاتية بأنها مثيرة مشوقة للقارئ ، فعنوان «دار وحبيب» في المقال المدروس يوحي بأن هناك داراً يقطنها حبيب له تلاعبت بها صروف الزمان ، أو على الأقل حدث لها أمر أثار الأديب فشرع قلمه يعبر عن تأثراته إزاءها ، وبهذا يدعو حب الاستطلاع القارئ أن يقرأ المقال ليشفي غليل تساؤلاته ، وكذا عنوانه «أين أنا» الذى يُسْتَشعر منه الضياع والقلق الذي حلّ بالأديب قبل أن يسطره .

---

(١) في رسالة مصطفى لطفي المنفلوطي الكاتب .

أما عناوين المقالات الموضوعية فتتميز بالدلالة على مضمونها ، وهذا أمر بدهي أو مطلوب لتهيئة الأذهان إلى المضمون ، فعنوان «القصة والتاريخ» يدل على أن هناك ارتباطًا أو انفصالاً بينهما سيوضح ، وكذلك «الضعف في اللغة العربية» وهذا يدل على حسن اختياره لها .

على أن بعضها يتميز بالسخرية والطرافة ، فيانصيب عنوان طريف ، وهو لا يوحي بأنه مقال تربوي ، وهذا النوع قليل .

ب- الافتتاح والختام :

يغلب في افتتاحياته الدخول المباشر في الموضوع [١] وقد يمهد بذكر حادثة [٢] أو سؤال [٣] ، أو عبارة وجيزة [٤] ، ثم يشرح الحادثة ، ويجيب على السؤال ، أو يسلط الضوء الكاشف على العبارة فتجلو ، وقد يمهد بحديث منقول [٥] ، وتمتاز إلى ذلك بالطابع العقلي [٦] إلا ما بث فيها أشجانه إذ نلمح فيها الصبغة الشعرية الخيالية بنبرتها الحزينة [٧] . ومقدماته طويلة أو تميل إلى الطول في المقالات الموضوعية [٨] وهناك مقالات يقصر فيها الاستهلال حتى ليغدو بضع كلمات ولا سيما في المقالات الذاتية ، التي تعبر عن انفعاله [٩] .

* * *

(١) انظر مقاله : ابنتي : الرسالة س ١٩٣٩ ع ٢٩٩ ص ٦٢٥ .

(٢) انظر مقال : أعيان الجيل في الثقافة س ١٩٤١ ع ١٤٩ ص ١٣ .

(٣) انظر مقال : أين أنا الرسالة س ١٩٣٩ ع ٢٩٤ ص ٣٥١ .

(٤) انظر مقال : تجديد العلم الثقافة : س ١٩٤٣ ع ٢٦٠ ص ٢١ للأستاذ قاف . وقد مر أن هذا الرمز يدل عليه .

(٥) انظر مقاله : الضعف في اللغة العربية الرسالة س ٩٣٧ ع ٢١٠ ص ١١٣٠ .

(٦) انظر مقاله : الصحافة المصرية الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٥٨ ص ٢١ للأستاذ قاف .

(٧) انظر مقاله : حديث رمضان : الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٩٥ ص ١٥ «قاف» .

(٨) كما في مقال القصة والتاريخ الأهرام : صفحة الأدب تاريخ ١٩٦١/٥/١٢ ع ٢٧١٨٠ ص ١٣ .

(٩) كما في مقال دعيني أنام الرسالة س ١٩٣٩ ع ٢٩٩ ص ٦٢٥ .

أما خواتيم مقالاته فقد تنوعت بين تقرير للمعنى الذي سبق أن بيّنه [١] ، وبين استفهام تقريري يؤدي المعنى المراد من السياق [٢] وكأنه بذلك يلخص ما سبق ، وقليلاً ما عمد إلى السخرية [٣] .

ويغلب على نهايات المقالات الذاتية الطابع الرومانسي الحزين [٤] أو الشعري . على نحو قوله في خاتمة مقاله : «أين أنتم يا أحبائي» .

«أي زوجتي التي لم أعرفها لأني لم أرها بعد .

أي زوجتي التي تنتظر وراء الستر حالمة ترقب الميعاد !

أي ولدي الذي يتوارى خلف الغيب ينادي أباه وأمه !

يا أحبائي الذين يبحثون عني كما أبحث عنهم منذ سنين وسنين وسنين .

أما آن أن نلتقي حتى ألقى النِّعم الثلاث في زوجتي وولدي وفتاتي ؟

أين أنتم يا أحبائي» [٥] .

فهنا نرى الأديب يعمد في ختام مقاله إلى النداء يسكبه في قالب شعري مؤثر فيه اللهفة والشوق ، وفيه اللوعة والأمل ، وإذا عرفنا أن مقاله هذا كتبه عام (١٩٣٤) أي قبل زواجه بسنتين ، وبعد انتظار لخطبه ما يقارب عشر سنين أدركنا مدى الحنين الذي كان يشعر به ، وأدركنا أيضًا صدقه في ندائه هذا .

* * *

---

(١) كما في مقال ما بعد الحرب : الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢٢٨ ص ٢١ . قاف

(٢) انظر مقاله مجانية التعليم حق للفقراء لا منحة للأغنياء جريدة البلاغ س ١٩٤٨ ع٨٢٨٧ ص ٥ .

(٣) انظر مقاله «القصة والتاريخ» .

(٤) كما في مقاله : بعد عام ! ولدي الثقافة س ١٩٤٣ ع ٢١٢ ص ٢١ قاف .

(٥) انظر مقاله في الرسالة س ١٩٣٤ ع ٧٦ ص ٢٠٤٨ .

ج- مآخذ على المقالات :

١- دمجه بين موضوعين يصعب تلاحمهما في مقال واحد يربطهما خيط واه كما في «حديث رمضان» حيث بثنا في قسمه الأول أحزانه بمناسبة حلول أول رمضان بعد وفاتها ، ثم انتقل في قسمه الثاني إلى الحديث عن رجل وجيه في وزارة المعارف يستعلن بفسقه أمام الآخرين يشرع سيجارته دليلاً عليه دونما حياء من الله ولا من الناس ، ولا مراعاة لمشاعر الصائمين ويربط بين الحديثين كونهما من إلهام هذا الشهر المبارك كما ذكر الأديب (١) .

٢- كثرة السخرية بأنظمة المعارف وأوضاع المجتمع ، ولا سيما في مقالاته التربوية والاجتماعية .

وأخيرًا لا يسعني إلا أن أشيد بفن المقالة عند أديبنا محمد سعيد العريان ، فلقد تعددت موضوعاته الذاتية والموضوعية بين تربوية واجتماعية وسياسية ونقدية ، وتأملية ، وكانت المرآة الناصعة تعكس لنا ذات نفسه في أفراحها وأتراحها ، وتأملاتها ، وانطباعاته نحو العالم وموجوداته ، كما ترسم لنا صورة عن المجتمع الذي عايش أبناءه ومسئوليهم ، وخبر عاداتهم وسلوكهم ، وقدّم لهم حلولاً . ارتآها لهم ، وحكمًا قيمة أصدرها بعد تأملات ذهنية واجتماعية ، في صراحة المصلح ، تخالطها سخرية ودعابة ، في أسلوب ناءٍ عن الكلفة والتقعر ، طابعه القوة في موطن القوة ، واللين واليسر حينما يتطلب المقام ذلك ، وقد تبدت من خلالها نظرته الواعية ، وإيجابيته في دعواته ، وثقافته الواسعة ، وخبراته العميقة .

***

---

(١) انظر الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٩٥ ص ١٠٥ ، حديث رمضان ، وكذلك شأنه في مقاله مهرجان العلم : س ١٩٤٣ ع ٢١٦ ص ٢٠ .

ثانيًا : الخواطر

الخاطرة فن متميز عن المقالة ، وإن شبهتها في بعض الأحايين ، وإن عدّها بعض الدارسين في أدب المقالة ، وفرعًا لها (١) ذلك لأن المقالة تتميز بنهج معين يسير عليه الأديب ، قوامه مقدمة وعرض وخاتمة ، أما الخاطرة فكلمح البصر سرعان ما يختفي إثر مولده ، وقد بلغ بعضها لقصره أسطرًا لا تتجاوز أصابع اليد ، وهي أفكار مفككة ، متناثرة هنا وهناك وإن جمع بين بعضها موضوع معين ، وقد ميّز الدكتور عز الدين إسماعيل في كتابه الأدب وفنونه بين هذين اللونين فذكر أن الخاطرة «من الأنواع النثرية الحديثة التي نشأت في حجر الصحافة ولكنها تختلف عن المقال من عدة وجوه ، فالخاطرة ليست فكرة ناضجة وليدة زمن بعيد ، ولكنها فكرة عارضة طارئة ، وليست فكرة تعرض من كل الوجوه ، بل هي مجرد لمحة ، وليست كالمقالة مجالاً للأخذ والرد ، ولا هي تحتاج إلى الأسانيد والحجج القوية لإثبات صدقها بل هي أقرب إلى الطابع الغنائي ... [هي] لمحة ذهنية بمناسبة [حادث عرضي] محملة بمشاعر الكاتب ، ثم لا ننسى الاختلاف في الطول ، فالخاطرة أقصر من المقال ، وهي لا تتجاوز نصف عمود من الصحيفة ، وعمودًا من المجلة ... وأهميتها تأتي من أنها تستطيع لفت القارئ إلى الأشياء الصغيرة في الحياة ، والتي لها دلالة كبيرة» (٢) .

وسنرى بإذن الله أن تطلبات الخاطرة توفرت جميعًا عند أديبنا .

---

(١) انظر المقالة الأدبية في الأدب المصري الحديث ص ٦٧ نقلاً عن الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه المدخل في فن التحرير الصحفي ص ١٦٥ .

(٢) الأدب وفنونه دراسة ونقد ص ٢٥٢ وكذلك فرق بينهما سيد قطب في كتابه النقد الأدبي فذكر أنهما يطلق عليهما لفظ المقالة ويتشابهان في الظاهر ويختلفان في الحقيقة . فإحداهما انفعالية ، والأخرى تقريرية . ولعل من الأنسب أن نفرق بينهما في الاسم بدل أن نفرق بينهما في الوصف ، فنقصر لفظ (المقالة) على النوع الثاني ، ونسمي النوع الأول «خاطرة» انظر ذلك ص ٩١ .

١- الموضوعات :

سطر أديبنا خواطره في مجلة الثقافة تحت توقيع «قاف» وقد مر بنا ما كان يرمي إليه من هذا الرمز ، وعالج منها كثيرًا من أدواء المجتمع وعلله ، سواء منها الاجتماعية والدينية ، والثقافية والسياسية ، كما عبّر في بعضها عما يكنه من آلام بعد مصابه الجسيم في زوجه وتحمله أعباء تربية الصغار ، ولسوف أعرض لهذه الموضوعات بإيجاز لأن معظم مضمونها عولج في فصل آرائه ولا سيما الاجتماعية .

أ- الخواطر الاجتماعية :

تعددت الأوجه التي عالجها في هذا الشأن ، لكن أغلبها يتعلق بالمرأة والحفلات الساهرة والصحافة المصرية ، فهو ينكر على المرأة أن تصير عبثًا للاّهين في حفلات تقام كذبًا وزورًا باسم مساعدة الفقراء والمحتاجين ذلك لأن هذه تشيع الرقص والمنكرات ، وتفسد الجيل تحت شعارات خلاّبة ، وكان الأولى بهذه الأموال أن تأتي من وجوه البر والعطف الإنساني لا من خلال الملذات النهمة ، والنظرات الضاحكة ، والأقداح المترعة .

على أن هذا الفقر ما كان له أن يسود ويطغى لو أن هؤلاء المتبطّرين قاموا بواجبهم ، ولو أنهم لم يستولوا على أموال الفقراء بطرق غير مشروعة .

يقول في ذلك : «هنا غناء ورقص وموسيقى وأفراح ، وهناك نواح وجراح ، وأنات وأحزان ، هنا على الشاطىء الريان (ليلة من ألف ليلة) تترنم فيها الأقداح ، وتترنح فيها الأرواح ، وتخافت العيون بالكلمة الهامسة ، والنظرات الضاحكة والعابسة لتجمع من ثمن ذلك كله بضع مئات من الجنيهات معونة لمن هناك ... وهناك ... وراء خيال المتخيل دور عابسة ، وظلمات داجية ، وأطفال يتضاغون من الجوع ، وأمهات يَقَفْقِفْنَ من العري ، ورجال تتجاذبهم أسباب الموت والمذلة والتشريد والجريمة ..

ليت شعري أيعرف مَنْ هنا حقيقة من هناك ؟
ألا إنه لو لم يكن هؤلاء هنا ، ما كان أولئك هناك» [1] .

ولقد أنكر على أولي الأمر في الدولة اصطحابهم زوجاتهم إلى الحفلات الراقصة لئلا يوصموا بالرجعية على حدّ قولهم ، كما تهجم على تسمية هذه الخلاعة والمجانة بالرقي والتقدمية ، ومن يقع في آثامها بذوي الطبقة الراقية وبيّن لهم معنى الرقي الحقيقي ، ونصحهم بأن يستتروا مما أصيبوا به من بلية الفساد والإفساد ، وأن يفيقوا ، وهذا أولى لهم ، من غفوتهم التي هم بها سادرون ، ويتيقظوا إلى ما يحيط بهم من وسائل الإضلال والتضليل [2] .

ويتعرض لقضية الزواج في المجتمع فيبين أن بعض الرجال غدوا في حيرة من أمرهم حياله ، وقد فضلوا قسوة العزوبة على الزواج من مثقفة تبرز إلى الشارع مبدية ما حقه الخفاء ، الأمر الذي حدا بهم إلى إساءة الظن بها بعد أن ارتابوا في أمرها ، وأخذتهم الحمية والنخوة ، أما المرأة الجاهله فلا تحسن تدبير المنزل ولا تربية الأولاد [3] .

ونددأديبنا المصلح كذلك بالصحافة التي تسعى لنشر الفساد عن طريق الصور الخليعة ، والقصص الداعرة التي تشوه وجه المجتمع المصري أمام العالم العربي ، فتحثه على تقليده بما تقدمه تحت أسماء براقة كالرقي والحضارة ، والمدنية ، وبما توصم به المحافظين بالرجعية والتأخر [4] ، كما دعا أصحابها أن

(١) الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٥ ص ٢٢-٢٣ : مهرجان الربيع ، وانظر كذلك س ٩٤٢ ع ١٧٨ ص ١٩.

(٢) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٤ ص ١٨ : ألوان من الإيحاء . وس ٩٤٢ ع ١٨٦ ص ١٤- ١٥ بعنوان دعوة ، قادة وقدوة ، وانظر لوضع المرأة : الثقافة س ٩٤٢ ع ١٩٣ ص ٢٠ : بضاعة مبذولة ، وع ١٧٥ ص ٢٢ : رجعية أخرى ، وع ١٨١ ص ١٧ و ع ٢٠٩ ص ٢٠ . وقد مر من ذلك كثير إبان الحديث عن آراء العريان الاجتماعية في المرأة .

(٣) انظر الثقافة س ١٩٤٢ ع ١٩٣ ص ١٩ .

(٤) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٦ ص ٢١-٢٢ ، المغازلة التي لا أنساها ، و ع ٢٠٤ ص ٢١-٢٢ قلب المرأة ، و ع ٢٠٥ ص ١٥-١٦ : أسلوب الشيطان و س ٩٤٣ ع ٢١٠ : أربع سيقان و ع ٢١٨ ص ١٨ صحفي و س ٩٤٢ ع ١٧٨ ص ١٩ و ع ١٧٩ ص٢١ و س ٩٤٣ع ٢٣٢ ص ٢٢ .

يتخذوا منها منارًا يهدي الأمة ، ويقودها إلى الصالح من الأمور وأن يوجهوها توجيهًا سديدًا يرفع مستوى الشعب ، ولا يضيع أوقاته سدى في قراءتها (١) .

أما الصحف التي تسيء إلى تاريخ أسلافنا فتعرضه مشوّهًا يعطي للقراء صورة بغيضة لعظمائنا فإنها لاقت تعريضًا صريحًا لما تقوم به من جناية على العلم والتاريخ (٢) .

وأما التي لا تنشر رأيًا لأنه يخالف ما تخططه من أهداف ، أو تبتر من المقالات المقدّمة إليها لتعرضها كما تشاء ، وترتضي ملوّنة بذلك الرأي غير لونه فإن أديبنا لم يسكت عنها ، بل شرع قلمه في وجه الباطل ليزهقه وليعلي صوت الحق (٣) .

والعريان الإنسان لا يسعه أن يسكت عما يعاني الشعب من فقر وجهل ومرض ، وسوء خلق ، إذ سرعان ما تنفعل نفسه الحساسة لأمثال هذه الأمور إثر رؤيته موقفًا يصورها فتتمثل انفعالاته هذه كلمات وعبارات ينثرها هنا وهناك على صفحات الثقافة مؤثرة بما تحمله من صدق أحاسيسها وتصويرها ، بحيث تجعل القارئ يشارك الأديب آلامه وآماله ، ومن هنا فقد أشرع قلمه في وجه من يلوم سكان البلد على سوء خلقهم فيبين أن هؤلاء لو وجدوا الطعام لما سرقوا ولما نافقوا ، وعلى من يعذلهم على تصرفاتهم أن يعترف لهم بحق الحياة وأن يقدم لهم ما سلبه منهم أولاً ثم ليختبر أخلاقهم ثانيًا ، يقول في ذلك :

«هم يعيبون على أبناء هذه الأمة ما يعيبون ، فليعترفوا لهم بديًا بحق الحياة ، وليجودوا عليهم بما حبسوا عنهم من رزق الله ، ثم ليمتحنوا أخلاقهم

(١) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٥٨ ص ٢١ و س ٩٤٤ ع ٢٧٤ ص ٢١ .

(٢) انظر الثقافة س ٩٤٢ ص ٢٠٥ .

(٣) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٩ ص ٢١ ، وانظر نقده للصحافة في آرائه عنها .

ما شاءوا يعرفوا من أي معدن صيغ هذا الشعب الكريم» [١] .

كما نقد القوانين التي تحرم على الموظفين أن يكون لهم رأي يخالف رأي الدولة ، يقول أيضًا : «نعم أنا موظف ... ولكنني إنسان أملك بحق الإنسانية أن يكون لي رأيي ومذهبي ، وأنا وطني أملك بحق الوطنية أن يكون لي في شئون بلادي العامة قول صريح ، ذلك حقي الذي فرضته لي قوانين الطبيعة ، فليس يملك أن يحرمني إياه قانون الإنسان ... نعم أنا موظف أعمل للحكومة برأيها في حدود الوظيفة ... ولكن لي فوق ذلك رأي الإنسان الحر ، والمواطن الحر ... [وإلا] فإن عليّ ... أن أختار بين الوظيفة ، وبين الحرية .. بين لقمة العيش ، وكرامة الإنسان الحر» [٢] .

ب- *الخواطر الثقافية* :

وفيها تعرض بالذكر لما يتعلق بالتربية والتعليم ، ثم لما يتصل بالأدب والثقافة ، فتحدث عن الكتب المدرسية ومدى صلاحيتها للتدريس [٣] ، وندّد بالكتب الأجنبية التي تشوه تراثنا وسمعة عظمائنا [٤] ، ودافع عن المعلم ضد من حمّله وطأة فساد الأخلاق والأذواق ، وأشاد بوزارة التربية والتعليم حين رغبت في إنشاء مجلة للأطفال تحبب إليهم القراءة منذ الصغر ، يقول في ذلك :

«هذا الميدان البكر لم يطرقه طارق من رواد العربية حتى اليوم على نهج واضح ، وقد كان حقيقًا بأن يلتفت إليه أهل الأدب ، وأهل التربية جميعًا ليقيموا بناء نهضتنا الأدبية والعلمية على أساس ثابت ، فإن الطفل هو أبو الرجل كما يقولون ، فإذا نحن لم نبذل ما نملك من جهد للعناية بالطفل اليوم،

---

(١) الثقافة س ٩٤٤ ع ٢٧٦ ص ٢٠-٢٢ : جريمة الجوع .

(٢) الثقافة س ٩٤٤ ع ٢٧٨ ص ٢٢-٢٣ ، وانظر لذلك أيضاً ما ذكر في آرائه الاجتماعية .

(٣) انظر الثقافة س ٩٤٣ ع ١٨٣ ص ١٩ : ثورة على التربية .

(٤) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٣ ص ١٩ و ١٨٩ ص ٢١ .

فإننا لن نجد منه في الغد الأب الذي نأمل ، وأول ما يجب أن نبذله لهذا الطفل هو العناية بتربية عقله ، وتغذية وجدانه ، وترقية فنه درجة بعد درجة .. حتى ينتهي بنا إلى الهدف الذي نتنوره على بعد ، ونحن نشكو ... قلة إقبال متعلمينا على القراءة ... وإنما سببه أننا لم نحاول أن نعقد صلة ما بين متعلمينا وبين الكتاب منذ أول عهدهم بالمدرسة فنشئوا وبينهم وبين الكتاب جفوة ... هذا هو الداء وإن دواءه لهيّن ، دواؤه هذه المجلة وأشباهها من الكتب الطفلية المحببة ، ثم مجلات وكتب تترقى به عقلاً ووجدانًا وفنًّا ... حتى تجعل القراءة له عادة لازمة» [(١)] .

كما تحدث عن دور الأدباء تجاه أمتهم ، فبين أن على هؤلاء أن يرودوا أبناءها نحو الصالح من الأمور ، وأن يكون للأدب رفعته وعزته ، وأنكر أن تجرى مسابقات أدبية يحكم فيها الجمهور ، ولو كان في ذلك ، كما ادّعوا ، ديمقراطية للأدب ، لأن هذه تتحقق حينما يحاول ذووه أن يرفعوا من مستوى العامة ، ويسموا بهم إلى حقيقة الإنسانية العالية ، ذلك لأن رجال الأدب والصحافة «ليملكون الوسيلة حين يعجز الجندي الشاكي السلاح ، المشحوذ العدة ، يملكون أن يردوا النفوس الحائرة إلى الهدى ، والأعصاب الفاترة إلى القوة ، والقلوب المريضة إلى سلامة الأمل ، وحلاوة الرجاء»[(٢)] ، وهم الأقدرون على قيادة الأمة وتوجيهها نحو الوحدة ، وقد آن لهم أن ينظموا جهودهم ، ويمضوا في خطتهم إلى هدف مرسوم ، معتمدين في ذلك على أنفسهم من دونما تدخل من دولة أجنبية أخرى ، ولهذا فهو يأسى لانعزال الأدباء العرب عن إخوانهم في مصر .

إضافة إلى ذلك نراه يتصدى للحكام فينعى عليهم أن يعدّوا الأدب ترفًا من الترف . ويأسى لما حلّ به إبان الحرب حتى صارت كتبه تباع

---

(١) الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٤١ ص ٢٠ : أدب الطفل .

(٢) الثقافة س ٩٤٤ ع ٢٧٢ ص ١٦-١٧ .

قراطيس بدكاكين الجزارين والبقالين ويحزن لاحتجاب أعداد مجلة الرسالة ذات الدور الفعال في توجيه الشعب أدبيًا وعلميًا بحجة فقدان الأوراق من السوق ، على حين تتوافر هذه للمجلات الهازلة ، يقول في ذلك :

«لو لم يكن في مصر مجلات غير الرسالة وأختها لقلنا بلاء مقدور ولكن البلية التي ليس فيها عزاء أن المطبعة المصرية ما تزال تقذفنا كل يوم بالرذل والساقط والداعر من المجلات السوقية التي لم ينقص لها عدد ، ولم يحتجب منها ما كانت فضيلة أن يحتجب» (١) .

ويغضب للأدباء الذين ينفقون ساعات حياتهم ، وعصارة دمهم في البحث والدرس ، ثم يعيشون عيش المعوزين ، ويموتون ليطوى اسمهم في سجل النسيان .

أما قضية نحل الأدب فقد لاقت من اهتمام العريان الأديب ما جعله يهاجم «حافظ عامر» لما نسب إلى نفسه تأليف كتاب «رسالة الحج» (٢) كما ندد بمن ينسب إلى نفسه شعرًا ليطعن بناقديه ، ثم يبين لهم بعدُ وجه الحق .

ج- الخواطر الدينية :

سبق أن ذكرت في آرائه الاجتماعية أنه كان يعدّ الإسلام النبع الصافي الذي يصدر عنه في جميع آرائه ، وأنه لا يفرق بين تصرفات المرء في عمله أو خارجه ، ومرّ في تدينه أنه كان يرى الدين والسياسة والاجتماع ، والخلق والاقتصاد سواء لديه ، وكان إلى ذلك يغار على سمعة الإسلام والمسلمين ، يبين فضائل الدين الحنيف ، وينكر على من يشيد بالرأي لأنه ورد من أوربا على حين ينسى ما في دينه من نظام مثله أو هو خير منه ؛ فحينما دعا محرر الأهرام إلى إنشاء صندوق يتلقى أموالاً ممن يكفر عن خطاياه بمال ، وذكر أن أمثال هذا الصندوق كثير في أوربا تصدى له العريان ، وبيّن أن بعض

---

(١) الثقافة س ٩٤٣ ع ٢١٥ ص ٢١ : بلاء .

(٢) انظر الثقافة ع ١٧٦ ص٢٠ بعنوان دبلوماسية و ع ١٧٩ ص ٢٣ و ٢٤ بعنوان الدبلوماسية .

الأوقاف في الإسلام هي لون من ألوان توبة المسلم الذي ارتكب خطأ يتعلق في حق من حقوق عباد الله لا يمكن إعادته إليهم - ثم قال تعليقًا على ذلك : «أتراني أسأت أم أحسنت حين رددت الحقيقة إلى أهلها ، وخلعت عن رأسها القبعة المستعارة ، لتبدو في صورتها الحقة عربية مسلمة ؟!» [١] .

وحينما أذيع في الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر نبأ جمود أبنائه وسوء تصرفهم إزاء محاولة الدولة الحجر على مرضاهم حينما تفشت بينهم الكوليرا غضب لذلك . لأن هذا الاحتفال مناسبة لإظهار محامد هذا المسجد العظيم ودوره الفعال لا للعمل على تهديمه والحط من شأنه ، وكنا رأينا إبان الحديث عن أعماله الرسمية ما ارتآه للأزهر ، وما ذكره عن التوسع في المعاهد الدينية حين اعترض على ذلك بحجة أنه سيؤدي إلى إنشاء طبقة تتطلب حقوقًا لا يستطاع الوفاء بها ، إذ بيّن أن على هذه المعاهد أن تقوم بدورها الذي أقيمت من أجله ، فهي ليست معاهد لتخريج رجال دين لأن الإسلام لا يعترف برجال الدين وإنما يفرض على كل مسلم أن يفقه أمور شريعته ، ولا لتخريج موظفين ، وإلا خضعت لقانون الإحصاء والحاجة ، ثم نبه الشعب إلى ضرورة المطالبة بتعليمه الدين في كل مدرسة ، وفي كل معهد إضافة إلى المواد الأخرى ، تمامًا كما كان الأزهر يوم أنشئ والمعاهد التابعة إليه [٢] .

ولقد أنكر العريان على عالمَيْن أزهريين سئلا عن رأيهما في لباس (الشورت) فكان جوابهما الشرعي «بأن لباس الرجل ما ستر العورة ، وأما رأيه الشخصي» وقال «رأيهما الشخصي ؟ يا عجبا ! ... ولهما رأي وللدين رأي ...» [٣] . ثم قال : لعل هذا «هو رأي الوظيفة لا رأي الموظف ، أم تراهما

---

(١) الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٣١ ص ٢٣-٢٤ : يقظة الضمير .

(٢) انظر الثقافة س ٩٤٣ ع ١٣١ ص ٢٢ : المعاهد الدينية وع ٢٣٣ ص ٢٠ بعنوان المعاهد الدينية، وانظر في هذا الكتاب : أعماله الرسمية .

(٣) الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٨ ص ١٧-١٨ : رأيه الشخصي .

يقصدان أن الدين شيء غير الصحة والمدنية وشئون الاجتماع فلهما رأي ، وللصحة والمدنية والاجتماع آراء»[١] .

ر- الخواطر السياسية :

كذلك مرّ آنفًا كثير منها في آرائه السياسية ، فهو داعية إلى توحيد العرب كخطوة أولى تسبق الوحدة الإسلامية الكبرى ، وتضم العالم بأرجائه الواسعة يحكمه نظام إلهي . على أنه إضافة إلى ذلك نراه يتحدث عن أهمية تبادل الزيارات بين المعلمين والزعماء العرب في تدعيم الروابط بين أجزاء الوطن العربي .

وهو يثور لتدخل الأجانب في أمور بلادنا وسعيهم لاغتصاب حقوق أبنائنا ، وإفساد خلقنا وعقيدتنا بطرق شتى ، ملتوية ، وظاهرة[٢] ، ولهذا نراه يبارك خطوة وزارة المعارف حينما منعت تدريس الكتب الأجنبية التي تثير الأحقاد الدينية أو السياسية ، ويبين لها أن هذا لا يكفي وإنما عليها أن تمنع « كل كتاب يشتمل على عبارات وموضوعات تشيد بمذهب أو دين إنسان لا تقرّ الإشادة به الديانة المصرية ، أو القومية المصرية ، فلقد يكون في التنويه بمذهب من المذاهب ، أو دين من الأديان ، أو إنسان من الناس أثر في عقل الطفل الناشئ ، فتلك (تثير) وهذه (تخدر) ، والثورة دفاع ، ولكن التخدّر استسلام»[٣] .

وأخيرًا نراه يعيب على قادة الفكر أن يتراكضوا وراء الأجنبيات تراكضًا ينسيهم واجبهم الوطني ، فيركنون إلى عدوهم لأن زوجاتهم أو خليلاتهم من بلاده[٤] .

---

(١) انظر السابق .

(٢) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٩٣ ص : ٢٢ : مصريون وأجانب .

(٣) الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٩ ع ٢٢ : في المدارس الأجنبية .

(٤) انظر الثقافة س ٩٤٤ ع ٢٦٦ ص ٢٠ - ٢١ - الكاتب المجهول .

٥ - الخواطر الذاتية :

عرفنا مدى الحزن الذي سيطر عليه بوفاة زوجه التي خلفت له أولادًا ثلاثة قاسى من أجلهم مرّ العذاب ، فكان يسهر الليل معهم ، ثم يغدو صباحًا إلى وظيفته حتى أضني جسده ، وأنهكت أعصابه ، وحتى قرر ذات يوم أن يضعهم في دار طفولة تخفف عنه بعض ما يقاسيه بين لؤم الخدم وإمارة المراضع ،وسهر الليالي ، فلم يوفق إلى ذلك لأن شروط بعضها المجحفة ، ودور بعضها الآخر التبشيري المسيحي [1] حالا دون ذلك ، وحتى صار يحس بأن هؤلاء الصغار همّ إلى همّ ، ويرى أبوّته ألمًا مضنيًا ، وينكر على من يقنعه بأن الأولاد نعمة من نعم الله على البشرية ويجيب محدثه هذا بأن الله تعالى قال عنهم إنهم زينة : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنيَا﴾ ولم يقل إنهم نعمة لأن هذه شيء يحس به المرء في أعماقه فيشعر بسعادته ، على حين تتراءى الزينة للآخرين فتكون سببًا من أسباب الجمال والفتنة ، فهي المظهر الذي يبدو للملأ في صاحبه ، ولقد يكون وراءه شر أي شر [2] ، وهو وإن اعتذر لأولاده عما بدر منه ، بعد قوله هذا ، متشائم متعب مكلوم فقد كانت زوجه برّة ، انتظرها أمدًا طويلاً وتحمل من أجل ذلك آلامًا - ثم - ما إن اجتمع شملهما حتى انتقلت إلى بارئها في ساعة كانت من أقسى أيام حياته ، لم يذق بعدها حلو العيش ، ولا سعادة الدنيا :

« كم أسبوعًا ، كم شهرًا ، والباب مغلق بيني وبين الدنيا ، مغلق بيني وبين نفسي ؟ ... ما أقسى سخرية الدنيا بناسها ! لكأن بيني وبين ماضي أعوامًا وأعوامًا ، وعمرًا طويلاً من الآلام ، وأجيالاً من التجارب والذكريات، كأنها حديث أمم وتاريخ أقوام ... فأنا في ذلك الماضي القريب كالمستيقظ في أعقاب حلم ساحر كان حقيقة تسعده ، فصار وهمًا يشقيه ، فليس نور النهار

---

(١) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨١ ص ١٨ : عناوين .

(٢) انظر الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٣٥ ص ٢٠ - ٢١ ، نعمة الولد ، الزينة والنعمة .

في عينيه إلا ظلمة متدجية تضرب بين حياتين من عمره بسور ليس له باب ، من ورائه ركام من الذكريات وحطام من الأماني ، وأشتات من الأباطيل والأوهام !» [١] .

ولقد كان قدوم المناسبات عليه تزيده همًّا وشجنًا فرمضان يذكره بها وكذا العيد وها هو ذا يتحدث إلى ابنته وأخيها عما يقاسيه من آلام الوجد والعذاب بعد أمهما .

«لقد نضب في قلب أبيك أيتها الصغيرة كل إحساس بمعاني الفرح والأنس والمسرّة ، فعَوضيني من الإحساس بمعاني الفرح في قلبي منظرًا تشهده عيناي ...

هاتان عيناك تشهدان أول عيد ، فما لشفتيك تختلجان كأنما تحاولان كلمة لم يسمعها سامع ، وليس عليها جواب ... ظمآن إلى ثدي لم تلقمه شفتاك، ولم تحسّ مذاقه ؟ ... لهفان إلى صدر لم تستشعر حنانه ساعة ، ولا رأيت عناقه ؟ .. لا ، لا ، قوموا يا بني فالبسوا جديدكم ، إنه عيد الناس ، وإنه عيدي لأنني على موعد مع الحبيب ... ها أنا ذا ذاهب إليه لأستنشي على مبعدةٍ من عبير ترابه ، وأذرف على ثراه دموعي !!» [٢] .

فهو هنا يستجدي صغيرته أن تكون له سبيل هناءة وعيش ، بعد أن فقد هذه المعاني مع آخر نفس من أنفاس زوجه ، أما نظرة ابنه فكانت تذكره بحنان أمه ، تلك التي لم يذق صغيره طعم لبنها ، ولا لهفة عطفها ، لكنه إلى ذلك كان يتحامل ويتجمّل ، ويلبس صغاره الثياب الجديدة ، ثم يذهب إلى حيث يرى مثواها ، ويشفي حرقة صدره ، ويذرف الدمع مدرارًا ..

ولقد كان أصدقاؤه يحسّون آلامه ، وقد طلب منه أحدهم أن يترجم مشاعره هذه ، ولا سيما أنه الداعي إلى الحديث عن حياة الأدباء الخاصة

---

(١) الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٥ ص ٢٢ - ٢٣ اعتذار .

(٢) الثقافة س ٩٤٤ ع ١٩٨ ص ٢١ : العيد .

حديثًا مستفيضًا لما له من أثر على أدبهم ، لكنه اعتذر ثم استجاب وكتب « تحت الرماد» قصة قلبه الدامي ، ذكرى للقراء ، وأمانة في عنق التاريخ ، ولكنه لم ينشره ، وأخفاه [١] ولم أجده في مكتبته الخاصة ولا في المكاتب عامة .

٢- *خصائص أدب الخواطر :*

تعدى أدب الخواطر ذات الأديب ، وأهله ، حتى شمل مصر بل الأمة العربية جمعاء ، وتعددت موضوعاته بين دينية وثقافية ، وسياسية واجتماعية ، وذاتية ، وكان حينما يسترعي انتباهه أمر حدث [٢] أو رأي قرأه أو سمع به [٣] خيرًا كان هذا وذاك أم شرًا ، أو حتى فكرة لمعت في خاطره[٤] يشرع قلمه في وجه الباطل ليندد به ، ويشيد بالحق ليعلي من شأنه ، وليكون نهجًا متبعًا ؛ وهو في ذلك ينبه الرأي العام إلى ما يعترض سبيل تقدّمه ، أو يحضّ على عمل يراه نافعًا فيكون بذلك للخاطرة أثرها في المجتمع كأثر الشعر في العهد القديم ، بل إنها تشبهه فهي كالقصيدة الغنائية ينفث فيها أحزانه ، ويبث الآخرين مشاعره ، ويتحدث عن أفراحه وأحزانه محملة بالعواطف القوية والغزيرة ، ولاسيما ما كان متعلقًا بأسرته صادرًا عن قلب مفعم بالوفاء ، والصدق ، والإخلاص .

على أن الخاطرة عند أديبنا قد تقصر حتى لا تتعدى بضعة أسطر[٥]،

---

(١) انظر الحديث كله في الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٢٥ ص ٢٢ : تحت الرماد ، ولم أره كما ذكرت ، وذكرت زوجه الثانية في مقابلة معها أنه أخفاه لئلا يورث الشوق ثانية ، وإلى أن يكبر أولاده ولقد بحثوا عنه وبحثت دون طائل .

(٢) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٥ ص ٢١ : مهرجان الربيع .

(٣) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٦ ص ٢١ : وفاء .

(٤) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٢ ص : ٢١ : أدباؤنا العشرة .

(٥) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٥ ص ١٥ : الأدب الرمزي .

وقد تطول حتى تشبه المقالة [١] ، وقد يأتي بها منقولة من مصدر آخر تحت عنوان «قرأت في هذا الأسبوع» إلا أنها خاطرة تحكي رأيه ، ونفسيته ، وهذا النوع قليل عنده [٢] .

وقد تجيء ذات مقدمة وعرض وخاتمه ، ولكنها مع ذلك لا يمكن إدماجها مع أدب المقالة لقصرها الشديد [٣] ، أو لاتصالها بما سبقها من خواطر ، وما تلاها [٤] ، ثم إنها ليست بحثًا علميًا مؤيدًا بالأمثلة و الحجج والبراهين ، إضافة إلى أنها لا تتعرض للموضوع من جميع جوانبه ، بل تكتفي بالتنبيه والتذكير .

وأسلوب الخاطرة ثائر عاطفي إجمالاً ، علمي هادئ أحيانًا ، فمن النوع الأول ما ندد فيه بفتًى جامعي أجاب سائلاً عن امرأة تخون زوجها :

«أعتقد أن هذه الزوجة لا تخون زوجها إلا بدافع من حب قديم كامن ، وبذلك تسكت أنت ، لأنه إن كان ثمة خيانة ، فهناك أيضًا وفاء» فسخر منه العريان سخرية الغاضب المحنق ممن يعد نفسه لتحمل تبعات الرجولة ، وهو لا يفقه معاني الوفاء والتضحية والإثم والخطيئة ، ثم يقول : «وهذا الشاب الغرّ بأي ميزان يزن رأيه ؟ أتراه يحكم حكمه في حالة بخصوصها ، أم هو يلقي حكمه عامًا شاملاً كالشرك في طريق الصيد ليقول لكل امرأة تعترض سبيله ، أو يعترض سبيلها : (إلي يا حبيبتي ، ولا تخشي معابة فإن لنا ماضيًا عريقًا في الإثم والخطيئة ....) .

ليتني أعرف ذلك الغلام فأهمس في أذنه بالكلمة التي لا أستطيع أن

---

(١) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٨ ص ١٩ : المجلة المصرية .

(٢) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٠ ص ٢٠ : قرأت في هذا الأسبوع .

(٣) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٠ ص ١٨ : أزمة القراءة .

(٤) انظر الثقافة س ٩٤٣ ع ٢٣٠ ص ٢٢ - ٢٤ والعناوين هي : ذكرى البشري ، والرافعي ، موت الفجاءة ، الأدب والوظيفة ، إعانات الأدباء ، أدباء الدعاية ، وتتحدث عن إهمال مصر للأدباء .

أقولها هنا فيحمر وجهه خجلاً !» [١] .

فهنا نرى الأديب يغضب غضبه الحق ، ويثور في وجه هذا الذي تحدى الأمة في أعزّ أخلاقها فسمى أرذل الخلق وفاء ، وقد ظهرت غضبته هذه في النص كله ولاسيما في أواخره .

أما الأسلوب العلمي الهادئ فيتجلّى في مثل قوله :

«إن طلب العلم فضيلة تمحو كل سيئة في الوسيلة ... وما دامت حكومتنا لم تؤمن بعد كما آمنت حكومات ودول أن العلم كالهواء والماء حق لكل حي ، ومرفق مبذول لكل مرتفق ، وملك مشاع لكل مستمتع ... فلا على أحد يؤمن به أن يطلب حقه فيه حيث قدر وكيفما قدر [٢]» .

وبغض النظر عن مدى صحة رأيه في أن «الغاية تبرر الوسيلة» فإن الاتزان والهدوء يبدوان من خلال عباراته .

وقد يعمد إلى الاستفهام التقريرى يسأل به سؤال العارف الذي يرمي إلى إيصال الفكرة [٣] .

وإذا كان «لكل مقام مقال» من أساليب البلاغة ، فإن هذا ينطبق على أسلوب أديبنا فتراه سهلا إلى حد كبير ، ليتّنا يلائم مستوى القراء الثقافي والعلمي والفكري ، وهذا النص يبين عن ذلك وهو في التنديد بالحفلات الساهرة ومن يشارك فيها ، وبالغاية المزعومة التي يرمي إليها ذووها كذبا وزورا وبهتانا :

«اسمع يا فتى ، واسمعي يا فتاة ، هذه الحفلات الرائعة التي تقرأ وتقرئين من وصفها وخبرها ، وترى وترين من أزيائها وصورها فيستهويكما ما تقرآن وما تريان هي مزيج من طائفتين : طائفة تبيع المرح والسرور واللذة ،

---

(١) الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٦ ص ٢١ : وفاء . والماضي العريق هو خيانة المرأة بدافع من حب قديم ..

(٢) الثقافة س ٩٤٢ ع ٢٠١ ص ١٧ : حق الشعب .

(٣) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ٢٠١ ص ١٩ : آخرة شاعر .

وطائفة تشتري المرح والسرور واللذة وعلى الباب بواب من (أهل الخير) يقبض ثمن المرح والسرور واللذة لينفق على البائسين والمحرومين والأشقياء . لقد طالما شاقك أيها الفتى ، وطالما شاقك أيتها الفتاة ... فأين يرضيكما أن يكون موضعكما من (السوق) التي قامت لتجارة (المرح والسرور واللذة) وليس فيها إلا بائع أو مشتر . وكل طائفة تتغفل أختها ، لأن كل طائفة لهواها تعمل ، والبائس المحروم وراء الأسوار ينتظر انفضاض السوق ؟» [1] .

ولعل هذا الموضوع ، موضوع المرأة والحفلات بهذا الأسلوب القائم على ألفاظ لينة . ومعان واضحة . وسخرية مبطنة أو ظاهرة هو النهج الغالب على خواطر أديبنا المصلح محمد سعيد العريان .

***

(١) الثقافة س ٩٤٢ ع ١٧٨ ص ٢٠ : أسواق الحسان .

ثالثًا : التعريف بالكتب

التعريف بالكتب : فن أدبي يشبه المقالة النقدية التي تتحدث عن كتاب معين حديثًا يبين مؤلفه ، ومنهجه وموضوعه ، بخطة واضحة ويراه مصطفى السحرتي رافدا من روافد النقد الأدبي [١] . وهو يساعد القارئ على الاطلاع على الكتب الجديدة ، وإعطائه صورة جلية أمينة لإثارته إلى مطالعة الصالح منها ، والمحبب إليه ، ونبذ ما سوى ذلك ، فهو كالضوء الهادي لطلاب المعرفة . كما أنه يحث على التأليف الأدبي ، والفني ، والعلمي .

ولقد دعا العريان منذ عام ١٩٤٢ في مقاله «الصحافة المصرية» إلى جعل الصحف وسيلة للتعريف بالكتب . ليطلع القارئ على مضامينها ، فيتجنب الوقوع في أخطاء عدة تنتج من جهله بالكتاب والمؤلف ، يقول في ذلك :

«فهل لي أن أجعل بعض هذا الباب للتعريف بكل جديد في المكتبة العربية ... إني لأرجو أيضا ، وما أريد أن يكون عملي هنا نقدًا أو تقريظًا ... أن يقتصر عملي هنا على العرض الكاشف ، والوصف المبين ، فأتحدث عن موضوع الكتاب ، والغرض منه ، وما أشبهه في موضوعه ، وأبوابه ، وفصوله ، وما بذل فيه مؤلفه أو ناشره من جهد ، ومقدار توفيقه في إصابة الغرض الذي أنشأه له . وحظ القارئ من الانتفاع به ، ثم عن طريقته في العرض ، وأسلوبه في اللغة إلى غير ذلك ، مما يصوره لمن لم يره ، كأنه رآه ، ويعرّف به تعريف الفهرس الدقيق لا تعريف الناقد ، لعل ذلك ينفض شيئًا من الغبار عن كثير من الكتب طال احتباسها عن قارئها ، وإن به إليها لحاجة ، ويفتح للقارئ بابًا من العلم يفضي به إلى سبيل غير سبيله ، وينشئ في

---

(١) انظر كتابه : الفن الأدبي ص ١١٥ .

بابي التأليف والنقد البريء ، حركة فيها بركة ... ذلك سبيلي في هذا الباب وإن الأشواك لتكتنفه من جانبيه ... وإن دواعي الهوى لتتجاذب من يسلكه غير مزود بإيمان راسخ ، وجنان ثابت ، وعين بصيرة ، وعدة من الحق يتوقى بها أن يلين لشفاعة صديق ، أو مخافة متسلط ، وإني لأرجو أن يكون لي من ذلك سبب يمضي بي في سبيلي على هدًى وبصيرة» [١] .

ولقد فتحت له الصحف أبوابها فطرق هذا الباب ، وتوسع فيه اتساعًا أبان ثقافته فهي أدبية قديمة وحديثة ، شعرية وقصصية ، وتراجم وكتب لغوية ، ونحوية ونقدية ، ومؤلفات عن الرحلات ، وأخرى دينية وتربوية ، وسياسية ، وتاريخية ، وصحية ، ونفسية ، وجغرافية ، واجتماعية ، وبعضها مترجم عن الإنكليزية ، أو الفرنسية .

ولقد اتبع النهج الواقعي في معظم تعريفاته [٢] فتحدث عن الموضوع ، والهدف الذي ارتآه المؤلف من كتابه ، كما يراه هو لا كما ذكره صاحبه ، ثم عن فائدته لمصر وللعرب - وهذه أهم عناصر المذهب الواقعي في فن التعريف ، لكنه حادَ عنه حينًا إلى المنهج الكلاسيكي [٣] وحينًا إلى الرومانسي [٤] - فمن النوع الأول تعريفه بقصة «القاهرة الجديدة» [٥] فقد

---

(١) الثقافة س ٩٤٢ ع ١٥٨ ص ٢١ : الصحافة المصرية .

(٢) التعريف الاجتماعي أو الواقعي «يدور جل اهتمامه حول موضوع الكتاب ، وهدفه ، وأثر العوامل الاجتماعية في كينونته ، وما يرقد وراءه من خير للمجتمع» انظر مصطفى السحرتي : الفن الأدبي ص ١٢١ .

(٣) التعريف الكلاسيكي «يسير فيه الكاتب على قواعد ثابتة لا يحيد عنها فيتحدث عن كل باب من أبواب الكتاب على ترتيب أبوابه ، ويكشف عن محاسنه ومساونه ، ويهتم بأخطائه اللغوية والنحوية والبيانية وغاية هذا تعليمية ، واتجاهه مدرسي» المرجع السابق ص (١٢١) .

(٤) التعريف الرومانسي تنعكس فيه خواطر الكاتب وتأثراته الذاتية ، وتنبثق في بعض الأحيان نفثات أصلية ، وإشراقات مضيئة ، وقد تنعكس منه أحيانًا جمحات مخيفة ، وشطحات وشرود» المرجع السابق ص (١٢١) .

(٥) انظر الكاتب المصري س ٩٤٦ مجلد ٣ ع ١٢ ص ٧٥٦ .

أشاد بالقاص ، ثم عرض موضوعها ثم عطف على الأخطاء فأبانها ، وكذا في قصة «قلوب الناس» [1] تعرض لنقدها فنيًا ولغويًا .

ومن التعريفات الرومانسية ما ذكره في كتاب «من أعماق الجبل» فهو لم ينهج خطة اتبعها في غيره ، وإنما اتخذ أسلوبًا شعريًا يكشف عن روح الأديب والكتاب معًا - ويقدم لقارئه فكرة باهتة عن مادته ، يقول : «هذا كتاب من لبنان ، فيه نفحة من عطره ، ونغمة من وتره ، ولمحة من سناه ، مؤلفه شاعر لم يلهمه شيطان ، في دمه ذرة سابحة منذ الأزل تحدرت إليه في أصلاب الأجيال من أسلافه جيلاً بعد جيل حتى انتهت إليه وسكنت في أعراقه ، واتخذت مسبحها في دمه ، فإذا هي بعد ليست ذرة جامدة ، بل قوة متفجرة جياشة ، تفيض في قلبه طهرًا ، وفي جوّه عطرًا ، وعلى لسانه شعرًا ، وإذا نغمة من غناء علوي اللحن ، في كل قلب صدى ، ونور سماوي اللمح له في مرأى كل عين سنا ، وإذا صوت تلفظه شفتان ولكنه من قوة الأثر ، وصدق التعبير كأنه صوت الأجيال الهاتفة من وراء الغيب قد احتشدت جيلاً فجيلاً تهتف بأغنيتها فتتجاوب أنغامها بين السهل والجبل ، وبين البحر والبادية ، ذلك صدى هذا الكتاب ! بضع أساطير قد لا يكون فيها كل جمال الصنعة ، ولكن فيها قوة الفن ، وقد لا يكون فيها براعة الخلق ، ولكن فيها براعة صدق التعبير .

بضع أساطير هل اصطنعها صلاح لبكي ليعبر بها عن روح لبنان ، أو هي روح لبنان قد اصطنعت صلاح لبكي لتعبر بلسانه عن حقيقتها ؟ ... لست أدري ، ولكنه على أي حاليه كتاب من لبنان فيه نفحة من عطره ، ونغمة من وتره ، ولمحة من سناه ، وفيه صوت الأجيال الهاتفة من وراء الغيب قد احتشدت جيلاً فجيلاً تهتف بأغنيتها فتتجاوب أنغامها بين السهل والجبل ، وبين البحر والبادية ، فليكن هو كتاب لبنان أو فليكن صلاح لبكي ، أو لعل

(١) انظر الكاتب المصري س ٩٤٧ مجلد ٦ ع ٢٢ ص ٣٢٨ .

صلاح لبكي في هذه الأساطير هو روح لبنان مصورًا في كتاب وكاتبه» (١) .

أما منهجه العام في تعريف الكتب فيبتدئ بمقدمة تختلف من كتاب لآخر ، فقد تكون حديثًا عن موضوعه ، أو ترجمة لمؤلفه ، وقد تكون إشارة إلى أهمية الكتاب ، ثم تأتي مادته بعد ، وقد يستهل تعريفه بالإشادة بالمؤلف، على أن ذكر الموضوع هو الغالب على تعاريفه يتبعه الحديث عن جهود الكاتب ، وأقسام الكتاب ، فأهميته ، وأخيراً يبدي آراءه بتعليقات تختلف من كتاب لآخر ، وقد يستشهد بأبيات شعرية ، أو أقوال من صاحب الكتاب ليحكّم القارئ أو ليجذبه إلى القراءة حين يستمتع بما نقله منه إلا أن هذا قليل (٢) .

على أن تعريفه يختلف من كتاب لآخر حسب موضوعه وحسبما يلفت انتباهه ففي القصة مثلاً يسترعي اهتمامه قضية العامية والفصحى ، ولا سيما في الحوار ، أو أسلوب الأديب المعروف به ، أو ينقد شخصياتها وحوادثها (٣) .

وفي تعريفه بالكتب السياسية نراه يتحدث عن أهميتها في ظروفنا الحالية في إثارة الوعي العربي ، والرأي العام العالمي نحو قضايانا ، وقضية فلسطين خاصة (٤) .

أما الكتب المحققة فإنه يذكر جهود المحقق ويشكر له فضله ، ويبين عن أهمية الكتاب ، بل الكتب القديمة كلها ، ويرد على دعاة التجديد في اللغة ، كما يشيد بالكتب الدينية القديمة إن كان موضوعها مما يتعلق بالإسلام ،

---

(١) الكاتب المصري س ٩٤٦ م ١ ع ٤ ص ٦١١ .

(٢) انظر قصته غلواء الشعرية : الكاتب المصري س ٩٤٦ م ٢ ص ٥٤٢ وعلى الشاطئ المسحور : الكاتب المصري س ٩٤٦ م ٣ ع ١١ ص ٥٤٤ .

(٣) انظر تعريفه للقصص في الكاتب المصري س ٩٤٧ م ٦ ع ٢٢ ص ٣٣٨ : قلوب الناس ، والرسالة س ٩٣٥ ع ١٢٥ ص ١١٩ : خيوط العنكبوت والكاتب المصري س ٩٤٧ م ٥ ع ٢٠ ص ٧٨٣ : لقيطة .

(٤) انظر : الكاتب المصري م ٤ ع ١٣ ص ١٨٤ - ١٨٦ : يقظة العرب ، وقضية فلسطين .

وأخيرًا يذكر خطة المحقق [١] .

وأسلوب المعرّف أدبي وعلمي إجمالي ، يعرض فيه حقائق الكتاب وموضوعه بوضوح وصراحة ، وهو يسير على النهج التالي ، والنص مقتطف من تعريفه بكتاب عصر النبي : -

«... حديث جديد عن عصر النبي وبيئته قبل البعثة ، يتناول تاريخ تلك الفترة التي سبقت مبعث النبي ﷺ فيصفها زمانًا ومكانًا ، وما كان من حياة العرب الاجتماعية والعقلية ، وأديانهم وعقائدهم ، فهو موضوع ، كما يرى القارئ ، غير جديد ، وإنما جاءت جدته من حيث الأسلوب الذي التزمه المؤلف ، والمنهج الذي سلكه» [٢] .

فالألفاظ كما تبدو سهلة ، تلائم مستوى الجمهور القارئ ، لكنها جاءت في عبارات محكمة ، وجمل منسجمة .

على أن الأديب قد يجنح أحيانًا إلى الأسلوب الإنشائي الغنائي ، وقد مرّ في تعريفه بكتاب «من أعماق الجبل» ، إبان الحديث عن نهجه الرومانسي ، ويؤخذ على الأديب سخريته المبطنة والظاهرة في بعض تعاريفه [٣] - كما أنه لم يحقق جميع أمنياته - فقد دعا إلى أن تفتح له الصحف أبوابها ليعرّف بالكتب «تعريف الفهرس الدقيق» ويقارنها بأمثالها من مادتها ، أو بكتب المؤلف الأخرى ، على حين رأيناه يعنى بموضوع الكتاب وأهميته دون أن يقارنه بمؤلفات الأديب ، أو بما يماثله في مادته كما أنه كان

---

(١) الرسالة س ٩٣٥ ع ١٢٨ ص ٢٠٣٥ - ٢٠٣٧ : إعجام الأعلام - الفروق اللغوية - معجم الشعراء ، المؤتلف والمختلف . والكاتب المصري س ٩٤٧ م ٥ ع ١٧ ص ١٧٩ .

(٢) الكاتب المصري س٩٤٧ م٦ ع٢١ ص١٦٨ .

(٣) انظر تعريفه بكتاب أبي هريرة إذ هزئ بمؤلفه الذي ندد بهذا الصحابي الجليل ، وكذا تعريفه بمجموعة «في قلوب الناس» القصصية إذ سخر من استخدام المؤلف العامية في الحوار ، وسماه شذوذًا ينبو عنه السمع ويلتوي به اللسان ، وكان بمكنته أن يعرض رأيه ويفحم المؤلفين من دونما سخرية - ولكن هذا مزاجه وأسلوبه .

يتحدث عن أسلوب الأديب تارة ، وتارة أخرى يهمله ، لكنه مع ذلك يعدّ من أوائل الذين طرقوا هذا الفن الأدبي ،فقد بدأه منذ عام ١٩٣٥ وكان فنًا وليدًا ، وقد تطلّب هذا منه أن يقرأ كتباً عدة لمواد متباينة لا تدخل في حيّز اختصاصه .

رابعًا : النقد الأدبي (١) :

لأديبنا آراء نقدية تناثرت في ثنايا ما سطره في مقالاته ، وكتبه ، ومحاضراته ، وغيرها من آدابه الأخرى ، لكنها مع ذلك لم تكن لتوصله إلى درجة الناقد الأدبي المتخصص بهذا الفن ، ومعظم هذه الخطرات تدخل في باب القصة ، وهناك آراء أخرى تتعلق برسالة الأديب ، وفن التراجم ، والعلاقة بين الأدب والعلم وغير ذلك مما سيتبين في موطنه بإذن الله .

١- آراؤه النقدية :

أ- آراؤه في الفن القصصي (٢) :

كان العريان يرى أن العرب لم يعرفوا القصة بمفهومها الحديث ، وإن عرفوها بفطرتهم ، إذ كانوا يتمتعون بأفق واسع ، وخيال رحب على حين كانت في الأمم الأخرى قواعد ، وصناعة مرسومة ، أما ما وصلنا من قصص عنترة وليلى وسواهما فإن حوادثها حقيقية تناقلها الرواة جيلاً بعد جيل ، ومن هنا أطلقوا عليها اسم الرواية ، دون أن يلتزموا بقواعد فنية كالتي يشترطها نقاد القصة اليوم (٣) .

ويرى أن العرب عرفوا الأسلوب الرمزي في القصة قبل أن يعرفه

---

(١) وهذا اللون من فنونه لا يدخل ضمن فن المقالة ولكنه يستخلص من مقالاته النقدية ، ومن مؤلفاته الأخرى .

(٢) محمد سعيد العريان أديب وكاتب قصصي - وقد درست قصصه في كتاب بعنوان القصة عند محمد سعيد العريان .

(٣) انظر مجلة صحيفة دار العلوم س ٩٣٩ ع ٣ ص ٣٠ - ٣١ : محاضرته عن فن القصص .

الغربيون ببضعة عشر قرنًا . ومن يقرأ حديث الإسراء والمعراج ، أو قصة الفتية الثلاثة الذين سُدّ عليهم باب الكهف ، فأخذوا يضرعون إلى الله بما قدّموا من صالح من أعمالهم علّه ينقذهم من الضيق الذي هم فيه واقعون ، ير منهما ومن أمثالهما في كثير من الأدب القديم ، نمطًا عاليًا من الأسلوب القصصي الرمزي [1] .

وأنواع القصة عند أديبنا سبعة : المثل ، فالأقصوصة ، فالحكاية ثم القصة والمقامة والرحلة ، وأخيرًا الرواية ، إلا أنه كان يرى للقصة والأقصوصة والرواية عناصر فنية يجب مراعاتها ، وما سواهم من المثل والمقامة والرحلة يسلكهم في مدارها لتوافر عنصر الحكاية فيهم . يقول في ذلك :

«والواقع أنها كذلك فعلاً لا يفرّق بينها إلا فروق يسيرة في الشكل أو في الكم ... ويجمعها كلها تعريف واحد هو ذكر حادثة وقعت في الحقيقة المحسوسة أو في خيال القاص ودنياه الباطنة المسكونة من عناصر شخصيته ، ومزاجه ، ووجدانه ، ورغباته ، وأمانيه ، وآلام نفسه ، ونظرته إلى الكون ، وما ادّخر في الواعية الباطنة من عقله من مختلف الحوادث والصور والأحاسيس المتباينة ، يؤدي ذلك كله إلى قارئه في كلام منظوم نظمًا خاصًا على طريقته الشخصية مترسمًا في أدائه ونظمه قواعد الفن القصصي ، هذا التعريف يشمل الأقصوصة والحكاية والقصة والرواية ، كما تخضع هذه الأنواع جميعها لقواعد محدودة اصطلح عليها أهل هذا الفن ، وتسمى مراتب القصة أو عناصرها الفنية» [2] .

أما هذه العناصر الفنية التي يقوم عليها بناء القصة فهي عنده خمسة تختلف أسماء بعضها عما عرف عند النقاد ، وهي : [3]

---

(١) انظر السابق .

(٢) المرجع السابق ص ٣٦ .

(٣) المرجع السابق ٣٨ - ٤٢ .

١- الدهليز :

وهو «تقديم يسبق العرض يتحدث عن الجو العام الذي بدأت فيه حوادث القصّة ، وكان له أثر فيها ليوطئ للخبر ، ويقرب مأخذ الرواية ... وهو ليس جزءًا حقيقيًا من القصة - ولكنه ... فرش للحديث عنها ، ومن ثم يستغني عنه إذا كان سياق القصة يدل عليه ، أو كان جوها معروفًا بحيث لا يستدعي تعريفًا به» ، كأن يقدم بالتاريخ لحادثة وطنية ، على أن يقتصر على ما له صلة بالموضوع [1] ، ولقد فعل هذا بقصته «قطر الندى» فقدم تمهيدًا تاريخيًا يعرّف بالجو العام الذي وقعت فيه حوادث القصّة ، أما في قصصه الأخرى ، وفي أول طبعة من قصته السالفة فإنه اكتفى بما يدل السياق عليه ، وبهذا لا يكون أحد العناصر الفنية التي يشترطها في القصة .

٢- العرض :

وهو التوطئة أو التمهيد بذكر أسماء الرواية ، والتعريف بأشخاصها وطباعهم ، وبسط الظروف الزمانية والمكانية التي بدأ عندها موضوع القصة ، والإشارة إلى ما سبقها من عمل يتصل بموضوعها ، أو هو الفكرة العامة المجملة عن موضوع القصة يتقدم بها الكاتب أول ما يتقدم ليهيء الأذهان للحادث المنتظر ، ويشوق النفوس إلى المتأخر ، ويعرّف بالظروف والأمكنة والأشخاص» .

وهذا ما يعرف بالتمهيد أو المقدمة لها ، على حين نراه يعده مشابهًا للمقدمة ومن شروطه أن يتسم بالإيجاز ، والوضوح ، والسذاجة .

٣- العقدة أو التعقيد :

وهو «الجزء الذي يجد فيه القاص المجال الفسيح لخياله ، وابتكاره ... تشتبك ... الظروف والوقائع ، والمنافع والمنازع ، والأخلاق ، فينشأ عن

---

(١) المرجع السابق ص : ٤٢ - ٤٣ .

اشتباكها الشك والقلق ، وفروغ الصبر ، ونزوع النفس وتطلعها إلى طريقة الحل» ، ومن متطلبات هذا القسم «ألا تشتبك الوقائع والمنافع مرة واحدة ، بل يتدرج القاص في تعقيد الحوادث درجة درجة ، حتى ينتهي به إلى نهاية ما ، ثم يأخذ في التدرج نازلاً حتى يبلغ به الطريق الذي أعدّ فيه المفاجأة للحل» . وأن يكون الكاتب مطّلعًا خبيرًا بأحوال الناس وطبائعهم ليصور للقراء - ناقلاً إياهم إلى الجو الذي حدثت فيه ، وأن يبتعد عن الاستطراد الذي يفكك أجزاء القصة .

ويقسم العريان العقدة كما قسمها أهل الفن - إلى ثلاث مراحل هي السفح أو الحضيض - والقمة والمنحدر [1] ، والعقدة أهم جزء في القصة ، بل هي القصة بحوادثها ووقائعها من ناحيتي الكم والموضوع .

٤- الإرصاد :

ويعرف حاليًا بالإرهاص : «وهو أن يومئ القاص في بعض حديثه في إحدى مرحلتي العرض والتعقيد إلى معنًى أو حادثة أو عادة تكون تمهيداً لطريقة الحل بحيث لا تدل عليه دلالة واضحة ولا قاطعة ، وبحيث لا يشعر القارئ حين يمر به في موضعه أنه مقصود بالذكر لغرض ما ، وإلا استعجل القارئ الحل قبل أوانه ، فيفوته بذلك العنصران الرئيسيان : التشويق والجاذبية» .

ومن شروطه أن يكون في موضعه بحيث لا يشعر القارئ أنه مقصود لغرض ، وأن يكون بارزًا يترك أثرًا واضحًا في فكر القارئ إلى أن يحين أوانه ، وذلك بحيلة من القاص . وإذا اضطر القارئ إلى العودة إلى الصفحات ثانية يقلبها فيفقد بذلك لذة القراءة وترقب الخاتمة ، وقد يستغني عنه إذا كان مما يعرفه الناس» .

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٣٩ ، والسفح أو الحضيض يعني به البداية . والمنحدر النهاية .

٥- الحل :

وبه تنحل العقدة ، ويشترط أن يكون فجائيًا مرتبطاً بما قبله ، مقنعاً يزول به الشك ، وتهدأ إليه النفس .

أما متطلبات الشخصية برأيه فهي البعد عن الغلو في تصويرها حتى لا تبدو نادرة المثال ، والعناية برسمها عناية تتحدد بها صورتها للقارئ [١] ، وأن نتصور العصر الذي نتحدث عنه إلا أن يكون خلافه مقصودًا لذاته ، كأن يرسم صورة لوضع شاذ في مجتمع غير عادي ، وحينئذ لابد من إشارة إلى هذا الأمر ضمن سياق الكلام [٢] .

أما الحوار فهو العبارات التي تصل بين آراء الشخصيات ، أو تصور به المواقف ، ويجب أن يتم في أكثر ما يستطاع إليه ، وهو يتنوع بتباين الشخصيات والموضوع ، ويجب أن يكون بعيدًا عن الكلفة والتصنع ، يؤدى بالفصحى البعيدة عن التقعر ، وإلا كان صاحبه عاجزًا شاذًا ، أبكم [٣] ، ضالاً ومضللاً بدعوته إليها والترويج لها [٤] .

والعريان يتطلب في موضوع القصة أن يكون واقعيًا مألوفًا للعصر الذي يتحدث عنه [٥] ، أما القصة المصرية فيجب أن تصور أوضاع مصر وعادات أهلها ، لا أن تكون نموذجًا لقصص غربية ، وشخصيات أجنبية .لا تمت إلى موطنها بسبب ، ولا تربطها رابطة [٦] .

والمغزى يجب أن يكون مبثوثًا في ثنايا القصة [٧] ، وهذه تصلح

(١) انظر تعريفه بقصة لقيطة : الكاتب المصري س ٩٤٧ م ٥ ع ٢٠ ص ٧٨٥ .
(٢) انظر صحيفة دار العلوم س ٩٣٩ ع ٣ ص ٤٠٤ .
(٣) انظر الكاتب المصري س ٩٤٧ م ٥ ع ٢٠ ص ٧٨٥ و م ٦ ع ٢٢ ص .
(٤) انظر الرسالة س ٩٣٥ ع ١٢٥ ص ١٩١٩ .
(٥) انظر صحيفة دار العلوم س ٩٣٩ ع٣ ص : ٤٠ - ٤١ .
(٦) انظر الرسالة س ٩٣٥ ع ١٢٥ ص ١٩١٩ ، والكاتب المصري س ٩٤٧ م ٥ ع ٢٠ ص ٧٨٥ .
(٧) انظر صحيفة دار العلوم س ٩٣٩ ع ٣ ص ٤٠ .

للتوجيه والدعاية ، وبث الشعور القومي في نفوس الكبار والصغار على السواء [١] .

أما إذا كانت القصة تتحدث عن أمر علمي ، كالقصة التاريخية مثلاً فللقاص أن يغير ما يشاء ، ويضيف ما يراه من الحوادث والشخصيات مما يبتدعه خياله ، وليس يطلب إليه أن يكون عالماً ينشر في قصته الأبحاث العلمية ، ويلتزم إيراد مراجعها [٢] .

والقصة والترجمة الشخصية لدن أديبنا الناقد متكاملتان يساند أحدهما الآخر ويكمّل نقصه ، ويكاد يكون الفرق بينهما معدومًا [٣] ، وكذا الفرق بين القصة والأقصوصة فلا تمايز بينهما إلا بالكم ، فالأقصوصة صورة مصغرة للقصة ، وتدور حبكتها حول حادث واحد ، وعقدة واحدة تنتظر الحل على حين يضاف للثانية حوادث كثيرة لتطول ، أما ملخصها فيبقى على حال ، وتصبح العقدة آنئذٍ تعقيداً لحوادث الأقصوصة ، وكلاهما يشمل العرض والإرصاد ، والتعقيد والحل ومن هنا كان تأليف الأولى أشقّ وأصعب من تأليف القصة لأن حوادثها يجب أن تكون مركّزة ومتوالية في سرعة لا تؤثر على واقعيتها ، فهي كخفقة نَفس تنتهي بلمحة النظر ، وتنفعل خلالها النفس ، وتتلون بكل الصور الوجدانية من خوف وأمل ، ورحمة وهوى ، ومن هنا كانت الصعوبة في اجتماع هذه الأحاسيس كلها في حادثة واحدة تنتهي إلى الحل الموفق في صفحتين أو ثلاث [٤] .

أما الحكاية فإنها تختلف عن القصة من حيث الموضوع إذ يقصد منها التشويق ، ولذا يزداد الاهتمام بالإغراب والخرافة ، والاختراع العجيب ،

---

(١) انظر الرائد س ٩٥٦ ع ٣ ص ١٣ : القصة التاريخية .

(٢) انظر جريدة الأهرام س ٩٦١ ع ٢٧١٥٢ ص ١٣ : القصة التاريخية : العرب لاخريستوف كولبس .

(٣) انظر الثقافة س ٩٤١ ع ١٤٩ ص ١٣ : أعيان الجيل .

(٤) صحيفة دار العلوم س ٩٣٩ ع ٣ ص ٤٥ - ٤٧ .

التصوير والمغزى . والرواية عنده : المسرحية ومن هنا تقوم على الحوار على حين تؤلف القصة لتقرأ أو تحكى [١] .

والعريان يرى أن دراسة قواعد القصة لا تكفي لتكوين الناقد أو القاص الموفق . إذ لابد من مطالعات شتى لألوان متعددة من القصص ، يمدها موهبة فطرية ، وخيال بارع ، إلى كدّ ، ومعاناة ، ووقت طويل [٢] .

وأخيرًا أرى أن أديبنا بهذه الخطرات النقدية ، حتى في محاضرته عن فن القصة لا تجعله في مصاف النقاد ، لأن أغلبها آراء عفوية استمدها من خلال دراساته واضطلاعه على الكتب العربية والأجنبية ، وإذا استثنينا هذه المحاضرة رأينا أن نقده كان عابرًا تبدى في ثنايا تعريفه بالكتب ، ولم يؤلف فيه بحثًا ، ولم ينتسب إلى مدرسة نقدية كالتي عرفت في العصر الحديث .

ب- *آراء نقدية أخرى* :

أما في غير القصة فإن أديبنا كان يرى ضرورة العناية بتراجم المعاصرين تراجم تكشف حياتهم الخاصة والعامة ، وتصورهم للقراء ، وكأنهم أناس أحياء يحادثونهم ويجالسونهم ، وذلك قبل أن تمحى صورتهم من الأذهان ، ويندثر تاريخهم ، فيصعب يومًا على الدارس أدبهم أن ينفذ إلى أسرار نفوسهم ، لأن آثار الأديب وكتبه لا تغني كثير الغناء إلا ببذل المشقة والجهد ، مع توقع الزلل ، ولقد ألف كتابه حياة الرافعي متأثرًا بفكرته هذه . ومبتدئًا - كما يرى - بهذا اللون الجديد من فن الترجمة [٣] .

وهو يعدّ ما يذكره الأدباء أو الساسة في الصحف أو المجلات من أعمال نادَوْا بها أو قاموا بتنفيذها جزءًا من الترجمة [٤] .

---

(١) انظر السابق .

(٢) المرجع السابق ص : ٤٧ .

(٣) انظر الثقافة مقاله أعيان الجيل س ٩٤١ ع ١٤٩ ص ١٣ . وحياة الرافعي ص ١٩ و ٢٣٠ .

(٤) انظر الثقافة س ٩٤٣ ع ٢١٧ ص ١٩ .

على أن ترجمة المعاصرين تعطي للقراء فكرة عن أحاسيس الجمهور نحو عظمائه ، وإن كان في كثير منها غلو أو تقصير [١] .

والقدامى أكثر منا عناية بهذا الفن الأدبي ، فقد تركوا لنا من حياة معاصريهم ما يشفي الغليل ، ثم إنهم عنوا بالعامة والخاصة ، مما يصور لنا مجتمعاتهم تصويرًا واضحًا وقد مرّ هذا إبان دراسة مقالات الأديب النقدية .

وعلى المؤرخين والأدباء أن يهتموا بالحوادث الهامة ، والجزئية ، فلكل دوره في دراسة الشخصية وبيئتها ، فالأحزاب مثلاً تؤثر على الأدب الفصيح والشعبي ، وعلى الأدباء ونقدهم ، وتقويم منزلتهم ، فبعضهم يرتقي إلى حيث لا يستحق ، وينزل آخرون عن مكانتهم الحقيقية ، وكذلك فإن الثورات تنشئ الخطباء ، وتغذي أقلام الأدباء [٢] .

والنقد الأدبي في مصر ضعيف الشأن مما أدى إلى وجود أدعياء أساؤوا إلى الأدب فانحطت قيمته ، على أن العداوة التي تنشأ من النقد الصادق أدت إلى البعد عنه تلافيًا للشحناء والبغضاء [٣] .

وهناك من ينقد نص أدبي له ، فيطلب من ناقده أن ينشئ نموذجًا يدعو إليه ، والعجز عن ذلك ليس دليلاً على فساد النقد ، لأن هذا غير الإنشاء [٤] .

كما يرى أن الأدب والعلم متلازمان متلاقيان ، ولا يسمى العالم عالمًا ما لم يستقم بيانه ، وكذا الأديب إن لم يأخذ حظه من العلم كان ناقص الأداة . ولقد كان للمترجمات أثر في تصوير بعض الشقة بينهما ، فقد أداها ناقلوها بلغة عقيمة ، ثم ادعوا أن الأدب غير العلم ، فهذا يعوّل على الفكرة

---

(١) انظر الكاتب المصري س ٩٤٦ م ٤ ع ١٤ ص ٣٧٦ - وس ٩٤٧ م ٤ ع ١٦ ص ٧٤٤ .
(٢) انظر الثقافة س ٩٤١ ع ١٥٦ ص ٧ ، وس ٩٤٣ ع ٢٥٧ : أدب النهضة .
(٣) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٢ ص ٢١ ، ٢٢ ، وس ٩٤٣ ع ٢١٣ ص ٢٠ .
(٤) انظر الثقافة س ٩٤٢ ع ١٨٠ ص ١٨ .

لا الأسلوب ، ويتمنى أديبنا أن يكون علماؤنا أدباء ليقدموا لنا الأدب العلمي، أو العلم الأدبي ، فإن العربية في حاجة إلى هذا اللون الجديد من أدب الإنشاء ، ولا فرق عنده بين فروع اللغة من أدب وإنشاء ونحو ومطالعة .. لأنها جميعها تؤدي إلى غاية واحدة هي تنشئة أجيال تحسن التعبير الصحيح قولاً وكتابة [١] .

وللأدب القديم مكانته وأهميته ، ودعاة التجديد لا يحسنون فهمه فيسيئون الحكم عليه ، ويشيدون بالمترجمات الغربية ، وأسلوبها الشبيه بالرطانة الأعجمية ، بلغة الصحافة القريبة من العامية ، مع أن القديم لا يُدرِك جماله وثمرته إلا من أدمن البحث والاستقراء والنظر.

على أن هذه النهضة الحديثة ما كان لها أن تظهر لولا أناس عكفوا على التراث فدرسوه وحقّقوه ثم أخرجوه لنا عسلاً مصفى سائغًا شرابه [٢] .

وكان يرى أن الفصحى يجب أن تسود الأدب ، فهي الرابطة الموحدة بين العرب ، وكل داع إلى العامية لا يخرج عن مستوى الشبهة والتضليل .

والشعر عنده ما عبر عن أحاسيس قائله ، لا يشترط فيه أن يتقيد بنظم أو قواف ، واللغة الشعرية تلك التي تنقل مشاعر الكاتب ووجدانه إلى القارئ فيحس بها إحساس العقل والقلب ، والكِتاب الذي يتسم بمثل هذه الأوصاف كتاب شعر ونثر معًا ، لنستمع إلى قوله يتحدث فيه عن كتاب « شيطان بنتاءور لأحمد شوقي» .

«وهو كتاب شعر ونثر ، وقصة ، لا أعني الشعر المنظوم فإن حظ الكتاب من ذلك الفن قليل ، ولكنه إلى ذلك فن من الشعر ، يروع بلفظه ومعناه ، وبما تحس من نبضات قلب شاعره ، هو كتاب شعر إذن وإن لم يكن منظومًا ... لأن مؤلفه قد آثر أن ينثر فيه خواطره غير مقيدة بميزان ولا

---

(١) انظر صحيفة دار العلوم س ٩٤٣ ، عدد مشترك (١ ، ٢) : محاضرته رأي في تعليم اللغة .

(٢) انظر الرسالة س ٩٣٥ ع ١٢٨ ص ٢٠٣٥ .

قافية» [١] ولكن العريان مع ذلك لم يكن من دعاة الشعر الحديث ، أو غير الموزون .

وللأديب رسالة ذات شأن فهو الناصح الأمين لأمته ، يقودها إلى مدارج الخير ، ويجنبها مزالق الخطر ، ولا فرق عنده بين الأدب والفن ، والخلق والسياسة والاقتصاد ، والمجتمع ، يقول لمن أنكر عليه أن يخوض في كثير من مجالات الحياة :

«وهذا الشتيت المبعثر ... فكرة مجتمعة إلى هدف موحد ... دع عنك هذا (التفريق المصنوع) بين ما تسميه الأدب والفن والخلق ، هذه عناصر ثلاثة لمعنى واحد إذا تركزت حقيقته في وعي الأمة فقد سدّدت ، ما الأدب ، وما الفن ، وما الخلق ، وما الدين ، وما الاجتماع ؟ وما السياسة ؟ أين تؤدي مؤداها مجتمعة أو متفرقة ؟ وهل الغاية من كل واحد منها إلا الغاية منها مجتمعة ؟ ... فلا أديب بحق إلا أن يكون له ذوق في الفن ومذهب في الخلق ، ورأي في الدين ، وطريق في الاجتماع ، ولا (أمة) لا أمة إلا أن تكون طريقها واضحة المعالم في الأدب والفن ، وفي الخلق والدين ، وفي الاجتماع والسياسة ، وأن يكون لها هدف يجتمع عليه الرأي العام من بناتها وبنيها ، تجتمع عناصره من الأدب ، والفن ، ومن الخلق ، والدين ، ومن السياسة والاجتماع ، فأين هو (الرأي العام) المجتمع من هذه الشئون» [٢] .

وحينما عرّف بكتاب «الباب المرصود لعمر فاخوري» تحدث عن الدعوة إلى الأدب المكشوف وبين أن على الأديب أن يلتزم رسالة في الحياة قوامها الخلق إلى جانب الأدب ، ولئن ادعى المدّعون أن الأدب الماجن يطهر

---

(١) مقدمة الكتاب ص ٣ تحقيق العريان ، وانظر كذلك حديثه عن أسلوب كتاب «حديث القمر للرافعي» الذي يعده ضربًا من النثر الشعري أيضًا .

(٢) الثقافة س ٩٤٢ ع ١٩ ص ٢١ : هذا الباب .

النفوس فإن أمتنا لم تنضج بعدُ نضجًا خلقيًا وأدبيًا تستطيع فيه أن تمايز بين الخير والشر ، ليكتب أمثال هذا النوع من الأدب ، ومن هنا وجب أن تحد حرية الأديب لكي لا يسيء إلى الرأي العام ، وإلى عقائد الأمة وأخلاقها [1] .

أما عن حرية الأديب تجاه عصر النبوة فإنه كان يرى أن لهذه الفترة حرمتها التي يجب الحفاظ عليها من أن يمسها الفنانون ومنهم الأدباء بالتشويه الذي يؤدي إلى إفساد عقيدة ، أو مسخ تاريخ [2] .

٢- التطبيق النقدي :

هذه هي آراؤه النقدية ، فهل تمكن من تنفيذ ما دعا إليه ، وتجنب ما حذّر منه ، لقد رأيناه قاصًا يسجل بأمانة تاريخنا وأمجادنا ، ومترجمًا لسيرة الرافعي ترجمة من عايشه ، واطّلع وسجل كبرى الحوادث التي مرت على حياته ، وجزئياتها ، كما كشف لنا عن نوازعه وميوله ، وسطر في كثير من مقالاته وخواطره وكتبه الأحداث التي مرت على أمتنا بلغة الأديب الذي تنفعل نفسه للحوادث فيعبر عنها تعبيرًا صادق المشاعر ملتزمًا في ذلك كله بل حتى في أدب الأطفال اللغة العربية الفصحى ، داعيًا إلى الخلق الحميد بشكل مباشر تارة ، وغير مباشر أخرى ، واقفًا أمام التراث وقفة احترام وإجلال يكشف لنا عن كثير من حقائقه في كتبه التي حققها ، ومن هنا أستطيع القول إن الأديب العريان كان أديبًا ملتزمًا فكرة ، متجهًا إلى هدف في آدابه ونقده، وإن لم يصل في النقد إلى درجة المتخصص لأنه كان شذرات وخطرات متناثرة هنا وهناك على صفحات المجلات غالبًا ، ولم تصل في مجموعها درجة تمكنه من أن يؤلف كتابًا في فن النقد ، من ذلك ما تعرض به لشاعر ختم شعره الغزلي بلوم نفسه على ما أنفق ، ووصم طباع حبيبه بأنها صيغت من الوحل ، وقد سماه العريان بشعر الوحل تأسيًا بالقدامى الذين كانوا يلقبون

---

(١) انظر الرسالة س ٩٣٨ ع ٢٦٢ ص ١١٥٩ .

(٢) انظر الثقافة س ٩٤٤ ع ٢٦٤ ص ٢٤ .

شعراءهم بكلمة ترد في بيت لهم .

ومن ذلك أيضًا ما نقد به أسلوب بيتين استشهد بهما العقاد في كتابه «عبقرية الصديق» مدعيًا كما ذكر محمود شاكر أن السيدة عائشة تغنّت بهما أمام الرسول ﷺ على سبيل المدح ، ونسبهما إلى عروة بن الزبير ، وهذان البيتان هما :

«فلو سمعوا في مصر أوصاف خده ... لما بذلوا في سَوْم يوسف من نقد

لواحي زليخا لو رأين جبينه ... لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي»

فقد بين أن نسجهما مهلهل ، ضعيف التركيب ، ولا يعقل أن يكون من أسلوب العصر الأول ، ولا ما بعده بمئات السنين قوله «فلو سمعوا في مصر» و «أوصاف خده» و «بذلوا في سوم يوسف من نقد» كذا هذه المبالغة المستحيلة في العقل والواقع يمتدح بها الرسول ﷺ في قوله «لو رأين جبينه لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي» . وثالثة لم يكن عروة ولا السيدة عائشة من غلظة الذوق ، وضعف الحس البياني بحيث يتأتى لأحدهما أو كلاهما أن يسوم سيدنا محمد ﷺ سوم رقيق في سوق المزايدة ، أو أن يستعمل آية من الذكر الحكيم في مثل هذا الموطن من الغزل أو المديح .

رابعة هي أن المديح في ذلك العصر لم يكن بهذه الأوصاف ، فقد وجد الغزل بالغلمان في عصر أبي نواس ، وشاع في القرن السابع بعد الاختلاط بالأعاجم [١] .

أما نقده للكتب والمقالات والقصائد فكان عامًّا موجزًا على نحو «إن هذه المقالة هي خير ما كتب» أو «على أنه كتاب فريد في العربية في أسلوبه ، ومعانيه ، وبيانه الرائع» أو قوله «وكانت دراسة أعتقد أن أحدًا من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقي ، أو يبلغ ما بلغ الرافعي بمقاله فأنصف شوقي» أو يقول عن الأسلوب «أسلوب هادئ متزن فيه دفء الوطنية ، وسلامة

---

(١) انظر الثقافة س ٩٤٤ ع ٢٦٤ ص ٢٣٠ .

المنطق ، ويقين الإيمان» وقد يتوسع أكثر فيبين سمات النص الذي يتعرض له بالنقد ولكنه مع ذلك يبقى في حدود النقد العام الذي لا يكشف عن مواطن القوة والضعف ، كقوله عن الفصول الدائرة حول طه حسين والرافعي في كتابه «تحت راية القرآن» :

«فيهما ألوان من النقد مختلفة ، وأساليب من البيان متباينة ، ففيها التهكم المرّ ، وفيها الهجوم العنيف ، وفيها المصانعة والحيلة ، وفيها رد الرأي بالرأي ، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد ، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع ... ولكن أكثر هذه الفصول نموذج عال من النقد العلمي الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب [1] .

وقد مرّ آنفًا نقده أسلوب كتاب شيطان بنتاءور ، لأحمد شوقي ، وهو من هذا القبيل .

وأما نقده لطريقة أديب في النقد فتبين من كتابه «حياة الرافعي» فقد تعرض لها عند كل من الرافعي ، طه حسين ، والعقاد ، فبان العيوب والمحاسن .

فالرافعي على الرغم من أهليته لهذا الفن واستعداده له ، وإحاطته الواسعة ، وإحساسه الدقيق ، وغيرته على الدين واللغة ، مع خفة ظل ، وحلاوة لفظ ، ونفاذ فكر ودقة بصر ، تحوجه عفة اللسان ، والقدرة على ضبط النفس ، وهو ناقد عنيف ، حديد اللسان ، لا يعرف المداراة ، ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه ، معتد بنفسه ، مرّ الهجاء ، يصب جام غضبه على من يريد أن يثأر به ، وينتقم منه ، فيبدو نقده كاللهب والحمم المقذوفة ، وكتابه «على السفود» نموذج للنقد الرفيع لو خلص من عيبه الفاحش الذي لا يريد أن تحوي العربية مثله لما فيه من نقد لاذع ، قبيح .

ولقد تجاوز الرافعي حدّه في نقده العقاد ، ولكل منهما خلة مرذولة في

---

(١) ينظر الثقافة س ٩٤٤ ع ٢٦٤ ص ٢٣٠ .

هذا المجال . وأما طه حسين فمترخص في دينه ، ينخلع عنه ليحقق نصًّا من النصوص ، وهذا فعل منكر لا يرتضيه مسلم .

بقي سؤال يرد إلى الذهن : هل كانت آراؤه النقدية نابعة من فكره ، أو أنها استمدها أو تأثرها من ثقافات عربية ، قديمة أو حديثة ، أو أجنبية ؟ الحق أن بعضها متأثر فيه بثقافته الإسلامية ، وبتراثنا العربي ، وبعضها الآخر استقاه من ثقافته الأجنبية مع تحوير يتلائم والعصر الذي يعيشه ، والبيئة التي تحيطه .

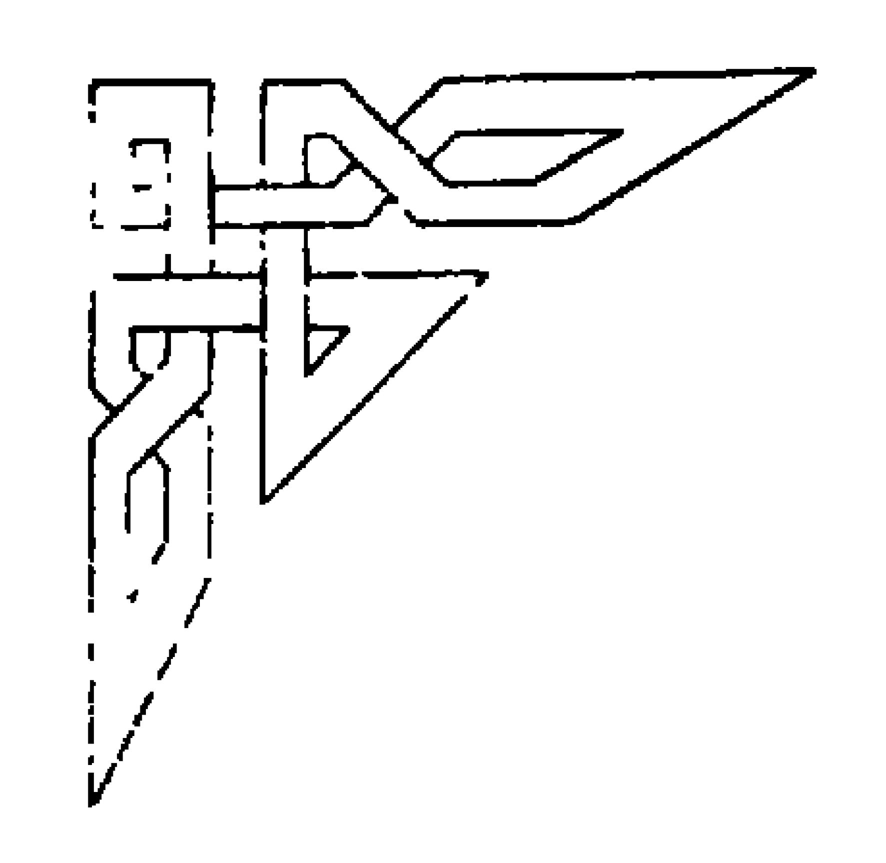
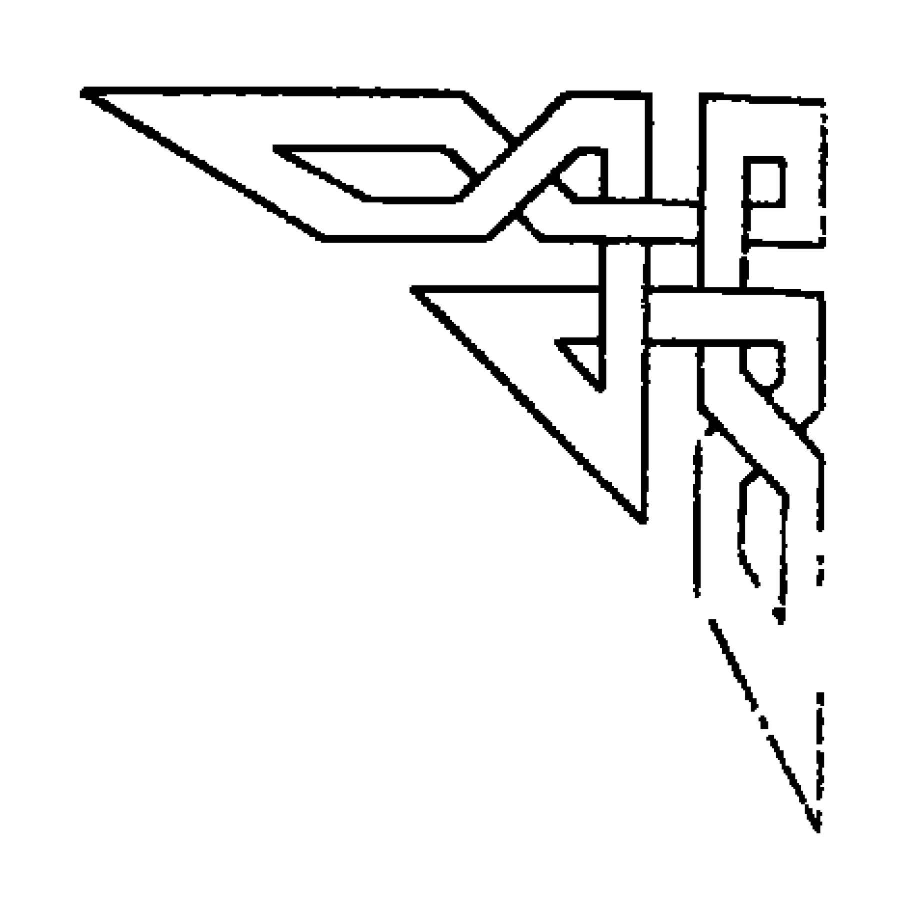
فمن النوع الأول : دعوته إلى التزام الأديب ، فهو يطالبه بأن يشرع قلمه في وجه الباطل ، ويدعو فيه إلى الخير ، لا يفرق في ذلك بين دين وعلم، وأدب وسياسة ، واجتماع واقتصاد ، وخلق ، ويصرح أنه يستمد هذه الآراء من الإسلام وتعاليمه .

ومن النوع الثاني «تأثره بالتراث العربي» ما نراه إبان دعوته إلى فن جديد للترجمة فن يسجل جزئيات الحياة التي يحياها الأديب ، ويحياها المجتمع بكل فئاته .

ومن تأثراته بالثقافة الغربية : آراؤه في فن القصة ، مع بعض تحوير ينسجم وأفكاره وعصره ، وقد ذكر أن العرب لم يعرفوا هذا الفن في ثوبه الحديث ، لكن وجد في تراثهم القصة الرمزية . وقد اختلفت تسميته لبعض عناصرها عن تسمية الغربيين ، مرّ ذلك آنفًا ..

هذه آراؤه النقدية ، وهي كما ذكرت لا تجعله في مصاف النقاد ، وإن كان طرق بابه ، أو أمسك مفتاحه .

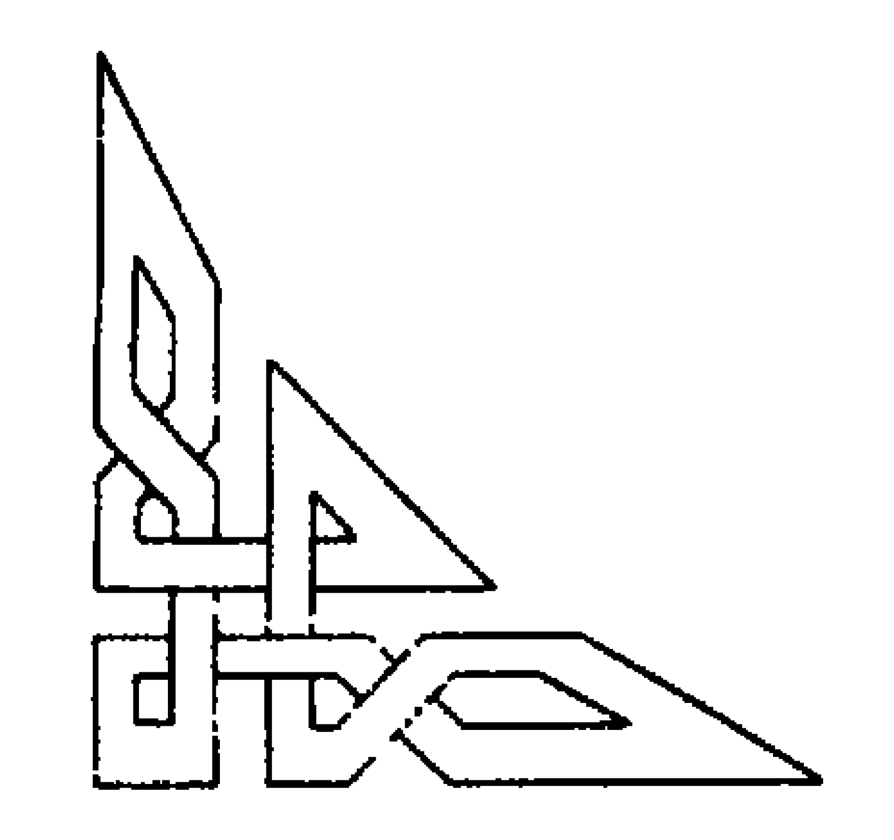
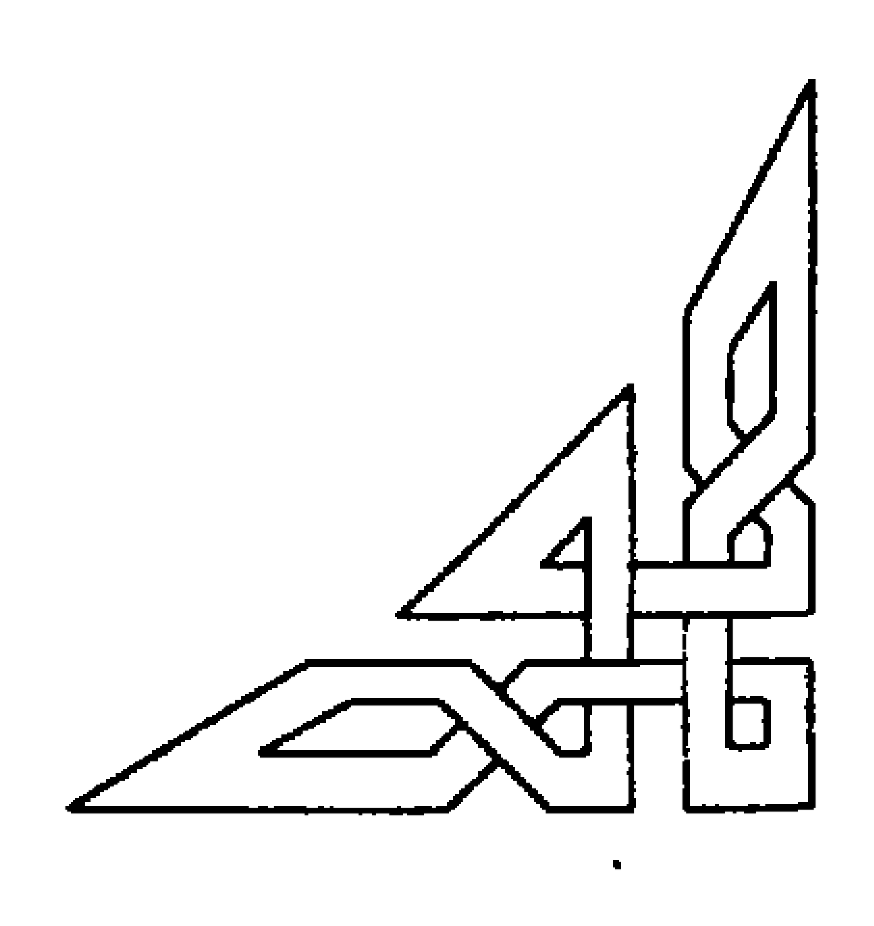
* * *

الفصل الثاني

السيرة عند العريان

حياة الرافعي

فن السيرة :
من كتابه : حياة الرافعي

١- أصل الكتاب :

بدأ محمد سعيد العريان ينشر مقالات عن مصطفى صادق الرافعي ، الأديب ، منذ عام ١٩٣٧ قبيل وفاة هذا بفترة وجيزة (١) ، ثم تابع ذلك أثر انتقاله إلى جوار ربه ، واستهلها بنعيه ، ثم انتقل إلى الحديث عن تدينه ، ودفاعه عن الإسلام ، تلتها مقالات عن نسبه ومولده ، فثقافته ، فأعماله ، ثم عن حبه ، وعلمه ، فأخلاقه ، ثم عاد ثانية إلى الحديث عن علاقته بمي زيادة وعن كتبه التي تتصل بموضوع الحب ، كما تحدث بعدُ عن معاركه الأدبية مع طه حسين والعقاد ، ثم عن فن المقالة ، وطريقته في التأليف .

وقد بلغ مجموع هذه المقالات ثمانية وأربعين مقالاً ، اختلف ترتيبها في المجلة عنها في الكتاب الذي أصدره سنة ١٩٣٩ تحت عنوان حياة الرافعي .

أما المادة العلمية فهي هي في الكتاب والمجلة ، حتى عناوين المقالات غدت للفصول في كتابه المذكور .

٢- دوافع التأليف :

للرافعي على أديبنا يد لا تنكر ، فهو الذي سدّد خطاه إلى هدفٍ ، وجعل كفاحه الأدبي في سبيل غاية ، إذ لم يكن في رأي العريان كاتبًا ولا شاعرًا ، ولا عالمًا ، ولا مؤرخًا فحسب بل كان كرسول هداية جاء في غير زمانه ليوقظ النُّوَّم وينبههم إلى وجودهم ، وإلى ما يعيد إليهم كيانهم ،

---

(١) وهي ثلاث مقالات تحدثت عن اتصاله بأستاذه الرافعي ، ونشأته ، وأدبه ، وكيفية كتابته للقصة، ثم رأيه في المرأة ، وتدينه انظر مجلة الرسالة الأعداد ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، بعنوان مصطفى صادق الرافعي .

وشخصيتهم التي يحيون تحت شعارها ، ولا يتخلّقون بخلاقها ، جاء ليذكر الأمة العربيـة المسلمة بماضيها الأغر الأمجد ، ويدعوها إلى السير على نهجه ، وتقفي آثاره ، علّها تسود كما ساد ذووه ، وتعلو رايتها خفاقة فلا تكون إمّعة لكل داع وناع .

ولقد كان الرافعي رحمه الله مسلمًا لا يعرف له جنسية غير الإسلام ، وأرضه ، فإذا ما سئل عن وطنه أجاب بأنه الدين الحنيف هو «في وطنيته (مسلم) لا يعرف له أرضًا من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول وطني ؛ فالكل عنده وطنه ، ووطن كل مسلم ... الوطن كما يراه لنفسه ، ولكل مسلم : هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية» [1] .

ولقد تغلغلت هذه الأفكار ثنايا نفس العريان ، فكان تلميذًا بارًّا وصديقًا حميمًا يحس بفضله عليه ، وبأن من واجبه أن يعرف القراء على هذه الشخصية الفذة قبل وفاته ، وبعدها ، ليجدد دعوته ويُبْقي ذكره ، وينشر رسالته ، وليعرّف الناشئة أدبه فيتأثروا خطاه في بيانه ، وفي الغاية بعد ما رأى انصرافهم عن أدبه لعوامل عديدة ذكرها في سيرته وهي :

١- كان الرافعي أديب الخاصة ، يؤلف ليثري اللغة بجديد المعاني والألفاظ على حين لا يرى شبابنا في الأدب إلا ملهاة وتسلية لإزجاء الفراغ.

٢- وكان جمهور المتأدبين يرى الأدب ما طابق هوى النفس دون أن يكلفها عناء البحث ، خلافًا للرافعي .

٣- والأدب عند معظم المعاصرين مرتبط بالسياسة ، وأستاذه لا يفقه من أمورها إلا ما ندر ولا يخضع لمؤثراتها فيما تخطه يمناه .

٤- الأدب عند كثير من الناشئين بعيد عن الدين . وما سجله لا يُعد لونًا من ألوانه ، وكان الرافعي يتخذ منه مطية للدفاع عنه وعن حرماته في وجه الباطل وعنفوانه .

---

(١) حياة الرافعي ص ٢٣ .

٥- الرافعي على غزارة أدبه غامض عند أدباء العصر ، لا يعرف أكثرهم من كتبه إلا أسماء ممن يؤرخ الأدب ويشتغل بتحصيله .

من أجل ذلك كان لابد أن يعرض أدبه ، وأن يحكي سيرته لتكون - كما يتمنى - تمهيدًا لدراسته دراسة يقوم بها باحثون يعوضوا فيها النسيان والإهمال اللذين مُني بهما الرافعي وكتبه .

وإذا تذكرنا أن العريان كان يدعو إلى ترجمة حياة الأديب الخاصة لئلا ينسى أدركنا السبب الذي حدا به إلى ذلك ، وهو الذي عاشره واطلع على جزئيات حياته .

هذه هي الأسباب ، وإنها لمهمة جُلّى قام بها اعترافًا بالفضل لأهله ، وخدمة للدين والعربية كما يقول .

٣- *موضوع السيرة* :

افتتح سيرته بمقدمة للأستاذ محمود محمد شاكر عرّف فيها بالكتاب ومؤلفه ،أتبعها تمهيد حكى تعرّفه على الرافعي ، وحق هذا عليه ، وبين فيه أنه سيكتب عنه معتمدًا على ما روي عنه قبل اتصاله به ، ثم على ما رأته عيناه ووعته أذناه إبان صداقتهما ؛ ثم جاءت الفصول تترى تتحدث عن هيئته الجسمية ، فنسبه ومولده ، وأسرته ، ومهنته ، فعلمه وثقافته التقليدية التي كان قوامها القرآن الكريم وكتب السلف ، وانتقل بعدُ إلى شعره وديوانه الأول الذي طبعه وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، ثم إلى نقده الشعري ، وبدأه في سنة (١٩٠٥) وفيه قسم الشعراء أربع طبقات ، وعدّ نفسه في الطبقة الأولى ، وقد سبب له هذا النقد معارك أدبية تحول بعدها وبعد تأليفه «تاريخ آداب العرب» إلى النثر ، وقد لاقى هذا الكتاب إعجاب المختصين ، وعرَف من يومها أهمية الكلمة فشرعها في وجه أرباب الزيغ والضلال يحمي بها الدين واللغة ، ويسفّه آراءهم ، ويعيد إلى العربية ماضيها الأمجد ، وللجملة القرآنية مكانتها اللائقة .

على أن نفسه الشاعرية الحساسة كانت أيضًا عاملاً في تحوله هذا ، إذ كان يرى في قيود الشعر حدًّا له عن انطلاقه فيما تجيش به نفسه من عواطف ومعان ، وإن لم يصرّح بهذا .

وقد ألف بعدُ كتابه «إعجاز القرآن» كجزء ثان لتاريخ آداب العرب ، ثم كان «حديث القمر» يصف فيه عواطف الشباب بأسلوب فني مصنوع ، ثم «كتاب المساكين» ألفه متأثرًا بالبؤس الذي نكبت به مصر أيام الحرب العالمية الأولى ، ثم اتجه إلى الأناشيد الوطنية وشهر بها شهرة استحق أن يلقب بعدها بشاعر الأناشيد .

وتحدث العريان بعد ذلك عن حب الرافعي ، فذكر أنه كان يعده مادة للشعر ، وينبوعًا للرحمة ، ووسيلة إلى الغايات العليا ، ولكنه لم يخلص قلبه إلا لواحدة كان لها مجلس للأدباء يتداولون فيه كل «ثلاثاء» ألوانًا من الأدب شتى ،وقد أعجب بها وأعجبت به ، ثم تطور هذا إلى حب عميق أحس خلجاته في قلبه لا سيما بعد القطيعة التي سببتها غيرته ، وقد ألف لها كتابه «رسائل الأحزان» الذي بدت فيه كبرياء النفس إلى حب جامح دعاه يتودد إلى صاحبته أن تسكب عليه من حنانها وعطفها ؛ والقارئ يحسب أسلوبه مصنوعًا . على حين قصد مؤلفه أن يكون ترجمان النفس ، وصفحة لما طواه الزمن من حوادث مرّة .

ثم ألف كتاب «السحاب الأحمر» ليكون ردًّا على صاحبته هذه التي أهاجته وقست عليه برسائلها ، لكن حبه سيطر على عقله ومشاعره ، وتبدّى في أخريات كتابه .

ثم كان كتابه الثالث في الحب «أوراق الورد» الذي سطره بعد ما ثابت إليه نفسه . وهو لهذا خواطر منثورة في الحب والجمال .

وينتقل العريان بعد إلى معارك الرافعي الأدبية مع كل من حاول المساس من الدين والعربية . وقد ألّب هذا عليه صدور كثيرين . وطه حسين

أول من تصدى لهم فقد نقد هذا مذ كان طالبًا في دار العلوم أسلوب الرافعي ، وكتابيه حديث القمر ، ورسائل الأحزان . ولكنه لم يلق ردًّا من الرافعي ، ولما ظهر لطه كتابه «في الشعر الجاهلي» وبين أن القرآن الكريم لا تؤخذ أخباره إلا إن ساندها وثائق جاهلية أو إسلامية معاصرة . تقاذف كلاهما كلمات الكفر والضلال ، والغفلة والجمود ، وانتقلت المعركة من ميدان الأدب إلى ميدان الدين ، فالسياسة وكادت القضية تودي بطه حسين لولا إلغاؤه هذا الرأي في كتابه «في الأدب الجاهلي» الذي هو الأول بعد تعديله، وظل الخصمان بعدها يتربص كل منهما بالآخر إلى أن انتقل الرافعي إلى جوار ربه ، بعد أن خطت يمينه كتاب «تحت راية القرآن» الذي بين فيه الجديد والقديم ، وأباطيل الأوائل الذين يحاولون بهذه الوسائل ، وتحت أسماء براقة أن ينالوا من الدين والعربية وتراثها ، وندد فيه بطه حسين تنديد الثائر المتوثب لخصمه .

على أن الرافعي لم يكن يتنقص كل جديد إلا ما كان سبيلاً إلى الحط من شأن الفرقان والفصحى وتراثها . وقد شققت له مبالغته في النقد معاني وأساليب قيمة من ذلك حديثه في ثمانية فصول عن « كليلة ودمنة» الذي تشبه فيه بأسلوب ابن المقفع ، وضمنه كتابه تحت راية القرآن أعجب بها طه حسين على الرغم من أنها في هجائه ، ثم أضاف إليه بعد فصلاً في العقاد تحت عنوان « كفر الذبابة» .

ثم صار بعد هذه الفترة شاعر الملك إلى أن نافسه عبد الله عفيفي فهجاه في كتابه «على السفود» وانقطعت بعده صلته بالملك .

وقد بدأ النزاع بين الرافعي والعقاد مذ أصدر صاحبنا كتابه إعجاز القرآن ، وقد نَفَس العقاد عليه أن يصدّر كتابه بقول لزعيم الوفد الناطق بلسان الأمة آنذاك «سعد زغلول» فادعى لذلك أن الرافعي كتب هذا ثم نحله سعدًا ، فثارت ثائرة الرافعي وكتب فيه مقالته الأولى في «على السفود»

واشتعل بعدها أوار الخصام ، وأغفل كل منهما كل حدود الأدب ، وكان الرافعي يحط من ذوق العقاد الأدبي ليبين للقراء عجزه عن إدراك البيان الساطع وأساليب البلاغة ، ثم كانت هدنة إلى أن مات شوقي وكتب فيه الرافعي مقالاً ، فخطأه العقاد ، فتصدى الرافعي يرد مزاعم الخصم ويتهم المتأخرين بقلة التبصّر بأساليب العربية ، ولما أصدر العقاد ديوان «وحي الأربعين» نقده في مقالة له كانت خير ما كتب الرافعي في نقد الشعر ، وأقربها إلى المثال الصحيح ، لولا هفوات قليلة يعفيه من تبعتها أنه إنسان (١) ، ورد عليه العقاد ردّ سباب وشتيمة ، واتهام بالوطنية ، وصار الرافعي بعد ذلك لا يرى سانحة تسنح له ليطعن في العقاد إلا اغتنمها ، ولا سيما بعد ما نحل طه حسين خصمُه العقادَ لقب أمير الشعراء .

وذكر المؤلف بعد هذا أن فترة مرّت لم يكتب فيها الرافعي إلا بضع مقالات ، ثم اشتغل في مجلة الرسالة بأجر يعينه على إتمام تدريس ابنه ، ثم بين رأيه في الكتابة ، فهي عنده فكرة ، وعاطفة ، وصناعة فنية ، وكان على صممه يتمتع بذوق موسيقي يحسن به اختيار الكلمة المناسبة ، وقد ساعده هذا على أن يفهم سر إعجاز القرآن ، وكان يحفل بمقاله ، ويعنى به عناية جعلت بعض الأدباء يقول فيه : «إنه يقاسي في هذه الكتابة ما تقاسي الأم من آلام الوضع» (٢) . وكان أكثر موضوعاته اجتماعي يتعلق بالمرأة ، وقد طرق فن القصة مستمدًّا مادتها من التاريخ العربي وأدبه مبتغيًا هدفًا خلقيًّا ، وأعجب القراء بهذا اللون مما شجعه على المضي فيه .

ومما حكاه العريان عن أستاذه أيضًا إيمانه بتجاوب الأرواح في اليقظة والنوم ، وعن الوحي والإلهام مما ينكره كثيرون ويحسه الرافعي ، وكان على تدينه تعتوره نزوات شيطانية يعقبها استغفار واستعاذة من عمل الشيطان وقد

---

(١) حياة الرافعي ص ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٨ .

ألف مقالين هما «دعابة إبليس» و «الشيطان» يعرض فيهما هذه المعاني .
كما تحدث عن صلة الرافعي بالمجتمع فذكر أنه حظي باهتمام القراء مذ بدأ يكتب في الرسالة ،وصاروا يراسلونه بين ناقد ومثن ومستفت حتى صار لهم الأب النصوح والمعلم المشير والصديق الحميم ، وكان أحيانًا يخفي اسمه التماسًا لنفع أو لغاية في نفسه أو ينحل مقالاته غيره زهدًا عنها وإيثارًا لمن أراد أن ينال عنها أجرًا .

ولم يشترك الرافعي في حزب أو جماعة لآفته الجسمية التي اضطرته إلى الانعزال ، ولتعصبه لرأيه ، لكن لم يمنعه هذا من أن يكون هواه مع إحدى الجمعيات ، وقد أنشأ مع جماعة من الشباب جمعية تدعو إلى الإصلاح الديني لكن علماء الأزهر ناهضوا هذه الدعوة إذ كانوا يسيئون الظن بكل تجديد ، كما اشترك مع جماعة الثقافة الإسلامية التي أنشأها العريان وصحبه .

ولقد تحدث العريان عن جهل صاحبه بالنفاق الاجتماعي الذي يسميه الناس التقاليد أو الأدب اللائق ، وضرب لذلك أمثلة منها أنه لم ير بأسًا أن تتخذ صورته وسيلة للدعاية إلى بعض العقاقير الطبية ثم ذكر أنه كان ولوعًا بالرياضة وأنه سباح ماهر .

وأخيرًا حكى لنا وفاته التي كانت سنة ١٩٣٧ في طنطا ثم ختم كتابه بالنعي على أدباء مصر أن يتجاهلوا الرافعي ومكانته بسبب عداوتهم له . وحثهم على حمل رسالته التي جاهد من أجلها لحفظ الدين والفصحى ، وعلى نشر كتبه لينتفعوا بما فيها من أدب وعلم .

٤- *شخصية الرافعي في سيرته .*

من خلال دراسة السيرة نتعرف على الرافعي الرجل الذي انعزل عن الوسط الاجتماعي ، وألف المكتبة والكتب ، ولا سيما العربية والدينية ، مذ كان يافعًا بعدما أصيب بداء الصمم إلا أن مرضه هذا لم يمنعه من ممارسة مهنته ، بل كان دقيقًا فيها دقة أنقذته من كثير من الأزمات التي تعرض لها

بسبب كبريائه ، وعدم انتظام دوامه الرسمي .

وكان إلى ذلك ذا نفس حساسة مرهفة ، تنفعل للحادثة يراها ، أو يقرأها حتى كأنها تعرض أمامه ، وكان لهذه الحساسية أثرها في تكبره وعنفوانه ، وشدة غيرته ، وفي مسابقته الشعراء فالكتاب ، وفي اشتباكه مع هؤلاء في معارك أدبية لم يصدر جميعها من حمية دينية ، كما كان لها أثرها في حياته الخاصة ، فلقد قاطع محبوبته على شدة إعجابه بها ، وحبه لها لأنها انصرفت عنه بعض الوقت لتتم حديثًا كانت بدأته قبل مجيئه ، ثم لم يحاول أن يسترضيها بل وصمها بأردأ الصفات حين زعم «أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون ، وهيهات ...» [1] .

لقد تبدت شخصيته هذه في نقده الأدبي الذي ضمنه كتابه «تحت راية القرآن» فصورته فيه كما يراها العريان «صورة جهمة للرافعي الثائر المغيظ المحنق ،جاحظ العينين ، كأنما يطالب بدم مطلول ، مزبد الشدقين كالجمل الهائج ، منتفخ الأنف كأنما يشم ريح الدم ، سريع الوثاب كأن خصمًا تراءى له بعد ما دار عليه طويلاً ، فهو يخشى أن يفرّ» [2] .

ولا شك أن صورة كهذه ، ولو كانت برزت في وجه عدوّ حاد الله ورسوله ، لتدل على عنفوان وشدة حين يستحق المهجو هذا ، أو يرى أنه يستحق هذا ، إلا أنه في كثير من أحايينه كان «هادئًا متزنًا فيه وقار العلماء ، وحكمة أهل الرأي ، ورحابة صدر الناقد البريء» [3] ، وكان يعترف بخصاله الذميمة في النقد ، وقد استجاب لدعوة المؤلف إلى تخليص كتابه «على السفود» من النقد اللاذع الذي تجاوز به حدّه ، مما طمس معالم الجمال التي تدل على نفاذ فكر ، وسعة إحاطة ، ودقة نظر ، وقوة بصر بالعربية

---

(١) حياة الرافعي ص ١٣٢ .

(٢) حياة الرافعي ص ١٦٣ .

(٣) حياة الرافعي ص ١٦٣ .

وأساليبها .

ومما يتعلق بكبرياء الرافعي واعتداده بنفسه أنه كان في أوائل حياته الشعرية يمتدح نفسه وينسب ذلك إلى غيره كوسيلة للدعاية وتوكيد الذات ، ليعرفه الأدباء ، وقد تحولت هذه الخلة في أخريات حياته إلى وسيلة لدفع الضر وجلب النفع له أو للآخرين .

وكان الرافعي يؤتمن على السر ، وقد صارحه لذلك كثير من القراء ليخفف عن أعبائهم ، بما يكتبه لهم ، وطء الحياة ، كما كان شديد القناعة والرضا بما يأتيه القدر ، ولا يقنط من رحمة الله ، دائم الابتسامة ، يرى في كلٍّ خيرًا ، وكانت فيه أخلاق السياسي ، على جهله بها وبمعتركاتها ، من احتيال وروغان ، وحسن إعداد ، وقدرة على التخلص عند الأزمات .

وكان شديد الإحساس بالجمال ، تطرب نفسه له ، ويكتب عن الحسناوات أعذب الألحان الشعرية ، وأصفى الأحاديث النثرية .

والرافعي حاد الذكاء ، ولكنه يبدو بسيطًا إلى الحد الذي يقرب فيه من السذاجة وكان يؤمن كما ذكرت بتجاوب الأرواح ، والوحي والإلهام ، ويقول «هتف بي هاتف أو حدثتني نفسي» [1] .

وقد انعزل المجتمع فلم يشارك في جمعيات أو أحزاب إلا اثنتين كتب لهما ألا تعيشا إلا فترة وجيزة ، وهو رجل متدين يذود عن حرمات الدين ومقدساته ولهذا كان لا يفتأ يبحث في بطون الكتب يستوضحها غوامض الشرع الحكيم ليكشف عن سر من أسراره ، كما يرى أن هذا الواجب الديني يفرض عليه أن يحمي العربية لغة القرآن ، وأن يعيد إليها عزتها وفتوتها ، ويرد عنها مزاعم المضللين ويكشف عن دخائل نفوسهم ، وقد سبب له هذا شجارًا مع كثيرين ، وقد أظهر للإسلام معاني لم ترد في كتب السالفين ومثّل بهذا «تطور الفكرة الإسلامية في عصره وكأنه بعث في غير زمانه ليكون تاريخًا حيًا ينطق

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣١ - ٣٣٣ .

بالعبرة ويجمع تجارب الأجيال ، ويذكر الأمة العربية الإسلامية بماضيها المجيد ، ثم عاد إلى التاريخ بعدما بلّغ رسالته» [١] ، وعاش لنفسه ولدينه ولمجتمعه رائدًا مجاهدًا .

٥- *صورة المجتمع في السيرة :*

بدا المجتمع المصري في سيرة الرافعي للعريان مجتمعًا تتصارعه جواذب شتى من أفكار وتقاليد جديدة يُطعن فيها وفي دعاتها ، ويؤخذ عليهم محاولتهم إبعاد الشعب عن دينه وتراثه ومقدساته ، وقديمة تعمل جاهدة للحفاظ على الإسلام واللغة ، وتسعى إلى العودة إلى ماضي الأجداد السالفين ، وكان الناشئة من بني الشعب يتأثرون خطا الاتجاه الأول ، ويميلون عن الآخر ، ويتنحّون أدبه .

وكانت الأحزاب تنتشر بين صفوف المواطنين ، فهناك حزب الوفد ، والأحرار الدستوريون اللذان يقودان زمام الأمة ، ومعظم أدبائها ، وهناك أنصار الملك لكن هؤلاء كانوا يلقَوْن مناهضة من كلا الفريقين القدامى والمجدّدين ، وكانت الصحف والمجلات تنشر للفئات المتناحرة جمعاء ، وقد تدخلت السياسة في شئون الأدب ، فأربابه يتناحرون ويتناصرون تبعًا للأحزاب التي ينتسبون إليها حتى الزعامة الأدبية تأثرت بها ، فطه حسين مثلاً أمّر العقاد على الشعر ، لاتفاقهما في عداوة الملك ، وكان للأدباء لسان وبيان ، وقدرة على تسيير دفة المجتمع .

أما المرأة فكانت تسير في طريق التحلل من الدين والتقاليد الإسلامية والشرقية ، ومن هنا كثرت مقالات الرافعي عنها كربة أسرة ، أو خليلة أو راقصة ، وتعددت قصصه عن الزواج ولاقت مقالاته وقصصه هذه تأييدًا .

وقد بدا الأزهر يهاب كل تجديد وإصلاح ، ولو كان دعاته ممن فتح الله على قلوبهم ونوّر بصيرتهم بنور الحق ، وأرشدهم إلى هداية هذه الأمة أن

---

(١) المرجع السابق ص ١٧ .

تقع في شبكة الأفكار والآراء الغربية تحت جواذب شتى .

مما سبق تَبيّن لنا أن سيرة الرافعي صدى للبيئة وأحداثها السياسية والأدبية والاجتماعية ولهذا استحقت أن تسجل ، وأن يحفل بها الباحثون والأدباء جميعًا .

٦- «*حياة الرافعي*» *فنيًا* :

تعد هذه السيرة من أوائل الكتب في هذا المضمار ، وقد قصد مؤلفها غايتين فردية واجتماعية ، كان وفاؤه للرافعي الغاية المباشرة من التأليف ، أما الهدف الأسمى الذي حدا به إلى ذلك فهو العمل على نشر رسالة هذا الأديب الذي حمل القلم يذود به عن الدين واللغة ، ويطهر المجتمع من المفاسد ويخلصه من آراء الموبقين ومن هنا تمكن أن يعرض حياة أستاذه في نطاق المجتمع الذي يعيش فيه مؤيدًا أقواله بأحداث تأثرت وتأثر فيها بالبيئة التي يعيش في أجوائها ، فكانت سيرته تاريخية [١] ، وإن لم تغفل الغاية الخلقية والدينية ، وعملت إلى ذلك على إمتاع القارئ بما فيها من حوادث وآراء .

على أنها تعد من السير الأدبية الإخبارية بما حفلت به بالرافعي وإنسانيته وبتجاربه التي قام بها في حبه وصخبه ، وفي مراسلاته ، وكان المترجم لها أمينًا على التاريخ يروي معظم الأخبار والحوادث رواية ، ولا يعمد إلى التفسير إلا قليلاً ومن هنا كنا نرى كثيرًا من قوله «فهذا شيء للتاريخ أثبته على ما فيه ، ليس فيه رأيي ولا رأي أحد معي» ولكنه شيء مما حكاه لي الرافعي ، أو قرأت في كتبه فكتبته في موضعه من هذا البحث ، ... وما لي فيه إلا رواية ، وذلك حسبي من العذر إن كان عليّ معتبة أو ملام» [٢] .

---

(١) انظر لذلك : إحسان عباس : فن السيرة ص ١١ .

(٢) حياة الرافعي ١٦١ ، وكذا ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٨٣ .

وبعد لهذا عن التأثر العاطفي بصداقته حدًّا عرّض فيه به في مجالات متعددة ، تعريضًا لا يليق بأديب بل حتى بإنسان ، وجعله مرّة كالجمل الهائج يثور ، وإذا كان الرافعي يستحق هذا أو لا ، فإنه يدل على نصفة العريان له وتعمده أن يذكره في حالاته جميعها : تدينه ولهوه ، وحبه وكراهيته ، خطئه واستغفاره ، ولم يسكت عن خطئه أو يبرّره له كما ذكر بعض الدارسين [١] .

ومن أمانة المؤلف عرضه أسباب حكاية القصة وكتابة المقالة عرضًا اعتمد فيه على ما وضحه له أستاذه ، أو غيره من صحبه ، أو على ما عرف من بعض حياته ، أو على ما رآه بأم عينه ، وكانت حينما تعوزه الدلائل ، أو يراها غير كافية أو مقنعة يلتزم بسطها دونما تحرج ، وقد يسأل مصدرًا مطّلعًا لتتضح له الفكرة وأسبابها [٢] .

ومن أمانته ذكره موضوع المقالة ومكان نشرها وتاريخه ليسهل على الباحث دراستها ومما يؤخذ عليه تناقضه ، في نفيه اشتراك الرافعي في أية جمعية أو حزب ، ثم إثباته ذلك يقول :

«لم يكن الرافعي عضوًا في جماعة من الجماعات - ولا منتسبًا إلى حزب من الأحزاب ، أو طائفة من الطوائف» [٣] .

وبعد أن يعرض الأسباب التي منعته من ذلك يقول :

«على أن ذلك لم يكن يمنعه أن يكون هواه مع جماعة من الجماعات ... ولم يمنعه ذلك أن يكون عضوًا في بعض الجمعيات» [٤] .

ثم ذكر مثالين لاشتراكه ، أولهما حينما كان شابًّا لم يتجاوز العشرين من عمره حين شرع في تأليف جماعة من الشباب تدعو إلى نوع من الإصلاح

---

(١) انظر فن السيرة ص ٩٣ .
(٢) حياة الرافعي ١٨٧ .
(٣) حياة الرافعي ص ٣٢٥ .
(٤) انظر السابق .

الديني ، وكان معه على هذا الرأي صديقان من أترابه ، والثاني حينما ذهب إليه العريان مع زميلين له يدعونه إلى الاشتراك معهم في «جماعة الثقافة الإسلامية» التي أنشؤوها لإحياء الشعور الديني ، ولبّى دعوتهم بعد تمنّع ، وكان من خطباء الاجتماع الأول [١] .

على أن الجماعتين لم يكتب لهما النجاح ، فلم يطل عمر الواحدة منهما إلا قليلاً مما جعل المترجم ينفي عنه انخراطه في أية جمعية ، ولا سيما أنه لم يشترك في الثانية إلا بعد «تمنع» ، وكان في العشرين من عمره في المرة الأولى ، قبل أن يعتزل الناس تمامًا وينقطع إلى مكتبته ، وعلى أي الحالتين كان على المؤلف أن يتلافى هذا التناقض ، ويصرّح .

ولقد اسطاع العريان بمخالطته للرافعي وأبنائه أن يتعرف على نفسية الرجل وطباعه ، وحياته الخاصة والعامة ، ثم ينقلها إلى القراء جلية ، مما يعجز عنه كثير من كتاب السيرة ، من ذلك ما كشفه للقراء عن صراعه النفسي بين حبه لفلانة [٢] حبًا امتزج بكبرياء النفس ، فغدا يظهر بمظهر الكراهية ، وصار يقول لها : «أيتها المحبوبة إنني أبغضك .. إنني أبغضك أيتها المحبوبة ...» [٣] .

يقول العريان في ذلك :

«ما أبغض الرافعي صاحبته يومًا منذ كانت ، ولا استطاع أن يفك نفسه من وثاقها ، وما هذه الثورة التي ألهمته كتاب «رسائل الأحزان» و «السحاب الأحمر» إلا لون من ذلك الحب . وفصل من فصوله ، وكان الخطأ في العنوان ، فلما ثابت إليه نفسه نزا به الحنين إلى الماضي ، ولكن كبرياءه وقف في سبيله ، فظل حيث هو ، ولكن قلبه ظل يتنزى بالشوق

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٢) وهي مي زيادة الأديبة اللبنانية المعروفة .

(٣) المرجع السابق ص ١١٢ .

والحنين» [١] .

على أن العريان تمكن أن يصور لنا مواطن القوة والضعف عند الرافعي فهو أديب يتمتع بمقدرة عقلية فائقة إلى ثقافة عربية دينية واسعة ، وهذه الثقافة وتلك المقدرة تمكن بهما من تأليف كتابه «تاريخ آداب العرب» في مدة سنتين وقد شهد له أدباء العصر بتفوقه فيه ، وهو إنسان يصيب ويخطئ ، عنيف ثوري ، إلى حد الحماقة أحيانًا كما اعترف بها يومًا .

وقد اتبع المترجم النهج التاريخي في عرض حياة صاحبه حين عرضها علينا متبعًا التسلسل الزمني لها وأبان عن تطورات شخصيته على مر عمرها وتفاعلاتها مع المجتمع الذي عايشته ، ومزج في كل ذلك بين الحكاية والتفسير ، والشرح والتعليل من ذلك تعليله لاعتراض العقاد على تخطئة الرافعي لأحمد شوقي [٢] وكذا على انسحاب الأول من المعركة الأدبية التي دارت بينه وبين الرافعي [٣] . وتفسيره كثيرًا من تصرفات أستاذه . كما يبدي آراءه في كتبه مؤيدة بحجج تثبت صحة آرائه .

ولقد استهل سيرته بمقدمة سماها تمهيدًا أبانت الصلة الوطيدة التي جمعت بينه وبينه ، ومنزلته الأدبية والعلمية والدينية ، والعبء الثقيل الذي حمل تبعته بوفاته ، ثم عرضَتْ النهج الذي سيتبعه في دراسته ، وهو نهج علمي واضح مؤيد بالبراهين والأدلة . كما اعتذَرَتْ عمن سيرد اسمهم فيما لا يستحب لأن أمرهم غدا ملكًا للتاريخ .

أما الفصول فقد تحدثت عن حياة الأديب استهلّ بعضها بكلمات من المترجم له أو من صاحبته ، وفي الخاتمة عرض منزلته الأدبية ، ودعا إلى الحفاظ على تراثه ، وتعريف الناشئة به والفائدة التي تجنى منه .

---

(١) انظر السابق .

(٢) انظر حياة الرافعي ص ١٩٥ .

(٣) انظر حياة الرافعي ص ٢٠٥ .

لقد كانت مقدمته ملائمة للموضوع حين أوحت لنا بصدق ما سيقوله لأنه خالطه زمناً طويلا - وبمكانته فهو أهل لأن تسجل حياته في كتاب . وألح في الخاتمه على منزلته ليتوجه النشء إلى كتبه فيتأسَّوا خطاه ويغاروا غيرته على الدين والفصحى وفي الخاتمه أيضا ثورة على الحكومة والأدباء أن يهملوا أهله بعده . ويهملوا أدبه ، وكان فيها هذه الأسطر :

«ألا إنه إذا كان أكثر الأدباء المعاصرين قد عقوا الرافعي وأغفلوا شأنه وتناسوه فإن جيلاً جديدًا يوشك أن يبسط سلطانه ، زاحفًا متقحمًا لا يثبت أمامه شيء ، ويومئذ ... ويومئذ تذهب العداوات بأصحابها ، وتنطفئ هذه الفقاعات العائمة ، ويخبو الرماد ، ويخلص وجه الحق للحق ! ...

ويومئذ ... ويومئذ تعلو كلمة الله» (١) .

والسيرة في حد ذاتها متوسطة الطول ، وقد خلت من الاستطرادات إلا ما ذكره حين عرض القصة عند الرافعي فبين صلاحية تراثنا لاستمداد قصص منه ، ودعا إلى إحياء الماضي لئلا تنقطع الصلة بيننا وبينه ، ولتحيا الآداب العربية ، وتتجدد بهذا لا بالجري وراء كتاب الغرب وشعرائه (٢) .

ولقد ورد في السيرة أسماء عدة لشخصيات ثانوية كان لها دور في حياة الرافعي . وعرض من حياتها ما تحتاج إليه السيرة ، فطه حسين مثلاً جاءنا في نقده لكتاب «تاريخ آداب العرب» و «رسائل الأحزان» ثم في المعركة الأدبية بينهما ، وأخيرًا يوم نعاه ، وعلى الرغم من أن هذه الشخصيات قاربت المئتين إلا أن من قام منها بدور فعال لم يتجاوز خمسًا وعشرين ، وما سواها كانت تاريخية أو اتصلت بالأديب اتصالات قليلة كرسائل استوضحت منه جوابًا ، أو مقالات أنشئت من أجلها .

ولقد اتبع الأسلوب التقريري في سرد حياتها إلا أنه عمد إلى تصوير

---

(١) حياة الرافعي ٣٥٨ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

مواقف بعض الشخصيات تصويرًا أثار مشاعرنا فالرافعي مثلاً جمل مزبد الشدقين ، وهو قزم ضعيف وقف على السفح واعتمد خاصرته على راحته ، وأخذ ينظر إلى أعلى ليقول للشعراء العمالقة على القمة : «انزلوا إليّ أو أصعد إليكم فأرميكم إلى بطن الوادي أشلاء ممزقة ، ليس فيها عضو إلى عضو ، ولا يُسمع لكم صريخ» [1] .

ولنقرأ له هذا المقطع الذي يبين عن أسلوبه التصويري ، إنه أسلوبه القصصي يرسم به صورة لصاحبة الرافعي :

« ... وهي فتاة لم يسالمها الدهر ، ولما تزل منذ كانت غرضًا لسهام الأيام ،تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها ، فتجعل لها من كل همّ همّين ، وإن حواليها لكثيرًا من الأصدقاء يزدلفون إليها ، ويخطبون ودها ، ولكنها تريد الصديق الذي يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه أكثر مما تريد الصديق الذي لا تسمع منه إلا كلمات الزلفى والتحبب ، واصطناع الهوى والغرام» [2] .

فالأديب يصور لنا ميّ زيادة ، أو فلانة كما عرّفها فتاة تتقاذفها المصائب ، وتنال منها يومًا بعد يوم ، فتود أن تخفف من وطأتها بالبوح إلى إنسان يستمع شكواها ، فلا ترى إلا صديقًا يطربها ، فتزداد إحساسًا بالمصاعب والآلام .

وإذا كانت السيرة تكتب للعلم فإن الخيال يزيدها تأثيرًا ، لكنه الخيال الواقعي الذي لا تتدخل فيه قصص مختلفة ، وإلا لكانت قصة تصور حياة بطل تصويرًا يفيد الفن لا العلم .

أما الحوار فقد جاء بين الفينة والأخرى ليضفي على الكتاب حياة وحيوية ، وخيالاً يقربه من جو القصة ، على نحو ما نراه بين الرافعي وبعض

---

(١) حياة الرافعي ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٦ .

صحبه .

على أن الأسلوب كان علميًا هادئًا مقنعًا ، يعرض فيه الحقائق مؤيدة بالأدلة المنتزعة ، وهو بسيط واضح لا يحتاج إلى عنت ومشقة للبحث عن مضامينه ، ولكنه قد يصادفنا أسلوب ثائر حماسي ذو نبرة موسيقية عالية ، تتخلله كلمات معجمية رنانة ، مقترن بالسخرية حينًا ، وبالحزن حينًا آخر ، وقد تبدى هذا في فصل «في يومه الأخير» الذي كان في أواخره مقاطع انتهت بجملة يرحمه الله وذلك على النحو التالي :

يرحمه الله ! يرحمه الله !

صوت ماله صدى ، وتراث ليس فيه غناء ، وطعام لا يهنأ ولا يمرأ ، وخلود لا يدوم إلى غد ، وعزاء لا يجفف دمعة ، ولا يخفف لوعة ، ولا ينفذ إلى قلب طفل سلبه الموت أباه ، وسعادة دنياه !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

... خلوا عنكم أيها الأدباء الكبار ، وأيها الشعراء العظام ، وأيها الخطباء المصاقع ، خلوا عنكم عناءها ، سيرحمه الله وإن لم تقولوها ، سيرحمه بما جاهد ، وبما بذل ، وبما عانى ، وبما تحمل من جهد التضحية ، ومشقة الحرمان ، وسيرحمه ثانية بما لقي من العقوق وكان برًا ، وبما لقي من الغدر وكان وفيًا ، وبما قوبل من إنكار الجميل ، وكان من أهل الجميل ؛ وسيرحمه بدموع اليتامى ، وبأنات الأيامى ، وبدعوات كثير من أهل الإيمان ، وفوا له ما وسعهم الوفاء !» [1] .

فالأديب هنا ثائر مغيظ على الدولة التي أهملت ذكره ، ثم طالبت أهله بالتركة التي تستحقها على قلتها ، وعلى الأدباء الذين ذكروا الشحناء والبغضاء ، ولم يذكروا أطفاله اليتامى الذين غَدَوْا محتاجين إلى الحنان والمال، ولأنه قوبل بنكران الجميل عند صحبه وغير صحبه ، وكان وفيًا بذل من وقته

(١) حياة الرافعي ص ٣٤٣ - ٣٤٨ .

وراحته الكثير من أجلهم ومن أجل راحتهم ، ولهذا كان يكرر لهم يرحمه الله استهزاء بهم فالله سيرحمه لرحمته بالناس ولجهاده ، ولعقوقهم لا بقولهم وتقصيرهم .

على أن أسلوبه في السيرة قد يأتي هادئًا هدوء المؤمن أمام حكمة الله وتدبيره لكنه يثير في النفس انفعالاً عميقًا ، ولنقرأ له هذا المقطع الذي يوضح لنا هذا :

«في بعض اللحظات التي تفيض فيها النفس بالألم ، يحس الإنسان كأنه شيء له في نظام الكون إرادة وتدبير ، وأن من حقه أن يقول للمقدور : لماذا أنت في طريقي ...؟ فتراه في بعض نجواه يتساءل : ربّ لم كتبت عليّ هذا ...؟ لماذا حكمت بذلك ...؟ لماذا قدّرت وقضيت ...؟ ... وتظل حكمة الله مطوية في ظلمات الغيب لا يتنورها إلا مَنْ غمره شعاع الإيمان ، وسطع في قلبه نور الحكمة ؛ أما الذين تعبدتهم شهوات أنفسهم فهم أبدًا في حيرة وضلال .

في لحظة من تلك اللحظات أغمض الرافعي عينيه وراح يفكر» [1] .

فهنا نرى الأديب يصور لنا النفس البشرية في فترة من فترات حياتها تصادف أمرًا عَسِرًا لا تعرف الحكمة منه فتلجّ أو تتوب إلى الله تبعًا لمدى إيمانها ، يصور لنا هذا بأسلوب هادئ يجعل المرء يستجيب لحكمة الله العلي القدير ولتدبيره المحكم في هذا الكون الفسيح .

وأخيرًا فإني أرى أن العريان صور الرجل على حقيقته ، إنسانًا يصيب ويخطئ ، ويقوى ويضعف ، ويحب ويكره ، ولكنه على أي حال مناضل مجاهد بقلمه ، مجدد في دعوته تجديد المؤمن الذي لم تفتنه جواذب الحياة ومغرياتها ، والغرب ومعطياته عن لب الحقيقة ، وجوهر الأمر .

بقي أن أشير إلى أن هذا الكتاب طبع عدة طبعات ، بين يديّ الآن

---

(١) المرجع السابق ص ٧٨ .

ثلاث منهما ، اختلفت كل واحدة عن الأخريين قليل الاختلاف ، ويتضح هذا في عدد الصفحات ، وذلك بسبب التعليقات التي أشار إليها المؤلف ، كحديثه الذي جرى بينه وبين الشاعر عبد الملك عفيفي حول صحة ما ورد في الطبعة الأولى عن علاقة الشاعر بالرافعي [1] .

***

---

(١) انظر حياة الرافعي ص ١٨١ - ١٨٣ ، والطبعة الأولى في ٢٩٤ صفحة عدا الفهارس وكانت في ١٩٣٩ والثالثة تقع في ٣٥٨ صفحة عدا الفهارس أيضًا ، وقد اعتمدتها في هذه الدراسة .

الخاتمة

حمدًا لله على نعمائه والصلاة والسلام على رسوله ﷺ . وعلى آله والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ...

فقد حاولت فيما سبق من صفحات أن أؤرخ حياة الأديب محمد سعيد العريان ، وأدرس فنه المقالي ، وما يتعلق به من خواطر وتعريفات بالكتب ونقد أدبي ، ثم فن السيرة عنده ، وكانت دراستي هذه في مقدمة وبابين بينت في الأولى موضوع الكتاب ، والمصادر التي اعتمدتها ، ومنهج دراستي ، ثم انتقلت إلى الباب الأول لأتحدث فيه عن حياة الأديب وآثاره وآرائه ، وتبين أنه كان ولوعًا بالمطالعة ، متأثرًا في ذلك بأبيه ثم بأستاذه وصديقه مصطفى صادق الرافعي ، وكان لهذا أثره في أدبه ، وفي دعواته التربوية ، وكذلك كان لزوجه أثر في حياته الفنية مذ كانت خطيبًا له حتى توفاها الله إلى رحمته ، ففي المرحلة الأولى كانت تحثه على الأدب ، وكان لانتظارها أثره العميق في كثير من مقالاته ، وفي المرحلة الثانية كان الحزن الممض قد قرّح جفنيه لطول ما كان يبكيها حتى نصحه الناصحون بالعدول عن ذلك وعما يبكي القراء من مقالات شجية .

وقد حفلت حياته بالجهاد الطويل ، فمنذ كان يافعًا أخذ يقاوم الإنكليز ،واستمر في جهاده ودعواته الإصلاحية حتى قبيل وفاته بفترة وجيزة إذ انتهى بصدامه مع بعض المسئولين من أجل تطوير الأزهر ، وعمرت حياته كذلك بأنشطة متعددة وظهر أثرها في آثاره وآرائه ولا سيا ما يتعلق بالمرأة وانحدارها نحو الهاوية ، يقودها إلى ذلك مخادعون يزينون لها الباطل تحت أسماء براقة ، ثم ما يتصل بالصحافة ، ورسالتها وأخيرًا بالدعوة العالمية

الإسلامية واقترنت بالدعوة العربية كخطوة أولى تلم شمل العرب جميعًا ثم تنطلق بهم نحو هدف أسمى ينقذ البشرية مما تتخبط فيه من جراء النظامين الشرقي الشيوعي ، والغربي الرأسمالي .

أما الباب الثاني فكان في آدابه الأخرى ، المقالات وما يتعلق بها من خوا ـر ، وتعريف بالكتب ، ونقد أدبي ، ثم فن السيرة عنده ، ومضيت في الفصل الأول أبين أنواع المقالات الذاتية منها والموضوعية ، وأحلل بعضها تحليلاً يكشف عن خصائصها ، وقد تبين لي أن النوع الأول كان في جملته تعبيرًا عن أحاسيسه ومشاعره نحو زوجه ، وكان الحزن يملأ جوانبها ، والأسى يعتصر قلوب قرائها .

أما المقالات الموضوعية فقد عالجت أدواء المجتمع الاجتماعية والتربوية والسياسية ، وكان للأخيرة نصيب ضئيل ذلك لأن عنايته بإبراز النواحي السياسية في القصص الطويلة وفي الخواطر كان لها أثر في ذلك ، إضافة إلى أنه كان يكتب أحيانًا مقالات لا يشير عند نشرها إلى أنه مؤلفها ومنشئ سطورها لكن صحبه عرفوا فيه هذه الخلة .

ومن تحليل مقالاته تبين أنه كاتب مقالة برع في هذا الفن ، وإن أخذ عليه في بعضها مآخذ .

أما خواطره فكانت قصيرة ، وقد طرقت موضوعات شتى ، وكان يوقعها بقاف ، وقد عالجت أمورًا متعددة ، ولم تقتصر السياسة منها على مصر ، بل تعدتها إلى العرب أجمعين ، وامتازت بأسلوبها الثائر العاطفي ، وكان في بعضها هدوء العالم المتزن .

وقد عني العريان بتعريف الكتب التي تنشر في الأسواق ، واتبع في عرضها المذهب الواقعي الذي يتحدث عن الموضوع والهدف كما يراه هو لا كما يراه مؤلفه .

ونثر في تضاعيف أدبه نقدات تحليلية ، تأثر فيها بالإسلام ، وبالأدب

العربي قديمه وحديثه ، وبما ترجم من نقد أجنبي ، وهي على أهمية مضمونها لا تجعله في النقاد ، ولكنه كان يلتزم ما يدعو إليه .

ويتمثل أدب السيرة عند العريان في كتابه (حياة الرافعي) ، وقد تناول البحث خصائصها عنده ، وأصل كتابه ، ودوافع تأليفه ، وموضوعه وتبين أنه صور فيه حياة الأديب الرافعي بجزئياتها ، تمامًا كما كان يدعو إليه في مقالاته النقدية ، كما صورت المجتمع المصري آنذاك ، وهو مجتمع تتناحره الأحزاب ، وتتوزعه أفكار شتى بعضها إسلامي محافظ ، وبعضها مستورد مارق .

ويمكن القول إنها سيرة أدبية إخبارية بما حفلت بالرافعي وإنسانيته ، وتجاربه ، وكان المترجم أمينًا في نقل الروايات ، وتعد سيرته فنية إلى حد كبير ، وهي من أوائل الكتب في هذا الفن الأدبي .

***

ملحق رقم (١)

جدول يوضح نشاطاته في حياته .

السنة	العمل أو النشاط
١٩٠٥	مولده .
١٩١٦	حفظ القرآن الكريم وانتسب إلى المعهد الأحمدي ، وهو فرع للأزهر .
١٩١٩	شارك في ثورة ١٩١٩ .
١٩٢٥	نال شهادة الابتدائية .
١٩٢٦	سجن لجهاده الوطني .
١٩٢٦	نال الشهادة الثانوية وانتسب إلى كلية دار العلوم .
١٩٣٠	نال دبلوم دار العلوم .
١٩٣٠-١٩٣٢	درس في شربين معلمًا .
١٩٣٢-١٩٣٤	كان مدرسًا في طنطا . وهي فترة اتصاله بالرافعي .
١٩٣٣	اشترك في إنشاء جماعة الثقافة الإسلامية .
١٩٣٨	تزوج زوجه الأولى .
١٩٤٢	توفيت زوجه .
١٩٤٢	عمل في ديوان الوزارة بمراقبة الثقافة العامة .
١٩٤٤	تسلم رئاسة مكتب الصحافة ، ووظيفة منتدب في المكتب الفني .
١٩٤٤-١٩٤٥	مراقب النشاط المدرسي . موظف في الإدارة العامة للمعاهد العالية ، مدير أحد أقسام الإدارة العامة للثقافة ، سكرتير وزير المعارف .
١٩٤٥	فصل عن وظيفته .
١٩٤٦	مندوب عن جريدة البلاغ . مدير المكتب الفني لوزير المعارف محمد حسن العشماوي .
١٩٤٧	مدير إدارة نشر الثقافة .
١٩٤٨	مدير إدارة السكرتارية الفنية بمنطقة القاهرة الشمالية ، مدرس في الثانوية
١٩٥٢-١٩٥٣	مفتش للغة العربية .

السنة	العمل أو النشاط
١٩٥٦	في نقابة المعلمين ، عضو في جمعية الأدباء ، ومن مؤسسي نادي القصة ، وعضو فيه ، وعضو في لجنة النثر والقصة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مدير إدارة العلاقات العامة بوزارة التربية والتعليم .
١٩٦٠	وكيل الوزارة المساعد للعلاقات الخارجية .
١٩٦١-١٩٦٢	حضر مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية ، وكان عضوًا فيه .
١٩٦١	وكيل وزارة شئون الأزهر منتدب من وزارة التربية .
١٩٦٢	ترك العمل ثلاثة أشهر ثم عاد إليه ستة أشهر ثم استقال من الأزهر بعد نقله منه .
١٩٦٢	عضو في الاتحاد الاشتراكي .
١٩٦٤	استقال من وظيفته في التربية .
١٩٦٤	وفاته .

* * *

ملحق رقم (٢)

مؤلفاته

السنة	المؤلفات
١٩٢٨	محاضرة : كيف أختار زوجتي .
١٩٣٣	قصة : تقاليد .
١٩٣٤	قصة : العروس ، الأم الثانية .
١٩٣٥	بدأ فن التعريف بالكتب واستمر فيه حتى سنة ١٩٤٧ ، كما بدأ بالمقالات ، قصة : عابر سبيل ، الشهيد الغريب عثمان بن مظعون ، كما بدأ بالقصص المدرسية بالاشتراك مع غيره وأولها مدمس أكسفورد، ثم الصياد التائه وعددها ثلاثة وعشرون قصة للأطفال .
١٩٣٦	قصة : المتنبي يعشق - زوجة وفت . إبليس يتوب .
١٩٣٧	مقالات عن حياة الرافعي قبل وفاته ، ثم بعيدها استمرت حتى ١٩٤٠ ، قصة من مواقف العروبة .
١٩٣٨	ذكر أنه سينشر كتابه (المؤثرات السياسية في جليل من الأدباء) وألف قصة ورقة النصيب - قبل انبثاق الفجر ، محاضرة عن الرافعي في القدس بمناسبة مرور عام على وفاته .
١٩٣٩	قصة الضيف الآخر - دار مؤمنة ، راهب إيليا وكتاب حياة الرافعي ، ومحاضرة عن فن القصص .
١٩٤٠	ظهرت له القصص القصيرة التالية بالتسلسل : سيدنا . حلم شاعر . من أدباء الجيل . بعد الأوان . قلب أم ، حقيقة الذكريات ، أم بلا ولد ، الدرس الأول ، عيد الربيع ، إنه أخي ، البعث ، عرس القرية ، جندي مرابط ، عودة الماضي ، رجلان وامرأتان . وهذه في المجموعة تحت عنوان ثمن المجد ، آخر الطريق ، همام ، ثمن الأمومة ، جناية رجل ، لقاء ، أمنية تحققت ، وقد ضُمَّتْ هذه القصص في مجموعة واحدة أضيف إليها ما صدر له سابقًا (العروس ، إبليس يتوب ، الضيف الآخر) وسميت المجموعة (من

السنة	المؤلفات
	حولنا) ، كما صدر له قصة تاريخية دينية بعنوان : باسمك اللهم .
١٩٤١	تحقيق العقد الفريد لابن عبد ربه ، والأمصار والعمران لابن خلدون وإلقاء كلمة بمناسبة عيد المولد النبوي . تأليف النشيد القومي . قصة النائب المحترم وأضيفت إلى المجموعة ، كما أضيف إليها (انتقام الآلة) فبلغ مجموع قصصها ثمانية وعشرون من أصل اثنين وثلاثين عدد قصصها . تأليف قصة كتيبة الإسلام .
١٩٤٢	بدء أدب الخواطر في مجلة الثقافة .
١٩٤٣	ذكر أنه يعد كتابه (تحت الرماد) للنشر ، محاضرة : رأي في تعليم اللغة . قصة رجل صدق . استمرار أدب الخواطر والمقالة في مجلتي الثقافة والرسالة غالبًا . مقال : ابن خلدون وهو في مقدمة الأمصار والعمران الذي حققه . قصة قطر الندى ، وصدور مجموعته (من حولنا) .
١٩٤٦	فترة كتابة قصتيه : على باب زويلة . شجرة الدر .
١٩٤٧	صدور لقصتين الآنفتين الذكر . مقال لويس التاسع عشر في الأسر وهو مقتطع من قصة شجرة الدر . ست مقالات عن المؤتمر الثقافي العربي في لبنان ، كتيب رمضان .
١٩٤٨	قصة بنت قسطنتين . مصرع البغي . مقال (كتاب احتجاج لوزير المعارف على نقله إلى الثانوية) . مقال مجانية التعليم حق للفقراء لا منحة للأغنياء.
١٩٤٩	تحقيق المعجب في تلخيص أخبار المغرب .
١٩٥٠	قصة كفاح . مجموعة روضة الأطفال «بير زويلة ، محسن ومحاسن» ، مراجعة كتابي المطالعة العربية للمدارس المغربية جـ ٣ للقسم الثاني بالمدارس الابتدائية ، وكذلك جـ ٤ لصف الشهادة الابتدائية .
١٩٥١	تحقيق ديوان الشوقيات جـ ٤ . كتيب : أول الوهن في الإمبراطورية الإسلامية وهو محاضرة .
١٩٥٢	من (١٩٥٢ - ١٩٥٥) وضع مشروع اخترنا لك ، وأشرف على إصدار الأعداد الأولى منها ، وشارك في تأليف بعضها : أما ما اشترك في تأليفه خلال هذه الأعوام فهو بالتسلسل :

	إفريقيا حلم الاستعمار البريطاني ، أضواء على الحبشة ،البترول والسياسة العربية . شمال إفريقيا ، جنوب إفريقيا . كما كان رئيس تحرير مجلة سندباد التي بدأ صدورها هذا العام ، واستمرت سبع سنين توقفت بعدها ، وكان يشارك فيها في تأليف أقسام كبرى أهمها رحلات سندباد والعرب لاخريستوف كولمبس ، ويؤلف مشتركًا مع غيره قصص كان يا ما كان .
١٩٥٣	تحقيق (تحت راية القرآن) للرافعي . تحقيق شيطان بنتاءور لأحمد شوقي .تأليف : تركيا والسياسة العربية من مجموعة اخترنا لك مشتركًا مع غيره .
١٩٥٤	تحقيق تاريخ آداب العرب للرافعي .
١٩٥٥	كتاب المعلم لتعليم القراءة للصف الأول مشتركًا مع غيره . حقيقة الشيوعية من مجموعة اخترنا لك مشتركًا . طريق الحرية .
١٩٥٦	معركة الحرية ويضم جزأين هما أسباب المعركة ، وأهداف المعركة ، تأليف كتب قراءة للمرحلة الابتدائية ، مقالات تربوية ، ندوات ، طبع ما فيها في مجلة الرائد صوت المعلمين .
١٩٥٧	استمرار صدور مجلة سندباد .
١٩٥٨	تحقيق كتابي الرافعي «رسائل الأحزان» ط ٨ . و «السحاب الأحمر» ط٧ .
١٩٥٩	ندوات ومحاضرات وكلمات عن التعليم والحياد الإيجابي ، وتوجيه كتاب أحاديث في التوجيه القومي ، تأليف دعوة الكواكبي ومفهوم القومية العربية عند الكواكبي وهما محاضرتان .
١٩٦٠	تأليف كتب قراءة وتربية دينية للمرحلة الابتدائية . كتاب : قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ط٢ مشتركًا مع الدكتور جمال الدين الشيال .
١٩٦١	طبع قصة العرب لاخريستوف كولمبس - مقال القصة والتاريخ . مؤتمرات خارج مصر ألقى فيها كلمات عن الأنظمة الدولية .
١٩٦٢	تقديم كتاب تل سامر . مقالات تربوية في مجلة الرائد .
١٩٦٣	تحقيق أوراق الورد للرافعي ط٧ . مقالات تربوية في مجلة الرائد ، مغامرات آرنباد ورحلات سندباد اللتين كانتا تنشران في مجلة سندباد .
١٩٦٤	محاضرة الدين عن الله ألقاها في ندوة في رمضان ، وقد حفظت لأنها نشرت

	على حين ضاع ما لم ينشر من محاضراته التي ألقاها في ندوات في هذا الشهر الكريم . كما فقد كتابه مستقبل الإسلام الذي ذكر في رثائه . * * *

هذه آثاره إلى كتب منقودة ذكر بعضها في الجدول السابق وهو محاضرته (كيف أختار زوجتي) التي طبعت مرارًا في كتيبات [1] ، ولم أعثر عليها على طول فترة البحث ؛ وكتاب (المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء) الذي ذَكَر أنه يعده للنشر ، ثم لم يفعل ، وكتاب (تحت الرماد) الذي ذكرت ابنته أنه أخفاه عن الأعين[2]،وفيه مراثيه لأمها وكتاب (مستقبل الإسلام في مصر أو الحكومة الإنسانية العالمية) [3] ، وهناك روايتان هما : رجعة طومان باي ، وسمية أم زياد ، فقدتا مع ما فقد من أدبه [4] .

وبعض كتبه وقصصه طبع مرات عديدة وهو العقد الفريد ، وحياة الرافعي ، طبع مرتان ، والقصص المدرسية للأطفال وقد طبع بعضها ثمان مرات ، وكذا رحلات سندباد ، وحقيقة الشيوعية طبع مرتين ؛ لأنها اقتصرت في الطبعة الثانية على ذكر المؤلف (علي أدهم) فقط .

أما الكتب الأخرى فقد طبعت مرة ، وهناك كتب أخرى لا تتجاوز أربعة لم أستطع الوقوف على زمن تأليفها ، وقد مرّ موضوعها .

* * *

---

(١) ذكر ذلك الأستاذ محمد عبد الجواد في تقويم دار العلوم ص ٤٢٩ .
(٢) في رسالة لها في ١٩٧٤/٦/٣ .
(٣) انظر : السيد أحمد العجان : ذكر الفقيد الخالد : مجلة الرائد سبتمبر ١٩٦٥ ع ٩ ص ١ .
(٤) المرجع السابق ص ٦

المصادر والمراجع

المؤلف	الكتاب
١- القرآن الكريم .	
٢- ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) تحقيق محمد سعيد العريان :	العقد الفريد : جـ ١ ط ٢ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٥٣ .
٣- إحسان عباس .	فن السيرة ط ٢ نشر دار الثقافة بيروت ١٩٥٦
٤- د . أحمد الشايب .	الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية سنة ١٩٣٩ وط ٦ سنة ١٩٦٦ نشر النهضة المصرية .
٥- أحمد أمين .	النقد الأدبي جـ ١ ، ٢ ط ٤ سنة ١٩٧٢ نشر مكتبة النهضة المصرية .
٦- أحمد شوقي تحقيق محمد سعيد العريان .	ديوان الشوقيات جـ ٢ ط ٢ سنة ١٩٥٦ مطبعة الاستقامة .
٧- أحمد شوقي تحقيق محمد سعيد العريان :	شيطان بنتاءور أو لبد لقمان وهدهد سليمان المطبعة التجارية الكبرى .
٨- إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي .	تفسير القرآن العظيم دار الفكر بيروت . لبنان .
٩- البيضاوي ناصر الدين .	أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١٣٥٦ هـ .
١٠- جمعية الثقافة الإسلامية في طنطا .	جماعة الثقافة الإسلامية بطنطا : مطبعة الاعتماد بطنطا ١٩٣٣ .
١٢ - زكي نجيب محمود .	جنة العبيط أو أدب المقالة : القاهرة لجنة التأويل والترجمة والنشر ١٩٤٧ .
١٣- سهل بن عبد الله التستري .	تفسير القرآن العظيم مطبعة السعادة ١٩٠٨ .
١٤- سيد قطب .	النقد الأدبي أصوله ومناهجه ط ٤ دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ١٩٦٦ .
١٥- د . عباس خضر .	غرام الأدباء : سلسلة اقرأ ١٥٧ دار المعارف بمصر ١٩٥٦ .

المؤلف	الكتاب
١٦- عبد الرحمن بن خلدون تحقيق محمد سعيد العريان .	الأمصار والعمران : الباب الرابع من مقدمة ابن خلدون ط ١ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤١ .
١٨- د . عبد اللطيف حمزة .	أدب المقالة الصحفية في مصر جـ ١ ط ١ نشر دار الفكر العربي مطبعة الاعتماد بمصر .
١٩- عبد الواحد المراكشي تحقيق محمد سعيد العريان .	المعجب في تلخيص أخبار المغرب ط ١ و ٢ مطبعة الاستقامة ٩ .
٢٠- عدة أساتذة :	مع سعيد العريان دراسات تحليلية لأدبه مطبعة المليحة بالجيزة ١٩٥٠ .
٢١- د . عز الدين إسماعيل .	الأدب وفنونه : دراسة ونقد ط ١ دار النشر المصرية مطبعة الاعتماد ١٩٥٥ .
٢٢- القزويني محمد بن عبد الرحمن شرح عبد الرحمن البرقوقي .	التلخيص في علوم البلاغة . المكتبة التجارية بمصر .
٢٣- كمال الدين حسين : توجيه محمد سعيد العريان .	التربية والتعليم في خمس سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٧ : المكتبة القومية ١٩٥٧ .
٢٤- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .	جوائز الدولة في الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٦٢ .
٢٥- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة القرآن والسنة في جمهورية مصر العربية .	المنتخب في تفسير القرآن العظيم ط ٣ مطابع الأهرام التجارية ١٩٧٣ .
٢٦- د . محمد أبو الأنوار محمد علي .	مصطفى لطفي المنفلوطي الكاتب رسالة ماجستير بإشراف الدكتور عمر الدسوقي .
٢٧- محمد أحمد فرغلي تقديم محمد سعيد العريان .	تل سامر . مشروع نشر الكتاب الأول (٦) : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، الاتحاد القومي . دار مطابع الشعب القاهرة ١٩٦٢ .
٢٨- د . محمد المبارك .	فقه اللغة وخصائص العربية . دار الفكر بيروت ١٩٦٨ .

٢٩- محمد سعيد العريان .	أسباب المعركة وزارة التربية والتعليم ١٩٥٦.
٣٠- محمد سعيد العريان .	أهداف المعركة مطبعة وزارة التربية بمصر : إدارة الشئون العامة ١٩٥٦ .
٣١- محمد سعيد العريان .	أول الوهن في الإمبراطورية الإسلامية حركات انفصالية .
٣٢- محمد سعيد العريان .	حياة الرافعي ط ٢ سنة ١٩٤٧ القسم المتعلق بحياته و ط ٣ سنة ١٩٥٥ مطبعة الاستقامة دراسة السيرة .
٣٣- محمد سعيد العريان .	دعوة الكواكبي مطابع ابن زيدون بدمشق ١٩٥٩ .
٣٤- محمد سعيد العريان .	رمضان : سلسلة مكتبة الشعب ١٣٦٥ هـ نشر دار إحياء الكتب العربية .
٣٥- محمد سعيد العريان .	طريق الحرية وزارة التربية والتعليم ١٩٥٥ .
٣٦- محمد سعيد العريان .	على باب زويلة دار المعارف بمصر ١٩٧٢ .
٣٧- محمد سعيد العريان .	قطر الندى دار المعارف بمصر ١٩٧٢ .
٣٨- محمد سعيد العريان .	بنت قسطنطين دار المعارف بمصر ١٩٥٧ .
٣٩- محمد سعيد العريان .	شجرة الدر دار المعارف بمصر سلسلة اقرأ
٤٠- محمد سعيد العريان .	مجموعة (من حولنا) القصصية دار المعارف بمصر ١٩٧٢ .
٤١- محمد سعيد العريان .	مفهوم القومية العربية عند الكواكبي مطبعة العنان بحلب ١٩٥٩ .
٤٢- محمد سعيد العريان وآخرون .	أحاديث في التوجيه القومي وزارة التربية والتعليم بمصر ١٩٥٩ .
٤٣- محمد سعيد العريان وآخرون .	أضواء على الحبشة دار المعارف بمصر.
٤٤- محمد سعيد العريان وآخرون .	البترول والسياسة العربية دار المعارف بمصر.
٤٥- محمد سعيد العريان وآخرون .	إفريقيا حلم الاستعمار البريطاني دار المعارف بمصر .

٤٦- محمد سعيد العريان وآخرون .	تركيا والسياسة العربية من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء آتاتورك : دار المعارف بمصر .
٤٧- محمد سعيد العريان وآخرون .	جنوب إفريقيا جنة البيض وجحيم الملونين دار المعارف بمصر .
٤٨- محمد سعيد العريان وآخرون .	حقيقة الشيوعية دار المعارف بمصر .
٤٩- محمد سعيد العريان .	شمال إفريقيا بين الماضي والحاضر والمستقبل دار المعارف بمصر .
٥٠- محمد سعيد العريان وجمال الدين الشيال .	قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .
٥١- محمد سعيد العريان وآخرون .	مؤتمر المعلمين العرب الدورة الأولى ١٩٥٦ نقابة المهن التعليمية .
٥٢- محمد عبد الجواد .	تقويم دار العلوم : العدد الماسي ١٩٤٧ وملحقه ١٩٦٠ مطبعة هوسابير ١٩٦٠ .
٥٣- د . محمد عوض محمد .	محاضرات عن فن المقالة .
٥٤- محمد كامل حته .	معجم الأدباء المعاصرين : محمد سعيد العريان طبع دار الكتب المصرية ١٩٥٧ .
٥٥- مصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان .	السحاب الأحمر ط، ٧ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٥٨ .
٥٦- مصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان .	أوراق الورد رسائلي ورسائله ط ٧ المطبعة التجارية الكبرى مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٦٣ .
٥٧- مصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان .	تاريخ آداب العرب جـ ١ ط ٣ سنة ١٩٥٣ مطبعة الاستقامة بالقاهرة و جـ ٣ ط ٢ سنة ١٩٥٤ .
٥٨- مصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان .	تحت راية القرآن ط المكتبة التجارية بمصر ١٩٥٣ .
٥٩- مصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد	حديث القمر ط ٦ مطبعة الاستقامة

سعيد العريان .	بالقاهرة ١٩٦٤ .
٦٠- مصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان .	رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب ط ٨ المطبعة التجارية الكبرى بمصر ١٩٥٨ .
٦١- مصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان .	كتاب المساكين .
٦٢- مصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان .	وحي القلم ط ٦ المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
٦٣- مصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان .	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ط ٨ .
٦٤- مقبول أحمد .	المقالة الأدبية في الأدب المصري الحديث وتأثرها بالأدب الإنجليزي رسالة دكتوراه سنة ١٩٧٢ .

الدوريات

١- جريدة الأخبار «في مصر» .

٢- جريدة الأهرام «في مصر» .

٣- جريدة البلاغ «في مصر» .

٤- دفتر محاضرات جلسات نادي القصة .

٥- سجل نادي القصة .

٦- سجل جمعية الأدباء .

٧- مجلة بناء الوطن .

٨- مجلة صحيفة دار العلوم .

٩- مجلة الثقافة .

١٠- مجلة الرائد صوت المعلمين .

١١- مجلة الرسالة .

١٢- مجلة العربي .

١٣- مجلة الكاتب المصري .

١٤- مجلة الكتاب .

* * *

الفهرس

* * *


طبعت بمطابع
الفاروق الحديثة للطباعة والنشر
ت : ٤٣٠٧٥٢٦ - ٢٠٥٥٦٨٨
القاهـرة


Bibliotheca Alexandrina
09339215